كتابي

الكتاب الشهري لتلخيص الكتب العالمية

١٢ قرشا



حلمي مراد

لوحة "فتاة عربية" للرسام الاندونيسي "بازوكي عبدالله"

كتابى

كتاب شهرى لتلخيص الكتب العالمية

يصدر أول كل شهر - صاحبه ورئيس تحريره: حلمى مراد

الكتاب الثانى والتسعون (السنة الثامنة)

الاشتراكات والأعداد السابقة : التفصيلات بالداخل

الادارة : عمارة الجندول (١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦

محتويات الكتاب

الموضوع **الصفحة**

قراءات ومشاهدات : للمحرر (« ميكروميجاس » :
قصة فلسفية تنبأ فيها « فولتير » – عام
١٧٥٢ – بغزو الفضاء !) ٧

نهر الدون الهادىء : أشهر قصة طويلة للأديب
السوفييتى المعاصر « ميخائيل شولوخوف » . ٣٥

عربة اسمها اللذة : المسرحية التى بنت مجد الكاتب
الأمريكى المعاصر « تنيسى وليامز » . . . ٧٩

حياة الامام الغزالى (لمناسبة الاحتفال بذكراه) . . ١٠٧

المنقذ من الضلال : (اعترافات الامام الغزالى) . . ١٢١

شواطىء الحب الضارية (نزوات زوجة) : للأديبة
المؤرخة « ليسلى بلانش » ١٣٧

توماس مان : قصة حياة أديب ألمانيا المعاصر ، الفائز
بجائزة نوبل ١٦١

كتب جديدة ، من الغرب والشرق (رسالة باريس) . ١٨١

رسالة لندن ١٩٣

رسالة نيويورك ٢٠٣

نشوء الفكرية القومية : للفيلسوف العربى المعاصر
« ساطع الحصرى » ٢١٠

مجموعة « كتابى »

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها اثنان وتسعون كتابا، يضاف اليها كتاب جديد فى أول كل شهر.

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الامينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها اربعة وخمسون كتابا (ومجلدان خارج السلسلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصة « دكتور جيفاجو ») ، وتطلب قائمة بأسماء الكتب جميعا من الادارة .

الاشتراكات

• تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :
ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

• الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابى فى ج.ع.م والسودان والمملكة السعودية والاردن ولبنان وليبيا والعراق ١٤٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الاخرى والبلاد الاجنبية على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بأن سعرها فى مصر

ولمن شاء أن ترسل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، أن يدفع فرق الرسوم .

• ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عادى . وللمشتركين فى البلاد الاخرى أن يرسلوا القيمة بشيك على أحد بنوك القاهرة ، أو تحويلات مصرفية ، أو كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما ، فالاشتراك السنوى ١٨٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل .



قراءات ومشاهدات

فولتير .. وغزو الفضاء !

عزيزى القارىء ..

كان الشهر الحالى شهر غزو الفضاء ، ففيه سجل صعود « جاجارين » الى حيث دار دورة كاملة حول الأرض ، أعظم انتصار علمى للعقل البشرى !

ورغم أن « كتابى » كان سباقا الى نشر أكثر من تلخيص يتصل بهذا الموضوع ، (ويحضرنى من هذه التلخيصات عند كتابة هذه السطور : تلخيص كتاب (عالم الغد — رحلات الى مستعمراتنا فى الكواكب على « سفن الفضاء » ، للباحث الانجليزى البروفيسور « أ . م . لو ») ، **وقد نشرته لك فى العدد ٦٥ الصادر فى أغسطس ١٩٥٧** .. ثم تلخيص كتاب (« انسان فى القمر » ، للروائى المعروف «هـ . ج . ويلز»)، **وقد نشر فى العدد ٦٨ ، الصادر فى نوفمبر ١٩٥٧** .. الى غير ذلك من التلخيصات المشابهة التى نشرت فى أعداد أخرى .

أقول ، انه رغم نشر تلك الأبحاث والموضوعات «التكهنية» أو « الخيالية » ، قبل تحققها ، **فاننى لم أستسغ أن يترك (كتابى) هذا الحدث الخطير يتحقق ، دون أن يحتفل به — بطريقته الخاصة —** فيقدم لك بشأنه مادة ثقافية جديدة — أو بالأحرى قديمة — تكشف لك جانبا مجهولا (بالنسبة لقراء العربية) من انتاج الأديب ، والفيلسوف ، وداعية الحرية ، الثائر « فولتير » !

فتعال معى نقرأ هذه القصة الفلسفية التهكمية اللاذعة ، التى كتبها فولتير عام ١٧٥٢ ، وتنبأ فيها بغزو الفضاء ، والسفر بين الكواكب . . فتحققت النبوءة بعد قرنين كاملين !

(ولو أن نزعة فولتير الى السخرية قد ساقته الى مبالغات

تدخل فى باب « التخريف » — كما سترى — لكنه تخريف فلسفى ، له طرافته على كل حال !)

والآن ، أترك الأديب الاستاذ ميخائيل بشاى — الذى ترجم لك من قبل مسرحيتى « ألبير كامى » : (كاليجولا) ، و (سوء فهم) — يترجم لك هذه القصة التى أطلق عليها فولتير اسم « ميكروميجاس » :

الفصل الاول

(رحلة واحد من سكان النجم الأبرق (١) الى كوكب زحل)

فى واحد من تلك النجوم المحيطة بالكوكب المسمى زحل ، كان يعيش فتى على قدر كبير من الذكاء والفطنة . وكان لى شرف معرفته ، فى رحلته الاخيرة الى عش النمل الذى نسكنه . وكان اسمه ميكروميجاس (٢) ، وهو اسم يناسب جدا كافة العظماء . وكان ارتفاع قامته ثمانية فراسخ . وتساوى هذه الفراسخ الثمانية ، فيما أعلم ، أربعة وعشرين ألف خطوة هندسية ، كل منها خمسة أقدام . (٣)

---

(١) النجم الأبرقى ، أو (سيريوس) هو أكثر النجوم التماعا ، وأكبرها حجما ، ويبعد عن الارض مسافة تساوى نصف قطرها مضروبا فى ٨٩٦٨٠٥ .

(٢) اسم مركب من الكلمتين اليونانيتين : « ميكروس » أى الصغير ، و «ميجاس» أى الكبير ، ويراد به أن كل شىء نسبى ، فالكبير صغير بالقياس الى ما هو أكبر منه وهكذا .

(٣) والقدم يساوى ١ر٦٢ مترا ، فيكون مجموع طوله ٣٨٨٨٠ مترا ! والفرسخ يزيد على ٤ كيلومترات ، ويقدره فولتير بما يساوى ٤٨٦٠ مترا .

ولو أخذ بعض الرياضيين أقلامهم ، بالمناسبة ، وهم ذوو نفع ، على العموم ، لوجدوا أنه ما دام السيد ميكروميجاس الأبرقي يبلغ ، من فرعه الى قدمه ، أربعة وعشرين ألف خطوة ، تساوى مائة وعشرين ألف قدم ، فى حين أننا ــ نحن سكان الارض ــ لا نكاد نبلغ أقداما خمسة ، وأن محيط أرضنا يبلغ ثمانية آلاف فرسخ .. أقول لوجدوا أنه ينبغى، قطعا ، **أن يكون محيط النجم الذى أنجبه أكبر من محيط أرضنا الصغيرة واحدا وعشرين مليونا وستمائة ألف مرة .** وليس فى الطبيعة شىء بسيط ، ومألوف ، أكثر من هذا . ولو قورن بعض الممالك الالمانية ، أو الايطالية (١) التى يمكن أن يدور حولها المرء فى نصف الساعة ،بامبراطورية الاتراك أو الموسكوف أو الصينيين ، ما كانت هذه المقارنة الا صورة شاحبة للاختلاف العجيب الذى تضعه الطبيعة فى الكائنات . وما دامت قامة «صاحب السعادة» بهذا العلو الذى ذكرت ، فلابد أن يوافقنى رجال الفنون عندنا ، من نحاتين، ومصورين، على أن **محيط خصره يمكن أن يبلغ خمسين ألفا من الاقدام** .. وما أبدعها من نسبة !

أما عن مدى علمه ، ومواهبه ، فانه واحد من أولئك الذين بلغوا من الثقافة شأوا أبعد مما بلغناه الى حد كبير . فهو يعرف أشياء كثيرة، بل انه قد ابتكر بعضا منها ، **ولما يبلغ عمره الخمسين بعد المائتين** . وقد كان يتلقى علومه ــ كما هى العادة ــ بمدارس الجزويت ، فى كوكبه ! (٢) .. وقداهتدى ،

(١) كان فولتير دائم السخرية من تلك الممالك الصغيرة التى كانت تحيط نفسها بمظاهر العظمة الزائفة ، فى حين كانت لا تقارن بعظمة فرنسا فى ذلك العصر !

(٢) كذلك كان فولتير دائم السخرية من رجال الدين « الجزويت » ، أو اليسوعيين ، فى بلاده .

بذكائه الحاد ، الى أكثر من خمسين نظرية من نظريات « اقليدس » ، أى تزيد ثمانى عشرة نظرية عما عرفه بليز باسكال الذى أصبح - (بعد أن اهتدى وهو يلهو - على قول شقيقته - الى اثنتين وثلاثين نظرية) - رياضياً متوسطا .

وفى **يفاعته** ، أى فى **نحو السنة الاربعمائة والخمسين من عمره** ، قام بتشريح عدد كبير من حشراته الصغيرة التى لم يكن قطرها يبلغ المائة قدم ، فكانت تختفى تحت المجاهر العادية . وألف عنها كتابا هاما ، الا أنه تعرض من جرائه لبعض المتاعب . ذلك أن مفتى بلاده ، وهو رجل على قدر كبير من التفاهة والجهل ، وجد فى كتابه ذاك أقوالا مريبة ، ومنحرفة ، وجريئة ، وملحدة ، يشتم منها الزيغ والضلال ، وطارده بعنف بالغ ، فقد كان يبحث فيما اذا كانت المادة التى تتكون منها براغيث النجم « الأبرق » من نفس طبيعة المادة التى يتكون منها الحلزون . ودافع « ميكروميجاس » عن نفسه بشدة ، وتشيعت له النساء (١) ، واستمر نظر القضية **مائتين وعشرين عاما** ، حتى أصدر المفتى حكمه بادانة الكتاب ، على لسان الفقهاء الذين لم يقرأوا منه حرفا !

وتلقى المؤلف أمرا بعدم الظهور فى البلاط الملكى ثمانمائة عام كاملة ، الا أنه لم يشعر بكثير من الأسف على طرده من بلاط لا يملؤه غير الملال ، والضعة . وألف أنشودة ساخرة فى هجاء المفتى الذى لم يبال بها كثيرا . ثم شد رحاله وراح يتنقل من كوكب الى كوكب .. وأولئك الذين لا يسافرون الا فى عربات البريد ، وغيرها من الصناديق المقفلة ذات

---

(١) كما تشيعن ، مثلا ، للكاتب الفرنسى شارل بيرو (١٦٢٨ - ١٧٠٣) فى المعركة التى دارت حول كتابه « مقارنة بين القدامي والمحدثين » .

النوافذ ، تدهشهم **مركبات الفضاء** (١) من غير شك ، لاننا ـ فوق كتلتنا هذه التى من الطين ـ لا نهضم شيئا يفوق ما تعودنا عليه .

وكان رحالتنا يعرف ، الى حد عجيب ، قوانين الجاذبية ، وكافة القوى الجاذبة والدافعة ، فأفاد منها جميعا ، حتى أنه ، بمساعدة شعاع من أشعة الشمس ، أو ظرف مناسب لأحد الكواكب ، **كان يتنقل ، هو وأتباعه ، من كرة الى كرة ، كتنقل الطير بين الغصون** . كما أنه عبر الطريق اللبنى فى فترة وجيزة ، وأنا مضطر للاعتراف هنا بأنه لم ير أبدا ، بين أنجمه المتناثرة ، تلك السماء الجميلة العليا ، التى توهم القس الشهير « درهام » أنه رآها فى نهاية منظاره . ولست أعنى أن السيد درهام قد أخطأ الرؤية ، لا سمح الله ! الا أن ميكروميجاس كان هناك ، وانه لمراقب دقيق الملاحظة ، وما أريد أن أناقض أحدا .

وبعد أن دار ميكروميجاس دورة طيبة ، وصل الى زحل . ولأنه لم يعتد ، الا قليلا ، رؤية الاشياء الجديدة ، فانه عندما رأى صغر الكوكب وساكنيه ، لم يستطع أن يمنع نفسه من ابتسام التفوق والامتياز الذى ينفلت أحيانا ، ويرتسم على شفاه الحكماء الكبار ، فلم يكن زحل ـ فى آخر الأمر ـ ليزيد حجمه أكثر من ثمانمائة مرة عن حجم الارض . أما أهله فأقزام لا ترتفع قاماتهم غير ألف « تواز » (٢) فى المتوسط . وسخر فى نفسه قليلا ، أول الأمر ، من أولئك القوم ، كما يضحك الموسيقى الايطالى من موسيقى « لوللى » عندما يزور

(١) من العجيب أن يستعمل فولتير تعبير « مركبات الفضاء » ، فى عام ١٧٥٢ .

(٢) مقياس طولى كان يساوى ١٫٩٤٩ من المتر .

فرنسا (١) . لكنه لما كان – ذلك الأبرقى – مهذبا ، فسرعان ما أدرك أن كائنا مفكرا لا يبعث على الضحك لأن طوله لا يبلغ الا ستة آلاف قدم . ولما رأى دهشة الزحليين مازحهم وعقد صداقة وألفة مع سكرتير الأكاديمية هناك . وهو رجل ذكى، ولئن كان لم يكتشف شيئا فى الحقيقة، الا انه أفاد جيدا من اكتشافات الآخرين (٢) وألف أبياتا من الشعر ، وأبحاثا رياضية لا بأس بها . وسوف أنقل هنا ، للقراء ، حديثا نادرا كان قد دار يوما بين ميكروميجاس ، والسيد السكرتير .

الفصل الثانى

(حديث ساكن « الأبرق » ، مع ساكن « زحل »)

فبعد أن نال «صاحب السعادة» حظه من النوم ، واقترب السكرتير من وجهه ، قال ميكروميجاس : « ينبغى أن نعترف بما فى الطبيعة من اختلاف كبير» فأجاب ساكن زحل : «نعم ، تشبه الطبيعة بستاناً من الزهر الذى .. » (٣) ، فقال الآخر : « آه ! دع بستانك حيث هو » ، فعاد السكرتير يقول: « انها مثل طائفة من الشقراوات والسمراوات اللائى حليهن .. » ، فقال صاحبه : « اه . ! أى شأن لى بسمراواتك ؟ ! »

– انها ، اذن ، كمعرض التصوير الذى ..

---

(١) كانت المنافسة حينئذ شديدة بين الموسيقى الفرنسية والموسيقى الايطالية .

(٢) يسخر فولتير من « فونتينيل » السكرتير الدائم لأكاديمية العلوم فى ذلك الوقت .

(٣) يسخر فولتير أيضا من « فونتينيل » الذى استخدم هذا الأسلوب المزخرف فى كتابه « تعدد العوالم » .

فقال المسافر : « كلا ! فالطبيعة لا تشبه الا الطبيعة . ولماذا تبحث عن أوجه للمقارنة ؟ » . فأجاب السكرتير : « لكى أرضيك » . ورد عليه السائح : **« لست أريد ما يرضينى بل أريد ما يزيدنى علما** . قل لى ، أولا ، كم حاسة لأهل كوكبك ؟ » . فقال الأكاديمى : « ان لنا اثنتين وسبعين حاسة ، ونحن نشكو من قلتها دائما . فخيالنا يربو على حاجاتنا ، ونشعر بالحصر بين حواسنا الاثنتين والسبعين ، والحلقة المحيطة بكوكبنا ، وأقمارنا الخمسة . وعلى الرغم من تطلعنا ، والعواطف الكثيرة الجياشة الناتجة عن حواسنا تلك ، لا ينقطع ما نستشعره من الملل » . فقال ميكروميجاس: « انى مصدقك . **فحواسنا تقارب الألف ، الا أننا نشعر بما لا أعرفه من الرغبات الغامضة ، والقلق الذى ينذرنا ــ دائما ــ بأننا شىء ضئيل ، وأنه توجد كائنات أكثر منا كمالا .** لقد قمت بأسفار قليلة ، ورأيت خلائق تسمو علينا كثيرا ، لكننى لم أجد من بينها طائفة ليست شهواتها أكثر مما يقنعها ويرضيها . ولقد أصل يوما الى بلد لاينقصه شىء ، لكن أحدا لم يعطنى ــ حتى الآن ــ خبرا أكيدا عن ذلك البلد » .

واستغرق الزحلى ، والأبرقى ، فى الاحلام ، والاوهام ، حتى وجدا ــ بعد كثير من النقاش البارع ، والحجج التى يعوزها اليقين ــ أنه لابد من رجوعهما الى الواقع ، فقال الأبرقى : « كما هى الحال عندنا تماما . فنحن لا نفتأ نشكو من قصر أعمارنا . ويبدو أن هذه قاعدة عامة من قواعد الطبيعة . » وقال الزحلى : « واحسرتاه ! اننا لا نعيش الا خمسمائة دورة شمسية كبرى (وهذه تبلغ بحسابنا خمسة عشر ألف عام ، فى المتوسط) . ومن هذا ترى أننا نموت

حالما نولد. فوجودنا نقطة، وبقاؤنا برهة، وكوكبنا ذرة (١) . **وما أن نشرع فى تكوين أنفسنا ، حتى يأتينا الموت ، ولما نحصل على شىء من الخبرة** . أما أنا فلا أجرؤ على تحقيق شىء ، فما أجد الا اننى قطرة ماء ، فى محيط غير محدود ! »

ورد عليه ميكروميجاس : « لو لم تكن فيلسوفا ، لخشيت ايلامك اذ أقول **أن حياتنا قدر حياتكم سبعمائة مرة** . لكنك تعلم حق العلم أنه ما أن يتحتم علينا تسليم جثثنا للعناصر ، وتجديد الطبيعة تحت مظهر آخر — هو ما يسمى بالموت ، عندما يحل بنا هذا التحول — حتى **يتساوى لدينا أن نكون قد عشنا أبدية كاملة ، أم عشنا يوما واحدا . لقد كنت فى بلاد يعيش أهلوها ألف مرة أطول مما نعيش . وألفيتهم يتذمرون أيضا** . لكن هناك ، فى كل مكان ، أناسا قد حسن ادراكهم ، فهم يتقبلون حظهم ، ويشكرون خالق الطبيعة . الا ما أكثر ما ينتشر فى هذا الكون من اختلاف تشمله وحدة عجيبة . فالكائنات المفكرة — مثلا — تتباين أشخاصها ، الا أنها جميعا تتفق فى خاصة الفكر والرغبات الطبيعية . والمادة منتشرة فى كل مكان ، الا أن لها فى كل كوكب خواص مختلفة عن غيرها فى الكواكب الاخرى . كم عدد الخواص التى تتميز بها المادة عندكم ؟ » .

فقال الزحلى : « اذا كنت تعنى تلك الخواص التى نعتقد أنه بدونها ما كان يتحقق لهذا الكوكب وجوده بحالته هذه ، فقد أحصينا منها ثلاثمائة : كالامتداد ، والصلابة ، والحركة، والجذب ، والانقسام ، الى آخره » . فرد عليه السائح

---

(١) يردد فولتير هنا آراء الفلاسفة الذين كانوا يصرون على تقرير الشقاء الانسانى خاصة ، من أمثال « مونتينى » ، و « بوسويه » ، و « باسكال » .

مفسرا : « **جلى أن الخالق يجد فى هذا العدد ما يكفى كوكبكم الصغير . وانى لعظيم التقدير لحكمته ، ففى كل مكان أجد اختلافات شتى ، غير انى أجد التناسب فى كل مكان كذلك . فكوكبكم صغير ، وأهله صغار أيضا . وحواسكم قليلة ، ومادتكم لا تملك الكثير من الخواص ، وهذا كله من تدبير العناية الالهية.** أى لون يكون لشمسكم عندما تختبرونها ؟» .

فقال الزحلى : « اللون الأبيض المائل الى صفرة شديدة . وعندما نحلل منها شعاعا نجد انه يتألف من سبعة ألوان (١) »

فقال الأيرقى : « ان شمسنا تميل الى الحمرة (٢) . وعندنا تسعة وثلاثون لونا أساسيا . وليست هناك شمس تشبه الاخرى بين كافة الشموس التى دنوت منها ، كما أنه ليس عندكم وجه لا يختلف عن بقية الوجوه » .

وبعد أسئلة كثيرة من هذا النوع ، تساءل عما أحصوه من العناصر التى تختلف اختلافا جوهريا فى زحل . وعلم أنهم لم يعرفوا هناك الا ثلاثين عنصرا ، كالاله ، والمكان ، والمادة ، والكائنات الهيولية التى تشعر ، وتفكر ، وغيرها المفكرة الغير الهيولية ، وتلك التى تتحد، وتلك التى لا تتحد ، الى آخره .

أما الأيرقى الذى أحصوا فى عالمه ثلاثمائة منها ــ واكتشف هو ، فى رحلاته ، ثلاثة آلاف أخرى ــ فقد أدهش الفيلسوف الزحلى الى حد كبير .

وأخيرا ، وبعد أن تبادلا كثيرا مما يعرفان، وما لا يعرفان ، وتناقشا معا زهاء دورة شمسية ، قررا أن يقوما ، سويا ، برحلة فلسفية صغيرة .

---

(١) هى ألوان الطيف التى اكتشفها اسحق نيوتن (١٦٤٢ ــ ١٧٢٧)

(٢) كان ضوء الأبرق ضاربا الى الحمرة ، وهو الآن أبيض.

الفصل الثالث

(رحلة ساكنى « الأبرق » و « زحل »)

وهكذا رحل الصاحبان المتطلعان الى المعرفة ، فقفزا أولا الى الحلقة المحيطة بزحل (١) ، ووجداها مسطحة ، كما كان قد خمن رجل شهير من سكان أرضنا الصغيرة (٢) ، **ومن هناك أخذا يتنقلان — فى سهولة ويسر — من قمر الى قمر . ومر أحد المذنبات ، قريبا من آخر قمر كانا يمتطيانه ، فقفزا اليه بأتباعهما ، وأدواتهما . فلما قطعا نحو المائة والخمسين مليونا من الفراسخ ، التقيا بتوابع كوكب (المشترى) ، فانتقلا الى (المشترى) نفسه** ، ولبثا هناك عاما أتيح لهما فيه أن يعرفا كثيرا من الاسرار البديعة التى ستدفع الى المطبعة ، عما قريب ، دون تدخل الفقهاء ، الذين وجدوا بها أقوالا شديدة الوطأة ، لكننى قد اطلعت على أصولها بمكتبة الأسقف الشهير « . . . » الذى أتاح لى أن أرى كتبه ، فى عطف كريم لا أستطيع أن أفيه حقه من الشكر والتقدير .

ولكن، فلنعد الى سائحينا : فبعد خروجهما من (المشترى)، عبرا فضاء يقارب مائة مليون من الفراسخ ، حتى حاذيا كوكب (المريخ) الذى يقل حجمه — كما نعلم — خمس مرات ، عن أرضنا الصغيرة ، وشهدا قمريه اللذين غابا عن أعين علمائنا . وانى لأعلم أن الأب « كاستيل » (٣) سيفند — بطريقته المضحكة — وجود هذين القمرين ، لكننى أفوض

---

(١) هما ، فى الحقيقة ، حلقتان .

(٢) هو الهولندى كريستيان هويجنز (١٦٢٩ — ١٦٩٥)

(٣) عالم فرنسى من « الجزويت » (١٦٨٨ — ١٧٥٧) كان يشذ فى تفكيره أحيانا ، الا أنه كان ذا أصالة ، وقد اشتهر باختراع آلة موسيقية .

الأمر الى رجال المنطق الذين يستخدمون المقارنة والقياس . فأولئك الفلاسفة الطيبون يعلمون كم يكون من العسير أن يقنع المريخ، على بعده السحيق من الشمس، بأقل من قمرين . ومهما يكن من أمر، فقد اتضح لصاحبينا ان المريخ صغير الى الحد الذى جعلهما يخشيان الا يجدا فيه موضعا للرقاد ، فانطلقا ، على دربهما ، كسائحين يزدريان فندقا ريفيا ، فيهرعان الى المدينة المجاورة .

ولكن الأبرقى، وصاحبه ، سرعان ما أحسا بالندم اذ قطعا مرحلة طويلة ، دون أن يعثرا على شىء . وفى آخر الأمر ، لاح لهما نور ضئيل : **انها الأرض** . ولم يكن ذلك الا داعيا للاشفاق على قوم قادمين من المشترى . وخشية أن يندما ، للمرة الثانية ، قررا أن يهبطا اليها ، فاتجها الى ذيل المذنب . وألفيا أمامهما شفقا شماليا (١) فاخترقاه حتى وصلا الى الأرض ، على شاطىء شمالى من شطآن البلطيق ، فى الخامس من يوليو عام ١٧٣٧ وفقا للتقويم الجديد . (٢)

الفصل الرابع

(ما جرى لهما ، على الكرة الأرضية)

بعد أن استراحا قليلا ، والتهما ، فى فطورهما ، جبلين جهزهما للأكل أتباعهما (٣) ، أرادا أن يتعرفا على البلد الذى

---

(١) ظاهرة ضوئية تظهر فى السماء ناحية الشمال .

(٢) أى التقويم الجريجورى .

(٣) كما أكل « السيكلوب بوليفيم » بعض رفاق «أوليس» (الأوديسة ، النشيد التاسع) وكما أكل « جارجانتوا » ستة حيتان ، ليفتح شهيته (النشيد الثامن والثلاثون) ولكن البطلين هنا ، أضخم جدا من هذين الماردين .

كانا يحلان به ، فاتجها - أولا - من الشمال الى الجنوب . وكانت الخطوة العادية للأبرقى نحو ثلاثين ألف قدم ، فكان القزم الزحلى - وقامته لا تزيد على الألف تواز - يتبعه ، من بعيد ، وهو يلهث . ولو شاء به لحاقا لصار عليه أن يخطو اثنتى عشرة خطوة ، كلما تقدم الآخر خطوة . تصور (لو أمكنت المقارنة) جروا ضئيلا يتبع قائدا من حرس الملك البروسى !

ولما كان ذانك الغريبان يغذان السير ، فقد **داراً حول الارض فى ست وثلاثين ساعة** ، بينما تقوم الشمس - أو الأرض ، على الأصح - برحلة مماثلة فى يوم واحد . ولكن ينبغى أن نذكر أن حركة الجسم تكون أيسر لو دار حول محوره ، مما لو سار على قدميه . وها هما قد عادا الى موضع البدء من دورتهما ، بعد أن رأيا تلك المخاضة التى تكاد ألاترى بالقياس اليهما ، ويطلقون عليها اسم (المتوسط)، وذلك المستنقع الآخر الذى يحدق بتلال الخلد ، تحت اسم (المحيط العظيم) . ولم يكن الماء يرقى - بالنسبة للقزم - الى منتصف ساقه ، بينما لم يكد يغمر عقب الآخر . ولقد فعلا كل ما كان فى مقدورهما : جيئة ، وذهابا ، وارتقاء ، وانحدارا ، ليعرفا اذا كان هذا الكوكب مأهولا ، أم غير مأهول، فانحنيا ورقدا ، وتحسسا فى كل موضع ، **الا أن عيونهما ، وأيديهما ، لم تكن تتناسب أبدا مع الكائنات الدقيقة التى تدب هنا . فلم يلمحا أثرا يحدسان منه أن لنا ، ولاخواننا الآخرين من سكان هذه الارض ، شرف الوجود !**

وفى أول الامر ، قرر القزم الذى كان يتسرع فى اصدار أحكامه أحيانا ، أنه لا يوجد ثمة انسان على الأرض . وكانت حجته الأولى أنه لم يكن يرى أحدا . ولكن ميكروميجاس أشعره - فى أدب - بفساد منطقه ، قائلا له : « هناك طائفة

معينة من النجوم الدقيقة الحجم ، أراها أنا بوضوح ، ولكنك لا تراها بعينيك الصغيرتين ، فهل تقطع — لهذا السبب — بأنها غير موجودة ؟ » . فقال القزم : « لكنني تحسست جيداً . » وأجابه الآخر : « لكنك لم تحس كما ينبغى . » فعاد القزم يقول: «هذا الكوكب ردىء البناء ، فهو غير منتظم، وشكله يظهر لى باعثا على الضحك ! .. وكأن كل شىء هنا مختلط. هل ترى هذه الجداول التى لا يستقيم واحد منها ، وهذه البرك التى لا هى مستديرة ، ولا مربعة ، ولا بيضية ، ولا تقع تحت أى شكل منتظم ، وكل هذه الحبيبات المسنونة التى تجعل لهذا الكوكب سطحا شائكا ، وتدمى قدمى هاتين؟ (كان يعنى الجبال) . وهل تلاحظ شكل هذه الكرة ، فى مجموعها ، وكيف أنها مسطحة عند القطبين، وكيف أنها تدور حول الشمس بطريقة سيئة تجعل أرض القطبين بائرة ، بالضرورة ؟ **الحق أن ما يجعلنى أفكر فى خلو هذه الكرة من الناس ما أخاله من أن قوما ذوى ادراك سليم لا يقبلون العيش فيها ! »** .

فقال ميكروميجاس : « نعم . **لعل سكانها ألا يكونوا قوما أذكياء** ، لكن هناك من الظواهر ما يدل على أنها لم تخلق بلا غرض. ولئن لاحت لك الاشياء غير منتظمة هنا — كما تقول — فلأن كل شىء شديد الاستقامة فى زحل ، وفى المشترى . ولعله لهذا السبب نفسه يوجد هنا شىء من الاضطراب . ألم أقل لك انى قد لاحظت دائما ، فى رحلاتى، وجود الاختلاف؟» ورد الزحلى بكل ما يملك من حجة . وما كان الجدال لينتهى، لو لم يقطع ميكروميجاس ، لحسن الحظ ، قلادته الماسية ، فى حماسة حديثة !

وتهاوت ماساتها ، على الأرض. وكانت جميلة ، وصغيرة ، وغير متساوية الأحجام ، فكانت كبراها تزن أربعمائة رطل ،

بينما كانت الاخرى تزن خمسين رطلا . واستطاع القزم أن بجمع حبات منها ، فلما قربها من عينيه ، تبين من الطريقة التى سويت بها ، أنها مجاهر ، ممتازة ، فأخذ منها مجهرا صغيرا يبلغ قطره مائة وستين قدما ، وثبته تحت عينيه . كما تخير ميكروميجاس واحدا قطره الفان وخمسمائة قدم . وكان المجهران على درجة فائقة من الكمال ، الا انهما لم يتمكنا من رؤية شىء بهما ، أول الامر ، وكان لزاما عليهما أن يعدلا من وضعهما . ثم شاهد الزحلى أخيرا شيئا معتما يضطرب بين خطين من الماء ، فى بحر البلطيق . **وكان حوتا . فأمسكه ببراعة ، ووضعه على ظفر ابهامه ، وأراه للأبرقى الذى ضحك ، مرة أخرى ، من ضآلة سكان كوكبنا.** وسرعان ما توهم الزحلى (وقد اقتنع الآن بأن عالمنا مأهول) أن أهله حيتان فحسب . ولما كان مفكرا كبيرا ، فقد أراد أن يعرف من أين تستمد ذرة صغيرة كهذه أصلها ، وحركتها .. واذا كانت لها أفكار ، وارادة ، وحرية ؟

وحار ميكروميجاس فى الأمر ، فاختبر الحيوان فى صبر عظيم ، وكانت نتيجة اختباره أنه ما من شىء يدل على أن به روحا . **حينئذ بدءا يميلان الى اعتبار أرضنا خالية من الحياة** ، حتى رأيا تحت المجهر شيئا مستطيلا يسبح فى بحر البلطيق . ونعلم أنه ، فى نفس ذلك الوقت ، كانت جماعة من الفلاسفة فى طريق عودتها من الدائرة القطبية ، حيث قامت ببعض مشاهدات لم يتح لأحد أن يعرف عنها شيئا فى ذلك الحين (١) . وقالت الصحف ان سفينتهم غرقت فى خليج بوثنى ، وان انقاذهم مستحيل . ولكننا ، فى هذا العالم ، لا نعرف شيئا لم تسجله الخرائط . وسوف أروى

---

(١) يعنى فولتير بعثة « موبيرتيوس » العلمية الى اقليم (لابونيا) ، فى أقصى الشمال من أوربا .

ببساطة كيف حدث الشيء ، دون أن أضيف اليه زيادة من عندى . وهذا ، لعمرى ، جهد ليس هينا بالنسبة للمؤرخ .

الفصل الخامس

(تجارب السائحين ، ومناقشاتهما)

مد ميكروميجاس يده ، فى رفق شديد ، الى الموضع الذى كان ذلك الشيء يظهر فيه ، وبسط اثنين من أصابعه ، ثم طواهما ، خشية أن يخطىء الهدف . ثم عاد فبسطهما ، وقبضهما ، **فأطبقهما على السفينة التى كانت تحمل أولئك السادة ، وأرساها أيضا على ظفره ، دون أن يضغط عليها كثيرا مخافة أن يحطمها . وقال القزم الزحلى : ((ها هو ذا حيوان يختلف عن الأول اختلافا كبيرا .))** ووضع الأبرقى الحيوان المزعوم فى كفه ، وظن أصحاب السفينة أن عاصفة هوجاء قد رفعتهم ، ثم ألقت بهم على نوع من الصخور ، فبادروا الى الحركة : فأخذ النوتية براميل النبيذ ، وألقوا بها على كف ميكروميجاس ، وأسرعوا يغادرون السفينة بعد ذلك . وأخذ المهندسون أرباع دوائرهم ومقاطعهم (١) ، كما أخذوا فتاتين لابونيتين ، وهبطوا على أصابع الأبرقى ، وأكثروا من الحركة حتى أحس بشيء يدغدغ أصابعه ، وكأن عصا حديدية يغرسونها فى سبابته . وتبين ، من تلك الوخزة ، أن شيئا قد خرج من جوف الحيوان الصغير الذى يمسكه ، لكنه لم يتوقع أكثر من هذا . ولم يكن المجهر الذى أظهر الحوت والسفينة ، بعد عناء ، لينجح فى اظهار كائنات دقيقة ، كبنى الانسان . ولست أريد هنا أن أصدم غرور أحد ، لكننى مضطر الى رجاء ذوى الخطر ، عندنا ، أن

(١) ربع الدائرة ، والمقطع ، آلتان تستخدمان فى القياس .

يلاحظوا معى ملاحظة صغيرة : فلو قدرنا طول الرجل بخمسة أقدام ، لا يكون حجمه ، بالنسبة للأرض ، أكبر من حجم حيوان يقارب ارتفاعه جزءا من ستمائة ألف جزء من ارتفاع البرغوث ، على كرة محيطها عشرة أقدام . تصوروا كائنا يستطيع أن يمسك الأرض فى يده ، ونسبة أعضائه الى أعضائنا ، وقدروا أن هناك من أمثاله عددا كبيرا ، **ثم تصوروا — أرجوكم — رأى هذه الكائنات العظمى فى معاركنا الحربية التى يكتسب فيها المنتصر قرية ، ليفقدها بعد ذلك . (١)**

وما أشك فى أنه لو أتيح لقائد عسكرى أن يقرأ هذا الكتاب ، لما طاول السماء بقبعات جنوده . وحسنا يفعل ، فانه ، وجنوده ، لن يكونوا أبدا الا صغارا ، متناهين فى الصغر .

وأى خطاب رائع لا ينبغى أن يوجه الى فيلسوفنا الأبرقى الذى استطاع أن يرى تلك الذرات الدقيقة التى تحدثت عنها ؟ . ان « ليوفنهوك » و « هارتزوكر » (٢) لم يكتشفا شيئا مدهشا الى هذا الحد ، عندما وقعت عيونهما على المواد الاولية التى اعتقدا ان فيها تلك النواة التى نتكون منها . وياللسعادة التى أحس بها ميكروميجاس وهو يرى تحرك هذه الآلات الصغيرة ، ويختبر دوراتها جميعا ، ويتبعها فى كل ما تعمل . فكم صاح جذلا ، وكم دفع مجهره الى رفيق رحلته وهو طروب ، وكم قالا فى نفس واحد : **« أنى أراهم . ألا تشهد هؤلاء الذين يحملون أثقالا ، ويهبطون ، ويصعدون ! »** .

---

(١) كان فولتير دائم السخرية من الحرب . انظر — بنوع خاص — رسائله الفلسفية ، ومادة (حرب) فى قاموسه الفلسفى .

(٢) الأول عالم طبيعى هولندى (١٦٣٢ — ١٧٢٣) والثانى طبيب وعالم هولندى كذلك (١٦٥٦ — ١٧٢٥) .

كانا يقولان هذا وأيديهما ترتعد ، من فرط سرورهما وهما يريان تلك الأشياء الجديدة ، وفرط خشيتهما أن يفقداها .

الفصل السادس

(ما جرى لهما فى دنيا بنى الانسان)

رأى ميكروميجاس فى وضوح ـ وكان أدق ملاحظة من صاحبه القزم ـ هذه الذرات الضئيلة ، وهى تتخاطب فيما بينها ، فأبدى ملاحظته لصاحبه الذى لم يشأ قط أن يعتقد ان ذرات كهذه تستطيع أن تتبادل الافكار . لقد كان يعرف اللغات التى يعرفها الأبرقى ، ولم يسمع قط حديثا لهذه الذرات الضئيلة ، فافترض انها لا تتكلم . **وكيف يكون لهذه الكائنات التى تتعذر رؤيتها ، أعضاء صوتية ، وماذا لديها لتقوله ؟ .. انها ، لكى تتكلم ، ينبغى أن تفكر ، أو تقارب التفكير . لكنها اذا كانت تفكر ، فلابد أن لها روحا . ونسبة الروح الى هذا النوع كانت تبدو له سخيفة .**

وقال الزحلى : « ينبغى أن نحاول اختبار هذه الهوام ، أولا ، ثم نناقش أمرها بعد ذلك » . فقال ميكروميجاس : « أحسنت القول » . وأخذ ، على التو ، مقصا فقلم أظافره ، وصنع من قلامة ظفر ابهامه بوقا عظيما على هيئة قمع واسع ، ووضع أنبوبة على أذنه ، فأحاط القمع بالسفينة وأصحابها جميعا . وكان الصوت الخافت يتخلل نسيج الظفر الذى أجيدت تسويته ، بحيث أتيح لفيلسوف السماء أن يسمع ـ فى وضوح ـ ما تغمغم به هوام الأرض . وبعد ساعات قليلة أمكنه أن يميز الكلام ، وأن يسمع ـ أخيرا ـ حديثها بالفرنسية . وهكذا فعل القزم ، وان يكن قد وجد من العناء أكثر مما لقيه زميله . **وكانت دهشة السائحين تتضاعف**

فى كل لحظة، وقد سمعا حشرات تتكلم فتحسن الكلام ، فبدا لهما عبث الطبيعة هذا غير قابل للشرح والتأويل . وأؤكد لكم أن الأبرقى . وصاحبه القزم ، كانا يتحرقان شوقا الى مخاطبة الكائنات المذكورة . لكن القزم كان يخشى أن يصم آذانها صوته الجهورى ، وصوت ميكروميجاس ، خاصة ، فلا تتمكن من سماعهما .. ومن ثم كان من الضرورى أن تضعف قوة الصوت ، فوضعا فى فوهة البوق حزمة من العيدان ، ثم أجلس الأبرقى القزم على ركبتيه ، ووضع السفينة ، وشحنتها ، على ظفره .. حتى اذا أتم احتياطاته ، قال فى صوت خفيض : ((أيتها الحشرات الخفية التى ارتضت يد الخالق أن توجدها فى قرار الكائنات المتناهية فى الصغر . انى أشكره اذ جعلنى أهلا لاكتشاف أسرار كان الكشف عنها مستحيلا . وربما كان القوم فى بلاط بلادى لاينزلون الى مهانة استقبالك، الا أننى لا أحتقر أحدا ، بل أعرض عليك حمايتى)) .

ولو عرف الدهشة قوم لكانوا أولئك الذين سمعوا هذا القول ، فانهم لم يستطيعوا أن يحدسوا من أين يأتى ، فراح القس يتلو دعواته ، والنوتية يرسلون أيمانهم ، والفلاسفة يرجعون الى قوانينهم ، لكنهم لم يعرفوا من كان يخاطبهم .. حتى استطاع القزم الزحلى ، فى كلمات قليلة ، (وقد كان صوته أرق من صوت ميكروميجاس) أن يوضح لهم نوع الكائنين اللذين يخاطبانهم ، ثم حدثهم عن الرحلة من زحل ، وعرفهم من يكون السيد ميكروميجاس .

واذ رأى مبلغ شكايتهم من ضآلة أجسامهم ، سألهم اذا كانوا ، دائما ، فى هذه الحالة التى تقارب العدم ، واذا كان عندهم ما يفعلونه فى كوكب يبدو أنه وقف على الحيتان .. وهل هم سعداء ، وهل يتكاثرون ، وهل لهم أرواح ، ومائة سؤال آخر من هذا القبيل .

وأحس واحد من الجماعة ـ وكان أكثرهم جرأة ـ بقسوة هذا الشك فى وجود روحه ، فأخذ يرقب المتكلم من خلال مناظير مثبتة على آلة القياس ، وعدل أوضاعها مرتين ، وفى الثالثة وجه اليه الحديث : « تعتقد اذن ، يا سيدى ، لأن ارتفاع قامتك ألف « تواز » من الفرع الى القدم ، أنك .. »

فصاح القزم : « ألف تواز ! يا للسماء ! كيف أتيح له أن يعرف ارتفاع قامتى ؟ .. ألف تواز ! انه لم يخطىء مقدار اصبع واحد . يا للعجب ! هذا الكائن الضئيل يقيسنى ! انه رياضى ، ويعرف ارتفاعى .. وأنا الذى لا أراه الا من خلال مجهر ، لا أستطيع له قياسا ! »

فقال له العالم : « أجل ، لقد أمكننى قياسك ، وسوف أنجح فى قياس رفيقك الهائل أيضا ! »

وحاز العرض قبولا ، فتمدد « صاحب السعادة » على الأرض ـ لأنه لو ظل واقفا لارتفع رأسه فوق السحاب ـ وغرس الفلاسفة فى مكان من جسمه عمودا كبيرا ، ثم انتهوا ـ بعد أن استعانوا بعدد من المثلثات ـ الى أن ما يشاهدونه انما هو فى الحقيقة شاب يبلغ طوله عشرين ألفا من الأقدام !

حينئذ قال ميكروميجاس : « الآن أرى أننا لا ينبغى أن نحكم على شىء بالقياس الى حجمه . **يا الهى ! يامن وهبت العقل لكائنات تبدو خليقة بالازدراء ! يامن تنظر الى المتناهى فى الصغر ، كما تنظر الى المتناهى فى الكبر ، على حد سواء .** ولو أمكن أن توجد بين مخلوقاتك أحياء أصغر من هذه ، لكانت لها أيضا عقول تسمو على مدارك الاحياء الفائقة التى رأيتها فى السماء ، والتى تغطى قدم واحدة منها ، هذه الكرة التى هبطت اليها ! »

وأجابه واحد من الفلاسفة ، قائلا أنه كان يؤمن دائما بوجود كائنات عاقلة أصغر كثيرا من الانسان . ولم يذكر له

كل ما قاله فرجيل عن النحل من أساطير ، بل عدد له ما كشفه « سوامردام » (١) وما قام بتشريحه « ريومور » (٢) .. وقال له أخيرا : ان هناك أحياء نسبتها الى النحل كنسبة النحل الى البشر ، وكنسبة الأبرقى نفسه الى تلك الاحياء الهائلة التى تكلم عنها ، بل كنسبة هاتيك الأحياء نفسها الى كائنات أخرى لا تبدو أمامها تلك الا ذرات ضئيلة .

وشيئا فشيئا ، صار الحديث ممتعا ، وتكلم ميكروميجاس قائلا :

الفصل السابع

(حديث مع بنى الانسان)

« **أيتها** الذرات العاقلة التى طاب للكائن السرمدى أن يعلن فيها وجوده وقدرته . لابد انك تتذوقين — فى عالمك — أفراحا نقية . وأن يكون حظك من المادة ضئيلا . وتلوحين ، فى جملتك ، عقلا وروحا ، **فلا بد أنك تقضين حياتك فى الحب، والفكر ، وهذه هى الحياة الحقيقية . اننى لم أر قط شيئا من السعادة الحقة ، الا أنها موجودة — هنا — من غير شك .** »

عندئذ ، هز الفلاسفة رؤوسهم ، واعترف أكثرهم صراحة بأنه لو كانت هناك قلة من أهل الارض جديرة بشىء من اعتبار ، فما بقيتهم الا جماعة من الحمقى ، والأشرار والأشقياء . « وحظنا من المادة أكثر ، فى الحقيقة ، مما نحتاجه لاقتراف الكثير من الشر — اذا كان الشر يأتى من المادة — كما أن حظنا من الروح كبير كذلك ، اذا كان الشر يأتى من الروح . هل تعلم ، مثلا ، **أن هناك — فى هذه الساعة**

(١) عالم طبيعى هولندى (١٦٣٧ — ١٦٨٠)

(٢) عالم طبيعى فرنسى (١٦٨٣ — ١٧٥٧)

التى أحدثك فيها ـ مائة ألف أحمق ، من أبناء جنسنا ذوى القبعات ، يقتلون مائة ألف آخرين من أصحاب العمائم ، أو يموتون على أيديهم (١) ، وأن هذا عين ما تفعله الأرض كلها ، من عهود لا يذكرها التاريخ ؟ ! »

وارتعد الأبرقى ، وتساءل عن موضوع هذه المعارك الوحشية الدائرة بين كائنات ضعيفة الى هذا الحد ، فقال الفيلسوف : « ان سبب النزاع كتلة من الطين (٢) فى حجم عقبك . ولم ينشب هذا النزاع لأن واحدا من الملايين المتقاتلة يدعى أن له حقا فى عود من القش ، على هذه الكتلة من الطين ، وانما نشب النزاع بغية اثبات ملكيتها لرجل معين يسمونه السلطان ، أو لرجل آخر ينادونه ـ ولا أدرى لماذا ـ بقيصر .. **فى حين أنه لا هذا ، ولا ذاك ، رأى فى حياته تلك الزاوية الصغيرة التى تدور حولها المعارك ! .. ولعل واحدا من أولئك الذين يذبح بعضهم بعضا لم تقع عينه ، يوما ، على ذلك الرجل الذى يقتتل فى سبيله ! »** .

وصاح الأبرقى ، فى احتقار شديد : « أوه ! يا للأشقياء ! هل من سبيل الى فهم هذا السعار المجنون ! ان بى رغبة جامحة فى أن أخطو ثلاث خطوات ، وأسحق بثلاث ركلات من قدمى عش النمل هذا الذى يسكنه السفاحون ، الخليقون بالازدراء . »

وجاءه الجواب : « وفر على نفسك هذا العناء .. فهم يعملون على تدمير أنفسهم بما يكفى . ولن تجد ، بعد عشرة أيام ، واحدا من كل مائة من أولئك الأشقياء ، على قيد الحياة . واعلم أنهم لو لم يشرعوا أسلحتهم لماتوا من الجوع ،

---

(١) يعنى حرب روسيا وتركيا (١٧٣٦ ـ ١٧٣٩)

(٢) شبه جزيرة القرم ، على البحر الأسود .

أو الارهاق ، أو الاسراف . ومن ناحية أخرى ، **فالعقاب خليق ، ليس بهؤلاء ، وانما بأولئك البرابرة الجالسين على مقاعدهم ، الذين يأمرون من خلف مكاتبهم ، وهم يهضمون ما أكلوا ،بذبح مليون من الرجال ، حتى اذا تم لهم ذلك ، راحوا يشكرون الله فى حفل عظيم ! »**

وأشفق السائح ، من أعماق نفسه ، على الجنس البشرى الضئيل الذى وجد فيه تلك المتناقضات العجيبة ، ووجه خطابه الى أولئك السادة :

« أما وأنتم من النخبة العاقلة ، وحيث أنكم — كما يبدو — لا تقتلون أحدا فى سبيل المال ، فأرجوكم أن تخبرونى ، فيم تشغلون أنفسكم ؟ » .

فقال الفلاسفة : « اننا نقوم بتشريح الذباب ، ونقيس الخطوط المستقيمة ، ونجمع الأرقام .. ونتفق فى نقطتين أو ثلاث نقط نفهمها ، لنختلف فى ألفين أو ثلاثة آلاف لاندرك منها شيئا ! »

وجرى فى خاطر الأبرقى ، والزحلى ، أن يختبرا تلك الذرات المفكرة فى مواضع اتفاقها ، فقال الأخير : **« كم تقدرون المسافة من هنا الى القمر ؟ »**

— ستون مرة قدر نصف قطر الأرض ، بالعدد الدائرى .

— فما كثافة الهواء عندكم ؟

وظن أنه أحرجهم بالسؤال ، الا أنهم قالوا جميعا : انه يزن تسعمائة مرة أقل مما يزن قدر مساو له من الماء الخفيف ، وتسعة عشر ألف مرة ، أقل من ذهب الدوكات . (١)

وأدهشت اجابتهم القزم الزحلى ، فأوشك على الاعتقاد بأنهم سحرة ، وقد كان يرفض — منذ ربع الساعة — أن

---

(١) عملة ذهبية كانت تساوى من ١٠ الى ١٢ فرنكا .

يصدق أن لهم روحا ! .. وأخيرا ، قال لهم ميكروميجاس : **((ما دمتم تعرفون الأشياء الخارجة عن كيانكم ، فلا بد أنكم تعرفون ـ أكثر ـ ما بداخلكم . فقولوا لى : ما هى روحكم ، وكيف تكونون أفكاركم ؟)) .**

وتكلم الفلاسفة معا ، كما فعلوا من قبل ، الا أنهم لم يتفقوا على شىء . واستعان أكبرهم سنا بأرسطو ، بينما ذكر الآخر «ديكارت» ، والثالث «ماليبرانش» والرابع «ليبنتز» ، والخامس « لوك » . وقال شيخ من تلامذة أرسطو ، فى ثقة ، وفى صوت مرتفع : « الروح حقيقة كاملة (١) ، هكذا قال أرسطو فى صفحة ٦٣٣ من طبعة اللوفر » . وردد الفقرة .. الا أن المارد قال له : « لست أجيد اليونانية » .

ـ لست أجيدها أكثر منك !

ـ لماذا تردد ، اذن ، ما قاله أرسطو باليونانية ؟

فأجاب العالم : **((لأنه ينبغى أن نذكر ما لا نفهمه باللغة التى لا نعرفها))**

وجاء دور الديكارتى ، فقال : « الروح نسمة خالصة ، تلقت فى بطن أمها جميع الأفكار الميتافيزيقية ، واضطرت ـ بعد ولادتها ـ الى دخول المدرسة ، لكى تتعلم من جديد كل ما كانت عرفته قبلا ، ولن تزيد به علما . » (٢)

فقال المارد ذو الفراسخ الثمانية ارتفاعا : **((ليست المسألة أن تكون عالما فى بطن أمك ، ثم تصبح جاهلا بعد أن تتدلى لحيتك على صدرك !.. المسألة هى : ماذا تعنى بالروح ؟)) .**

---

(١) كلمة استخدمها أرسطو ، وأخذها عنه ليبنتز .

(٢) اشارة الى نظرية « الأفكار الموروثة » التى قال بها « ديكارت » وعارضها « لوك » ، وجميع فلاسفة القرن الثامن عشر .

— ما هــذا الذى تطلب ؟ ليست عندى أية فكرة عن كنه الروح . يقولون انها ما ليس بالمادة .

— فهل تعرف ، على الأقل ، ما هى المادة ؟

— أعرف جيدا . هذه الصـخرة ، مثلا ، رمادية اللون ، وشـكلها هكذا ، وهى ذات أبعاد ثلاثة ، ولها وزن ، وتقبل الانقسام .

فقال الأبرقى : « وبعد ! هذا الشىء الذى تراه منقسما ، وثقيلا ، ورماديا ، هل تقول لى : ما هو ؟ .. أنت ترى بعض خواصه ، ولكن جوهر الشىء ، هل تعرفه ؟ »

— كلا .

— اذن فأنت لا تعرف ما هى المادة .

ثم وجه السيد ميكروميجاس حديثه الى حكيم آخر كان ممسكا به فوق ابهامه ، فسـأله عن حقيقة روحه ، والعمل الذى تعمله ، فقال الفيلسـوف الماليبرانشى : **« لا شىء على الاطلاق . فالله يعمل من أجلى كل شىء . وأرى فيه كل شىء ، وأؤدى بواسطته كل شىء ، دون أن أتدخل فى شىء . » (١)**

فأجـاب الحـكيم الأبرقى : **« اذن كان من الأفضـل ألا تكون . »** ثم قال لواحـد من أتباع « ليبنتز » وكان حاضرا الحديث :

— وأنت ، يا صديقى ، **ما روحك ؟**

— انها المؤشر الذى يدل على الوقت ، بينما يرسل جسمى دقاته . أو اذا شئت ، فهى التى تدق ، بينما جسمى يحدد المواقيت . **أو أن روحى مرآة الكون ، وجسمى اطار المرآة .** ان هذا كله شديد الوضوح . (٢)

(١) هذه نظرية (وحدة الكون) التى قال بها «ماليبرانش»، ودافع عنها « سبينوزا » .

(٢) هذه نظرية (الانسجام السابق) عند « ليبنتز » .

وكان هناك شاب من أتباع « لوك » . فلما وجه اليه السؤال ، أجاب قائلا : « لست أعرف الطريقة التى أفكر بها . لكننى أعرف أننى لم أفكر قط الا مستعينا بحواسى . انى أحترم القدرة السرمدية ، (**البقية على الصفحة المقابلة**)



على خلاف ما تصور « فولتير » ، نشر العالم المعاصر « راى برادبورى » منذ أيام — بعد رحلة «جاجارين» الى الفضاء — بحثا وضحه بهذين الرسمين من ريشة الفنان « فرد فريمان » ، وترى فى أولهما (فوق هذا الكلام) أحد مخلوقات الكواكب الاخرى ، وقد تصوره العالم والرسام أشبه بالحيوان الضخم ، **ذا جلد سميك للغاية (بحكم قوة الجاذبية وقسوة الطقس)**

وليس من شأنى أن أضع لها حدودا ، فلست أؤكد شيئا ، ويسرنى أن أؤمن بوجود أشياء ممكنة أكثر مما أظن . »

فابتسم المارد الأبرقى لحكمة المتكلم ورشاده . وكان القزم الزحلى خليقا بأن يعانقه ، رغم (البقية على الصفحة التالية)



وهذا (الى اليسار) مخلوق من كائنات كوكب آخر تكثر فيه المياه والأبخرة ، ولهذا تراه أشبه بسمكة ضخمة ، يبلغ من ضخامتها انها احتاجت الى ثلاثة عيون فى رأسها ، وعينين أخريين وعقل أيضا ، فى ذيلها ! .. أما المخلوق الذى الى اليمين فيعيش فى كوكب تقل فيه الجاذبية ويصفو الطقس . ومن ثم فهو طويل ، خفيف الحركة ، كبير الخياشيم والرئتين !

انعدام النسبة بينهما ، لو لم تكن هناك ، لسوء الحظ ، تلك الدابة ذات القلنسوة المربعة (١) ، التى قطعت حديث الدواب الفيلسوفة الأخرى . قالت الدابة انها تعرف السر كله ، وراحت تنظر الى ساكنى السماء ، من أعلى الى أسفل ، ثم أكدت لهما أن شخصيتهما ، وعوالمهما ، وشموسهما ونجومهما ، جميعا ، قد خلقت لتكون فى خدمة الانسان دون غيره .

عندئذ مال كل من السائحين على صاحبه ، وقد تملكه ذلك الضحك العنيف الذى هو من خواص الآلهة ، فيما يروى هومير . وكانت أكتافهما وأحشاؤهما ترتج من هول الضحك، فمالت السفينة ، وسقطت فى جيب سروال الزحلى ، فأخذا يبحثان عنها ، وطال بحثهما .. حتى عثرا على الجماعة ، فى آخر الأمر ، فعملا على تهدئتها ، واعادة النظام اليها .

وكان الأبرقى يحدث الجماعة فى رفق شديد ، وأن كان فى أعماقه يستشعر شيئا من الغضب على تلك الذرات التى تتناهى فى الصغر ، لكن كبرياءها لا تقف عند حد . وتعهد لها بأن يؤلف من أجلها كتابا فلسفيا مبسطا ، تجد فيه غايتها من كل شىء .

وحقق وعده ، فأعطاها كتابه قبل أن يرحل . فأخذته معها الى باريس ، وأودعته أكاديمية العلوم هناك .. الا أن السكرتير الشيخ عندما فتحه لم يجد غير صفحات بيضاء ، فغمغم قائلا : « آه ! لقد كنت أشك فى هذا كثيرا ! » .

---

(١) أى دكتور من جامعة السوربون .



نهر (الدون) الهادئ!

أروع قصة طويلة للأديب السوفييتي المعاصر

ميخائيل شولوخوف

تلخيص : كليمانس م . عبد الملك

ميخائيل شولوخوف



• **ولد** فى عام ١٩٠٥، ونشأ فى أسرة رقيقة الحال ، وعاش فترة طفولته وصباه بمسقط رأسه بين القوزاقيين الذين يعيشون على ضفاف نهر الدون .

• **تفتحت** مواهبه الفنية فى سن مبكرة ، عقب الثورة الاشتراكية عام ١٩١٧ .

• **اهتم** به النقاد فى الاتحاد السوفييتى ، وعدوه أعظم روائى معاصر فى بلادهم . وكان مرشحا لنيل جائزة نوبل للأدب التى حصل عليها زميله باسترناك منذ عامين .

• **ترجمت** أعماله الى أكثر من ٥٥ لغة ، وصدر منها أكثر من ٢٠ مليون نسخة ، واستعانت السينما بمعظمها .

• **اصطحبه** خروشوف معه فى رحلته الأخيرة لأمريكا ، حيث قوبل بحفاوة بالغة .

• **من** أبرز أعماله : «**نهر الدون الهادىء**» – التى نقدمها لك فى هـذا العدد – وتعد أقوى رواية ظهرت فى روسـيا الحديثة حتى الآن . وقد وضعها ماكسيم جوركى فى مرتبة رواية تولستوى المعروفة : «الحرب والسلام» . كذلك له : «**التربة العذراء**» ، «**مصير انسان**» . وتعد الأولى تسجيلا فنيا رائعا للثورة الاجتماعية فى الريف الروسى . أما الثانية فقد عالج فيها عاطفتى الوطنية والأبوة عنـدما تدهمهمـا الكوارث والأخطار .

• **صور** فى روايته « نهر الدون الهادىء » – التى تقرأ فى الصفحات التالية تلخيصا لها – قطاعا عريضا من حياة القوزاقيين ، (الذين يعيشون فى جنوب روسيا ، على ضفاف نهر الدون) ، فأبدع فى وصـف أخـلاقهم وعاداتهم التى تختلف اختلافا شاسعا عن عادات واخلاق الروس من ابناء الشمال ، كما صور تقاليدهم وطباعهم فى الحب ، والزواج ، والحرب .. الخ .. وبذلك عرض لـكل ما احتواه هـذا القطاع من مظاهر الحيـاة اليومية ، والمشـاكل الاخلاقية والاجتماعية .. الى ان انتقل فى القسم الاخير من القصة الى تصوير احداث الثورة الشيوعية التى اجتاحت روسـيا فى عام ١٩١٧ ، فأسهب فى وصف القتال والمعارك الحربية بقدر كبير من التفصيل الذى لايهم القارىء العربى فى شىء ، ومن ثم رأينا الاكتفاء بتلخيص القسم الاول من القصة الذى يصور شعب القوزاق تصويرا رائعا كما سترى . (وقـد عمـد الفيلم الروسى الذى اقتبس عن القصـة الى نفس الاجراء ، فاستبعد القسم الحربى الاخير ، واكتفى بالقسم الاول الذى نلخصه لك – عن الكتاب الاصلى – فيما يلى) :

عاد المحارب القوزاقى «بروكوفى ميليخوف» ـ أثناء الحرب الاخيرة التى نشبت ضد تركيا ـ الى قريته (تاتارسك) التى نطل على نهر الدون.. وكانت بصحبته سيدة تركية من أسرى الحرب ، اتخذها زوجة ، وجاء بها الى القرية !.. وكانت ضئيلة الجسم ، أخفت وجهها خلف خمار ، وتدثرت بشال حريرى ذى رائحة نفاذة ، كان يغطى جسدها من قمة رأسها الى أخمص قدميها ، وقد زينته رسوم بديعة اللون ؛ أثارت غيرة القرويات وحسدهن !

غير أن زواج « بروكوفى » المفاجىء ، أثار ضده حملة من السخط والاستنكار ، فطرده والده ، وتجمع الأهالى حوله ثائرين ساخطين ، وهم يستنكرون تصرفه على مسمع منه . أما هو فقد تجهم وعبس ، ولم يفلح العرق الذى تصبب على جبينه فى التخفيف عنه ..

ومنذ وقع ذلك الحادث ، عاش « بروكوفى » مع زوجته فى مسكن جديد شيده على ضفة الدون ، واعتزل الناس ؛ لكن الألسنة ظلت تلوك قصة زواجهما ، وانتشرت الاشاعات تحكى عن جمال الزوجة التركية تارة ، وعن قبح خلقتها تارة أخرى !.. بل ان نساء القرية أخذن يتصيدن أخبارها ، ويذعنها فى كل مكان ، حتى تملك الحقد عليها قلوب النساء فى القرية ، اذ ما شأنهن بهذه الغريبة التركية ، وفى القرية حسان من بناتها لا يجدن أزواجا ؟!

بل لقد أشاعت النسوة أيضا أنها ساحرة ، وأكدت احداهن انها شاهدتها عند بزوغ الفجر حافية القدمين ، تحلب بقرة حميها « ستاكوف » ، فما لبثت البقرة أن ضمر ضرعها ، ونفقت !.. وصادف أن اجتاح الموت عددا من المواشى فى

ذلك العام ، مما جعل رجال القرية يجمعون على التخلص من تلك المرأة ! .. فهاجموا منزل « بروكوفى » بالفعل ، وانقضوا على زوجته ، وجروها من شعرها حتى كادوا أن يقضوا عليها .. ولم يخلصها من أيديهم سوى نجدة زوجها الذى شهر سيفه ، وأعمله فيهم .. وأثناء المعركة ، سقطت زوجته على الارض والدم يسيل من شفتيها . وفى تلك الليلة لفظت أنفاسها ، بعد أن وضعت طفلا لم تكتمل مدة حمله فى أحشائها ..

وولد طفل « ماركوفى » ، يتيم الام .. واطلقوا عليه اسم « بنتاليمون » تكريما لجده . وتولت جدته تربيته ، بعد أن حكم على ماركوفى بالاشغال الشاقة لاثنى عشر عاما ، بسبب المعركة التى دارت فى بيته ليلة وفاة زوجته ..

.. ومضت سنوات العقوبة ، وخرج ماركوفى من سجنه ليجد ولده «بنتاليمون» طفلا يافعا ، أسمر البشرة ، جموحا لا يسهل قياده .. وقد اختلط فى عروقه الدم التركى بالدم القوزاقى ، فأكسباه جمال الطلعة والشراسة ، وهى صفات تركية ، الى جانب أنفه الافطس الذى حفظ له صفة القوزاقى ..

ولما توفى والده ، انفرد «بنتاليمون» بالمزرعة ، وضم اليها ما جاورها من الأراضى ، كما أدخل عليها تحسينات كثيرة .. ثم تزوج .. وبمرور الايام امتلأ جسمه ، حتى أصبح بدينا ، حاد المزاج ، يثور لأتفه الأسباب .. مما أثر فى زوجته « الينشنا » ، وجعلها تبدو أكبر من سنها ، اذ ذوى جمالها ، وتسللت الشيخوخة الى وجهها .

وهكذا أصبحت أسرة «بنتاليمون ميليخوف» ، فى النهاية ، مكونة من أربعة أفراد ، عداه وزوجته ، وهم : **« بيوترا »** ابنه الأكبر ، وزوجته **«داريا»** ، و **«جريجور»** الابن الأصغر

الذى عرف باسم « جريشكا » ، وأخيرا ابنته الصغرى « **دونيا** » التى كانت معبودته ..

***

استيقظ « بنتاليمون » فى الفجر . وأخذ يتطلع الى السماء فاذا النجوم لاتزال تومض على صفحتها ، بينما لفت نهر (الدون) سحابة كثيفة اتخذت طريقها نحو سفح التل . وما أن فتح باب الحظيرة ، حتى لمح « داريا » زوجة ابنه الأكبر متجهة بقوامها الممشوق الى الابقار كى تحلبها ، ولم يكن يستر جسدها البض غير غلالة رقيقة كشفت عن مفاتنها ، وجعلت « بنتاليمون » يتسمر فى مكانه وهو يراها تخطر على العشب الأخضر الذى أخذ يتهدل تحت قدميها العاريتين المبللتين بالندى ..

لكنه ما لبث أن انصرف عما رآه . واتجه صوب سرير ابنه الاصغر «جريجور» فأيقظه ، كى يصاحبه فى الصيد .. وما أن انفرد به فى الطريق ، حتى بادره قائلا :

ـ لقد لاحظت أنك و « أكسينيا أستاكوفا » ..

وعندئذ تورد وجه « جريجور » ، واحمرت وجنتاه ، لكن الأب استطرد قائلا بحدة : **« احذر يا بنى .. فان « ستيبان » جارنا ، ولن أسمح لك بمغازلة زوجته ، وهاأنذا أحذرك ، فان لم ترتدع ، ففى هذه العصا خير رادع لك .. ومن الآن فصاعدا لن تخط قدماك ليلا خارج نطاق فناء الدار .. أسمعت ؟ ! »**

فأجاب الفتى ، وقد غاض ماء وجهه :

« انها أكاذيب يا أبى ! »

ـ كفى

ـ ماذا لو زعم الناس ..

ـ صه ! .. كفى يا « ابن الكلبة » !

ثم ساد الصمت ، فألجم لسانيهما .. ومضت فترة اصطاد فيها « جريجور » سمكة كبيرة الحجم ، فقال أبوه : « امض بها للتاجر « موكوف » واشتر بثمنها تبغا » . ثم مضى فى طريقه ، وخلفه جريجور ، بينما وجهه يتميز غيظا ، وأسنانه تعض على شفتيه ، وذهنه يغلى بفكرة واحدة أخذ يرددها لنفسه : « شئت أم لم تشأ ، سأوافيها هذا المساء ، ولو أدى الأمر الى كسر ساقى ! »

ومضى الى بيت « موكوف » ليبيع له السمكة .. وفى الطريق صادف صديقه **« ميتكا »** ، فاصطحبه معه .. وما أن بلغا بيت التاجر ، حتى لمحا فتاة تجلس فى شرفة الدار فوق مقعد متحرك ، وهى تلتقط حبات « الفراولة » من طبق أمامها . وسألتهما عن بغيتهما ، فتلعثم « جريجور » ، لكن « ميتكا » أسرع الى نجدته ، فسألها عما اذا كانت تود شراء سمك منهما ؟ .. فنهضت الفتاة الى الداخل ، وقد انتعلت خفين مطرزين ، وعلى جسمها غلالة رقيقة استطاع «ميتكا» أن يستشف من ورائها الخط الفاصل بين ساقيها ، بينما بهره جمالها وبياض ساقيها الناصع ، لدرجة أنه لكز السمكة ـ بدلا من أن يلكز جريجور ! ـ وهو يلفت نظره قائلا : « يا له من ثوب شفاف كالزجاج ! »

واستطاع «ميتكا» أن ينفرد بالفتاة ـ بينما كان «جريجور» منهمكا مع الطاهى فى مناقشة ثمن السمكة ! ـ فأخذ يجاذبها أطراف الحديث .. وحين لاحظ شغفها بصيد السمك ، وعدها برحلة ذات يوم ، لكنها طلبت اليه أن يوقظها فى ساعة مبكرة .. وأعقب ذلك حديث قصير بينهما عن الحب والزواج ، أنهاه والدها الذى اقترب منهما بجسمه البدين ، وهو ينظر الى ميتكا شزرا . لكن ابنته كانت أسرع منه اذ قالت :

– لقد أتانا بشىء من السمك يا والدى ..

وعندئذ أقبل « جريجور » ، فأنقذ الموقف .

***

عاد جريجور فى تلك الليلة قرب الفجر ، أثناء صياح الديكة ، فتسلل الى « البيت » حتى لا يحس به أحد . لكنه لم يتمكن من النوم ، اذ أزعجه صياح ابن أخيه ، ومحاولة « داريا » اسكاته بالغناء . ومن جهة أخرى ضايقته حركة أخيه الاكبر « بيوترا » الذى كان قد اعتزم السفر فى الصباح التالى ، ليؤدى الخدمة العسكرية . وكان معنى هذا انه سينفرد بأعمال المزرعة الى جانب والده .

ولكن ما أن لاح الفجر حتى دعته أمه ، وطلبت اليه أن يوقظ جاره « ستيبان » ، الذى كان يعتزم الرحيل أيضا برفقة بيوترا وثلاثين شابا من القرية . ونظر جريجور من النافذة ، ففوجىء بستيبان راقدا على « بطانية » ، وقد أسندت زوجته « أكسينيا » رأسها على صدره . ورغم الضوء الشحيح فقد استطاع جريجور أن يلمح ساقيها الناصعى البياض .. فراح يحملق فيها ، وفى حلقه جفاف ، وفى رأسه طنين يكاد يفجره ! .. ثم نادى على « ستيبان » ، وهو أشبه بمذهول ، فاستيقظت « أكسينيا » مرتبكة . وفيما هى تحاول أن تستر ذراعيها العاريتين ، اذا بقدميها تتعثران ، وقد سيطرت عليها حالة ارتباك مفاجئة ، مما جعل « جريجور » يسرع بالاختفاء .. حتى لا يسبب لها ضيقا وازعاجا ..

وفيما كان « جريجور » متجها صوب النهر بجواد أخيه ، اذا به يرى « أكسينيا » تهبط الى سفح التل ، بقدها المشوق وشعرها المتهدل على كتفيها ، والهواء يعبث به

.. وكان فى يدها « دلو » حرصت على الاحتفاظ بما فيه من ماء ، أما يدها الاخرى فكانت مشغولة بثوبها ، اذ أخذت تدس طياته بين ركبتيها اتقاء للريح .. لكن « جريجور » ما لبث أن استدار ناحيتها وهو مندفع بشدة ، وقد ثارت من خلفه سحابة من الغبار .. وما أن أصبح على قيد خطوة منها حتى بادرته قائلة بلهجة حادة :

ـ ماذا دهاك أيها الشيطان الأرعن ؟ ! .. كدت أن تقتلنى .. سأبلغ أباك برعونتك هذه !

ـ لا تحنقى على أيتها الجارة العزيزة .. فقد أكون ذا فائدة لك بعد رحيل زوجك..بل قد تطلبين مساعدتى وقت الحصاد ، فسوف تكونين شبه أرملة .

ثم ابتسم مستطردا : « لعلك ستشعرين بفراغ بعد سفره ! »

ـ ولم لا ؟ .. انتظر حتى تتزوج ، وعندئذ ستعرف معنى الحنين والاشتياق .

ـ ومع ذلك فالبعض منكن يسعدن بفراق أزواجهن .. بل أننى أؤكد لك أن « داريا » سيزداد وزنها بعد رحيل شقيقى « بيوترا » !

ـ ان الزوج يمتص دماء زوجته .. ألا تعتزم الزواج قريبا ؟

ـ لست أدرى ، فهذا يتوقف على رغبة والدى .. ولا أظن أن شيئا من هذا سيتم قبل أن أؤدى الخدمة العسكرية .

ـ لست أنصحك بالزواج وأنت ، بعد ، حديث السن .. فما الزواج الا ألم وشقاء .

ـ ليست لدى رغبة فى الزواج ، فهناك من تحبنى وتهوانى ، على ما أنا عليه الآن ، سيما وأنك ستودعين « ستيبان » اليوم !

— اياك أن تتلاعب معى ، والا أبلغت ستيبان .. صوب سهامك نحو غيرى .. ودعني وشاني !

— بل سأزداد تعلقا بك ، وتشوقا للتطلع اليك .

وعندئذ انفرجت شفتاها عن ابتسامة ، وحاولت استئناف السير ، غير أن جريجور قطع عليها الطريق .. ولم يثنه عن سلوكه هذا توبيخها له ، ومناشدتها اياه بالكف عن ملاحقتها . اذ ظل يتبعها الى أن بلغت دارها .. بل انه وقف يشاهد توديعها لستيبان ، واحتضانه اياها .. ولم يكف عن مطاردتها بعينيه ، الى أن غاب ستيبان عن الانظار .

ولما كان ستيبان قد عهد لبنتاليمون بادارة شئون مزرعته ، ورعاية زوجته ، فقد اشرك الاخير الزوجة « أكسينيا » فى تحمل التبعة ، واعتبرها فردا من أفراد أسرته .. وهكذا هيأت الظروف لجريجور فرصة ذهبية لمكاشفتها بحبه لها .

وذات يوم ، كانت « أكسينيا » تشارك الاسرة فى رحلة للصيد . لكن الجو ما لبث أن ساء ، اذ هبت زوبعة شديدة ، عصفت الريح على أثرها ، وأبرق الجو وأرعد ، ثم هطلت الامطار بكميات وفيرة .. ولمح « جريجور » أكسينيا وقد ارتعدت فرائصها ، وتجمدت عضلاتها من شدة البرد ، فأثار هذا نخوته وحميته ، فما لبث أن قادها الى كومة من « التبن » ونصحها بدفن رأسها فيها حتى الكتفين .. ثم استلقى هو بجوارها ، والبرد يزلزل جسمه ..

وأحس بالدفء شيئا فشيئا .. وفجأة تحركت الرغبة فى مشاعره ، فأمسك برأسها ، وأداره نحوه . لكنها تملصت ، ونهضت ثائرة ولسانها يرغى ويزبد .. وبوغت بهجومها ، فبادرها قائلا :

— الزمى الصمت .. فان والدى على قيد خطوات منا ، وهو واقف لي بالمرصاد !

– دعنى ، والا صرخت .. « أيها الأب بنتاليمون » !

وعندئذ سمعا صوت بنتاليمون يقترب منهما قائلا : « فيم الصياح؟ هل ضللتما الطريق؟ » .. فهب جريجور من مكانه ، ووقفت « أكسينيا » تسوى خصلات شعرها المبعثرة ، وهى تقول :

– لا شىء يا أبى .. اننى أكاد أموت من شدة البرد .

– اذن هاك كومة من التبن يافتاتى ، أسرعى الى الاستدفاء بها ..

ونظرت اليه ، وابتسمت وهى تنحنى على « زكببة » السمك ، التى تركتها بجوارها ..

***

كانت « أكسينيا » قد تعرضت لحادث بشع غريب ، حين كانت فى الخامسة عشرة من عمرها ، أى قبل أن تتزوج بعام واحد ..

فقد حدث ذات يوم أن باغتها أبوها – وكان فى الخمسين من عمره – فى الحقل الذى كان يبعد مسافة خمسة أميال عن القرية .. وهددها بالقتل اذا لم ترضخ لطلبه .. أو باحت لأحد بكلمة واحدة !

لقد اغتصبها والدها قهرا .. وما أن أفلتت منه ، حتى أطلقت ساقيها للريح متجهة الى البيت ، وهى تلملم ثوبها الممزق .. **وحين بلغت البيت ، ارتمت تحت قدمى أمها ، وهى تبكى بكاء مرا ، وأفلت لسانها ، فباحت لأمها بكل ما حدث !**

واصطحبتها الام مع ولدها الاكبر – على ظهور الخيل – الى الحقل ، حيث كان الوالد المجرم مستلقيا على ظهره ، ورائحة الخمر تفوح من فمه .. ولم تتمالك الأم نفسها ،

فانهالت مع ابنها عليه ، وأوسعاه ضربا بآلات حادة ، على مشهد من الفتاة التى كانت ترتعد خوفا .. ثم حملاه الى البيت ، حيث توفى بعد قليل .. وأشاعا بين الجيران انه سقط من عربة النقل فجرح ، ومات متأثرا بجراحه .

وفى اليوم التالى لزواج « أكسينيا » شرعت حماتها فى مضايقتها ، فأرهقتها بحلب الابقار ، واعداد الطعام ، وترتيب شئون البيت والعمل ، بدعوى أنها أصبحت عجوزا واهنة !

كما أن «ستيبان» ـ زوجها ـ اتجه اليها فى اليوم ذاته . فقادها الى جرن الغلال حيث أوسعها ضربا .. بلا سبب .. ثم أهملها وانصرف عنها .. وأصبح يقضى كل مساء ـ بعد أن يحبسها وحدها ـ مع النسوة الأخريات !

ومضت علاقتها به على هذا المنوال ، الى أن أنجبت طفلها الأول ، الذى ماتت حماتها عقب ولادته .. وكان هذا ايذانا بالصفاء والسلام ، اذ هدأ « ستيبان » قليلا ، لكنه مع هذا لم يكن يدللها ، كما لم يكن يقضى ليالى الاسبوع كلها فى البيت .. أما هى فكانت تجد مشقة بالغة فى التوفيق بين شئون بيتها وشئون العمل فى المزرعة ورعاية الماشية .. وكانت النتيجة أن مات الطفل ، قبل أن ينقضى عام على ولادته .. لكن جذوة الحب كانت قد انطفأت فى قلبها ، وصارت تقوم على خدمة زوجها بفتور وضيق ..

لذلك كانت الطريق ميسورة أمام « جريجور » .. ورغم نفورها منه ، وصدها له ، الا انها أحست ـ بعد فترة ـ بنفسها مدفوعة اليه ، دون أن تدرى .. فصارت تتأنق فى ملبسها أيام الآحاد ، وتكثر من ترددها على الحقل . قاصدة أن تجذب انتباهه اليها !

لكن رحيل زوجها الى المعسكر كان بمثابة المسكن الذى خدر احساسها تجاه « جريجور » .. فقد عزمت على الاقلال

من مقابلاته لها ، ما استطاعت الى ذلك سبيلا .. بل أن عزمها قد اشتد بعد حادثة الصيد بصفة خاصة !

***

وصادف أن التقت به بعد أيام ، فى الطريق ، وكان ممتطيا صهوة جواده ، فخفضت بصرها متحاشية اياه ، لكنه لكز جواده فقفز قفزة كادت تودى بحياتها ، لولا أنه تدارك الامر فى اللحظة الأخيرة فشد العنان ، مما جعل الجواد يقف فى مكانه ، رافعا رجليه الأماميتين .. واحتدت « أكسينيا » ، فأخذت تعنفه بشدة ، بينما هو رابط الجأش ، يقابل اساءتها بابتسامة وحنان .. وقال لها :

ـ لم لا تمضين معى بقية النهار ؟

ـ لأنك لا تستحق ذلك !

وحملق فى عينيها ، فوجد الصمت يخيم عليهما ، لكن دمعة ترقرقت فيهما ، ثم اضطربت شفتاها ، وهمست قائلة وهى **تكاد** تختنق : « دعنى وشأنى يا جريجور .. فلست غاضبة .. اننى .. » وأمسكت عن الكلام ، ثم مضت فى طريقها ..

وما أن حل يوم الحصاد ، حتى خرجت القرية بأكملها للعمل ، وغصت المراعى بالنساء اللاتى شابهن الزهور بملابسهن المطرزة المتعددة الألوان كقوس قزح .. **أما جريجور ، الذى ملكت « أكسينيا » كل مشاعره وعواطفه ، فلم يكن يرى شيئا سواها ! .. وصار يسهو عن عمله لفرط انشغاله بها . وكثيرا ما كان يكيل لها القبلات فى خياله ، ويحدثها ـ دون أن تتحرك شفتاه ـ بأعذب الكلمات ، وهو لا يدرى كيف جادت بها قريحته !** .. كل ذلك وهى ترمقه بنظرات يتجلى فيها الحقد والكراهية ..

ولم يكن ما يدور بينهما بخاف عن عينى الأب ، الذى كلف

جريجور - رغم تمنعه - بحراسة الثيران ليلا .. ووجد المحب المتيم الفرصة سانحة أمامه لكى يواصل مناوراته ومطارداته للمرأة التى صدته ، وأغلقت دونه أبواب قلبها ! .. وكان الزمن كفيلا بعلاج سوء التفاهم الذى نشأ من جانبها وحدها .. ويبدو أن الحب كالزهور ، كلما أورقت على مهل ، زاد جمالها وانتفع الناس بها .. فما أن انقضى موسم الحصاد ، حتى كانت « أكسينيا » قد تحولت الى امرأة اخرى ، وانزاح عن قلبها سوء التفاهم ، فأصبحت تلتقى بجريجور علنا ! ورغم أن نساء القرية كن يلكن سيرتها ، ويشرن اليها كلما التقت عيونهن بها ، الا أنها ظلت شامخة الرأس ، سعيدة بحبها .

بل انها ردت ((بنتاليمون)) بشجاعة ، وجرأة ، عندما هددها بابلاغ زوجها . فقد أكدت له ، والسعادة تغمرها ، أن جريجور قد اصبح ملكا لها ، ولن تستطيع قوة على الارض أن تسلبها اياه !

وغادر الاب بيتها ، مطأطىء الرأس ، الى داره ، وهو يسرع الخطى - رغم عرجه - وما أن دلف الى داخل الدار حتى شاهد جريجور جالسا أمامه ، فلم يتمالك نفسه ، وانهال على ظهره بعصاه ، وهو يهدده ويتوعده ، ان لم يذعن لتوجيهاته ، واعدا بأن يزوجه من أغنى فتاة فى القرية ! .. لكن الفتى المتيم لم يخضع للتهديد ، بعد أن ازدادت جذوة النار فى قلبه اشتعالا ، وظل يتسلل الى « أكسينيا » كل ليلة فيقضى الليل بجوارها .. ثم يعود عند مطلع الفجر .

بل ان اقتراب عودة « ستيبان » ذاته لم يردعهما ، ولم يردهما عن غيهما ومجونهما الفاضح ! .. وذات أصيل ، كان جريجور قد توسد ذراع أكسينيا ، بينما كانت هى تداعب خصلات شعره ، وفجأة قالت له وهى تحس بمرارة

الفراق الوشيكة الحلول :

– لعلك ستهجرنى عند عودة « ستيبان » .. ما أشد خوفى منه ! .. لابد أنه سيسفك دمى .. أتخيفك عودته ؟

وأجاب وهو يتثاءب لشدة حاجته الى النوم الذى افتقده بسببها :

– ليست عودة ستيبان بالأمر المهم ، بل أن المهم هو اعتزام والدى تزويجى من « ناتاليا كورشينوفا » !

– ناتاليا ؟ ! انها فتاة ساحرة الجمال .. لقد رأيتها يوم الأحد فى الكنيسة ، وكانت على قدر كبير من الأناقة !

– لا تحدثينى عن جمالها وسحرها ، فلست أتوق الى الزواج من سواك !

وعندئذ أمسكت بيديه الخشنتين ، وأخذت تضغط بهما على صدرها المضطرب ، ويديها الباردتين ، ووجنتيها الشاحبتين، ثم صرخت قائلة : **« ألا تبا لك يا جريجور ! .. لم اعترضت طريقى ؟ لست أدرى ماذا أفعل .. اننى ضائعة .. ان « ستيبان » على وشك أن يعود ، فكيف أواجهه ؟ ومن ترى سيقف فى صفى ، ويشد أزرى ؟ »**

وأخلد جريجور الى الصمت ، فأخذت تتنقل بعينيها الحزينتين فى وجهه ، واذا بشعور قوى يجتاحها ، فيزيل السدود من أمامها .. وعندئذ وجدت نفسها تقبله بجنون فى وجهه وعنقه وذراعيه ، بينما جسمه كله يهتز ويرتجف . ثم همست قائلة : «جريجور . . جريشكا . . يا أحب مخلوق الى . . لنرحل من هنا ، ولو الى المناجم .. حيث أستطيع أن أحبك وان أقوم على خدمتك .. أجبنى ولو بكلمة واحدة ! »

ولم يجب جريجور ، بل لبث برهة يفكر ، ثم قال ، وقد فتح عينيه الوقادتين اللتين يتميز بهما الأسيويون ، فبدت فيهما مسحة من السخرية : « يا لك من حمقاء يا أكسينيا !

.. كيف أغادر القرية ، وموعدى مع الخدمة العسكرية فى العام القادم ؟ .. وعلاوة على ذلك فان حياة المناجم شاقة مرهقة ، لا أحتملها ! » ..

كانت « أكسينيا » تحس بالعذاب يؤجج صدرها ، وانتابها القلق ، من طول تفكيرها فى موقفها .. وكانت قد انقطعت فترة عن رؤية عشيقها الفتى ، مما سبب لها ألما وضيقا ، جعلاها تهرع ذات يوم الى منزل الساحرة العجوز « دروزديخا » . حيث ألقت هناك بأحمالها الثقال ، فراحت تسرد عليها أشجانها ، ضارعة : **« أغيثينى أيتها العجوز .. اننى أكاد أحترق شوقا اليه .. لقد أصاب الهزال جسمى ، وغارت عيناى .. انهم سيزوجونه .. أسرعى الى نجدتى ، ولك منى كل ما تطلبين ! »**

.. واصطحبتها الساحرة فى فجر اليوم التالى الى نهر (الدون) حيث أمرتها بأن تنزل الى مياهه ، وعندئذ أخذت تنثر عليها من ماء النهر ، وهى تتمتم ببضع كلمات ، ثم رشت قليلا من الملح عند قدميها وسلمتها ما تبقى من الملح .. وما أن عادت « أكسينيا » الى دارها حتى ترامى الى سمعها صوت قرقعة عجلات ، وصهيل خيل فى الشارع .. فنظرت من النافذة ، واذا بها ترى « ستيبان » قادما ، وهو ممسك بسيفه . وعندئذ شحب وجهها ، وقبعت فى ركن من الدار ، فى انتظار مصيرها .

كان « ستيبان » قد علم بكل شىء منذ أيام ، مما أرهق أعصابه ، حتى امتنع عن الكلام ، وأصبح يثور لأتفه الأسباب ، ويتشاجر بلا سبب .. وخاصة مع « بيوترا » ــ شقيق جريجور ــ الذى عاد معه .. **وعندما كاشف زوجته بما لديه من أنباء ، لم تتنكر ، بل طلبت منه أن ينتقم منها ، دون أن تحاول اخفاء عواطفها تجاه عشيقها !..** وهاج « ستيبان » ،

وركلها بقدمه ، فأطاح بها الى الباب ، ولما حاولت أن تفر لحق بها وأمسك بشعر رأسها ، ثم طرحها على الارض ، وأوسعها ضربا وركلا حتى كاد أن يقضي عليها !

وانزعج جريجور حين رأى وسمع ما ألم بحبيبته ، وهو يطل عليهما من نافذة المطبخ .. فانطلق لنجدتها ، بصحبة أخيه «بيوترا» .. واضطر الشقيقان الى الالتحام بستيبان .. ولولا تدخل بعض الجيران الذين هبوا لفض الشجار ، لسالت الدماء ، ولطخت المكان .. ولكان للحادث ضحايا كثيرون !

***

أمر بنتاليمون ولده جريجور باعداد العربة ، لكى تمضى بهم الى منزل « مايرون كورشينوف » ، كى يطلب منه يد ابنته « ناتاليا » لجريجور .

واستقل الأب العربة ومعه زوجته « اليننشنا » ، والعمة الأرملة « فازيليزا » . بالاضافة الى جريجور وشقيقته « دونيا » ، التى جلست فى العربة وقد أغرقت فى الضحك ..

وكان بنتاليمون قد حذر العمة « فازيليزا » من الضحك ما استطاعت الى ذلك سبيلا ، حتى لا تظهر أسنانها المعوجة المهشمة ، وحتى لا يفشل مشروع الزواج ! .. أما جريجور فقد اعتلى مكان القيادة ، وهو يرتدى قميصا من الساتان ، وأخذ يلهب ظهور الخيل التى انطلقت بهم فى سرعة شديدة ، مما أثار دهشة القوزاقيين وهم يفسحون لها الطريق .. حتى الكلاب أخذت تعدو هنا وهناك بين أرجل الخيل .. !

ولما بلغوا بيت « مايرون كورشينوف » — وهو فسيح تبدو عليه مظاهر العظمة والفخامة — بقى جريجور فى حراسة الخيل ، بينما سار بنتاليمون ، ومن خلفه السيدتان ترفلان

فى ثياب فضفاضة تحتك بالأرض فيسمع حفيفها من بعيد . .. وهب كورشينوف وزوجته للقائهم .. وأسرعت الزوجة فقدمت لزائريها ثلاثة مقاعد ، بعد أن نفضت عنها الغبار الذى لم يكن له أثر عليها !

وبدأت المناقشة المعهودة : فبنتاليمون يطلب يد ابنتهما «ناتاليا» لولده ، وهما يتمنعان بحجة صغر سنها ، وحاجتهما اليها فى البيت والمزرعة .

وأحست العمة « فازيليزا » بالفشل يلوح من بعيد . فأسرعت بانقاذ الموقف ، وهى تتململ فى مقعدها بسبب وخز أعواد المكنسة التى كانت قد سرقتها عند الدخول ، وأخفتها بين طيات ثيابها ، اعتقادا منها بأن الخاطبة التى تسرق مكنسة العروس لا يرفض لها طلب ، كما تقول التقاليد .. لقد حاولت أن تنقذ الموقف بأن راحت تكيل الثناء والمديح للعروس وأسرتها وسلالتها حتى الجيل الخامس ، ثم تحولت الى العريس وأهله ؛ فأخذت تمدح جدهم وصبرهم على المشاق ، مما جعل أم العروس تحس بالاحراج ، اذ ترقرقت عيناها بدموع هى مزيج من التصنع والجد .. وأخيرا قبل الأب أن يرى جريجور عروسه ..

وأقبلت العروس والخجل يكسو ملامحها ، فوقفت أمام عتبة الحجرة وهى تفرك «مرولتها» بأصابع يديها . . وأحست بها الأم فشجعتها على الدخول. وتطلع اليها جريجور مبهورا ، وهو يقلب عينيه ، ويتفحصها من قمة رأسها الى أخمص قدميها .. وأطال النظر الى عينيها الرماديتين المسبلتين ، والى الخال الذى زين وجنتها المتوردة ، ويديها الكبيرتين اللتين بدت عليهما آثار العمل الشاق .. ثم انتقل ببصره الى نهديها البارزين ، وهما يعلوان ويهبطان ، بينما لاحت قمتاها من تحت قميصها الاخضر الشفاف . **. وأخيرا استقر**

ببصره عند قدميها اللتين شعت منهما ظلال نضارة وجمال . وعندئذ ارتاحت نفسه الى الصفقة ، شأنه فى ذلك شأن المرء الذى يعاين فرسا فى السوق ثم يعلن أنها تصلح للشراء !

وما أن انتهت مهمة الفتاة، حتى أمرها والدها بالانصراف، ونهضت خارجة وهى تلقى نظرة على جريجور ، بينما ابتسامتها وفضولها يفضحانها ، وكأنها تريد أن تقول له : « ها قد شاهدتنى ، فما رأيك ؟ »

وأخيرا تم الاتفاق على منح الطرفين مهلة للاستفسار والتفكير ، يتم بعدها القبول أو الرفض .

***

لم يكتشف « ستيبان » أنه يحب زوجته حبا حقيقيا ــ ممزوجا بالكراهية والحقد ــ الا بعد أن أحس بخيانتها ! .. ورغم تعذيبه المستمر لها ، الا أنها ظلت محتفظة ببريق عينيها الذى تخلف عن الشعلة التى أوقدها جريجور فى قلبها .. بل انها ظلت حريصة على كتمان تفاصيل علاقتها بجريجور، بالرغم من تهديد زوجها اياها بالقتل ، ان لم تذعن لأوامره

وتسرد عليه تفاصيل هذه العلاقة .. **وكم طلبت اليه أن يقتلها حتى تستريح من حياتها البغيضة ، لكنه كان يثور عليها ، ويعتصر صدرها الناعم البض بيديه الخشنتين ، وهو يكاد يزهق روحها.** وكلما نظر الى عينيها وجد فيهما لامبالاة غريبة ، فلا دموع .. ولا تأوهات !

ولم تعد «أكسينيا» ترى جريجور الا نادرا . لكنها التقت به مصادفة ذات مرة عند النهر. وأحست بالدلو يكاد يسقط من يديها الباردتين كالثلج .عندما وقعت عيناها عليه وهو يقود الثيران أمامه ، وفى يده سوط يلوح به .

وتواعدا من جديد على اللقاء .. على أن يتم فى غيبة

« ستيبان » ، أثناء حصاد القمح !

وحل موعد اللقاء .. فأسرعت « أكسينيا » ، رغم خوفها من مباغتة زوجها ، لمقابلة العشيق الذى غاب عنها طويلا .. ومضت فترة ، وهى جالسة فى انتظاره ، والقلق يأكل قلبها : ترى أيوافيها ، أم تراه قد نسيها ؟ .. وفيما هى تنهض عائدة بعد أن يئست من قدومه، اذا بها تسمع صوته يناديها .. لقد وفى بوعده !

وجلسا متجاورين ، وتصافحت عيونهما ، ودام اللقاء طويلا ، لكنها ما لبثت أن انفجرت باكية ، وهى تفك ياقة سترتها لتريه آثار التعذيب فى صدرها ، قائلة : « **انه يعتدى على بالضرب المبرح كل مساء ، انه يمتص دمى .. وها أنت تبدو فى صحة وهناء .. بل انك تبدو ككلب لوث شرفى ثم تخلى عنى واختفى !** »

وأخذت تزرر سترتها بيدين مرتعشتين ، وهى تنظر اليه فى هلع ، خشية ان تكون قد كدرته .. لكنه أجابها بقوله :

ـ ان الكلب لا يضايق الكلبة بغير رغبة منها .

وعندئذ أخفت وجهها بيديها ، بعد أن أحست بوقع كلماته ، التى اخترقت قلبها وفجرت الدموع فى عينيها . أما جريجور فقد نظر اليها بجبين مقطب ، ثم قال : « ما هذا يا أكسينيا ؟ .. أترينني سببت لك كدرا ؟ »

فقاطعته ، وقد رفعت يديها عن وجهها : « لقد جئت لأسألك نصحا ، لا لأفرض نفسى عليك .. فلا تخف .. يكفى ما اعانى من مرارة . »

ـ أتحسبين ما بيننا من حب قد تلاشى ؟

فيبدو عليها الهلع وهى تهتف : «كيف تلاشى ؟.. كيف ؟»

ـ لقد حدث ما حدث يا أكسينيا . وينبغى أن نستأنف الحياة دون أن يلقى أحدنا باللوم على الآخر .. وقد فكرت فى

ضرورة وضع حد لـ ..

وعندئذ أمسك عن الكلام .. بينما تقلصت أصابع أكسينيا ، وتوترت أعصابها فى انتظار بقية العبارة ، وقد اجتاحها خوف مدمر ، كما جف حلقها ، ونفد صبرها ، ظنا منها أنه سيقول : « وضع حد لستيبان » ، لكنه قال : « وضع حد لهذه القصة .. ما رأيك ؟ »

وعندئذ نهضت ، محطمة القلب ، وسارت نحو البوابة ، وهى تشق طريقها بين زهور عباد الشمس التى بدت فى لون شحوب وجهها .

ونادى جريجور عليها بصوت مختنق .. لكنه سمع صرير البوابة ، وتطلع اليها وهى تبتعد ، فلم ير فيها « أكسينيا » التى يعهدها وانما رأى امرأة غريبة عنه ، لا عهد له بها .. !

***

فوجئت أسرة « مايرون كورشينوف » بابنتهما تعلن موافقتها على الزواج من جريجور ، بل تعلن انها لا ترضى بسواه بديلا ! .. ولم يكن أبوها ليوافقها على ذلك ، فلئن كان قد أعجب بمهارة جريجور وصبره على مشاق الزراعة ، الا أنه كان يعتقد أنه من الانحطاط أن يرتبط بنسب مع تركى فقير تلوك الألسن سيرته . لذلك حاول أن يثنى ابنته عن عزمها ، لكنها لم تستمع لنصحه ، فاضطر فى النهاية الى افراغ آخر سهم فى جعبته : صرح لها بأن الفتى سىء السمعة ، ولا هم له سوى التسكع ومطاردة النساء أثناء تغيب أزواجهن!

لكنها بكت ، وأطلقت قنبلة أخرى : فاما الزواج منه ، واما الانزواء فى الدير !

أما الأم فقد لجأت الى سلاح المرأة . فما أن دلف زوجها الى فراشه ليلا ، حتى اقتربت منه ، ثم همست ، وهى تربت

على يده ، قائلة :

— ان جريجور فتى حسن الطلعة ، صبور على العمل ، وقد وقعت ناتاليا فى شرك غرامه !

— صه أيتها الشمطاء التى حرمها الله من قوة البصيرة ! .. أترين حسن طلعته يدر علينا ثروة ؟

وعندئذ انقلب فى فراشه وولى ظهره لصدرها الضامر البارد ، وتركها تتكلم :

— بل ان أسرته ميسورة الحال ، معروفة بالنشاط ، وتحمل المشاق .

والتصقت به ، وظلت تربت على يده . لكنه قال :

— أغربى عن وجهى أيتها الشيطانة .. أفسحى لى المكان .. لماذا تربتين على كما لو كنت أنا بقرة ، وكنت أنت عجلا؟ ! .. انك تعلمين جيدا أن ناتاليا على استعداد للوقوع فى شرك أى ذكر !

— أليس لك قلب ؟ ان عليك أن تشاطر ابنتك مشاعرها .

وعندئذ نفد صبره ، فالتصق بالحائط ، وشرع فى الشخير ، متظاهرا بالنوم !

***

لكن حيلة المرأة فازت أخيرا ، فظفر جريجور بالقبول . وجاءت « الينشنا » — أم العريس — برغيف ناصع البياض ، فألقت به على المائدة ، أثناء الاجتماع الذى عقد بمنزل « مايرون » للاتفاق على اجراءات الزواج . وشرع بنتاليمون يرسم علامة الصليب ، ثم تسللت أصابعه فجأة الى فتحة معطفه الازرق ، وخرجت بزجاجة ذات سدادة حمراء .. سرعان ما أمسك بها قائلا : **« والآن أيها الاصدقاء ، لنقدم صلاة شكر لله ، ثم نشرب نخب هذه المصاهرة »**

ولاحظ مايرون أن بنتاليمون يبدو فى غير مظهره ، اذ كان

يرتدى معطفا من قماش فرنسى ، لوثته بقع الفودكا ، وبقع أخرى لأشياء كثيرة ، وأدرك أنه يتباهى بذلك رغبة منه فى تيسير زواج ابنه ! .. وفيما هم يتناقشون ، اذا ببنتاليمون يميل ناحية مايرون قائلا :

ـ ليس فى وسعى أن أقوم بما فرضتموه على من مطالب من أجل مقايضة ابنتك . فلكى أتمكن من شراء المعاطف المصنوعة من الفراء ، والاحذية ولوازمها ، وغير ذلك مما تطلبونه ، سوف اضطر الى بيع بقرة من أبقارى !

ـ أو تبخل بها ؟

ـ لا .. لست بخيلا بها .

ـ ان هذه تقاليد القوزاق منذ القدم ، وعليك أن تحترمها ، والا فلتذهب الى الشيطان !

ثم يدفع بالاكواب من على المائدة ، فتسقط على الارض ، ويستطرد : « **وكما كافحنا فى الحياة ، واستطعنا أن نعيش فى رخاء ، فعليك أن تدع العروسين يكافحان أيضا من أجل قوتهما !** »

.. ورضخ بنتاليمون ، وقبل الصفقة على مضض ، ثم شرع فى تناول خيارة خضراء ، وهو يبكى .. وبعد أن فرغت زجاجة الفودكا الثالثة ، تحدد موعد الزفاف ..

أما والدتا العروسين فقد جلستا متلاصقتين ، وكل منهما تحكى للأخرى متاعبها وشكاواها ، ثم تعقب على أخلاق ابنها أو ابنتها ، فتثنى عليها ، وتوصى مشددة بضرورة الزواج ..

وفى أثناء ذلك كان « ميتكا » ، شقيق العروس ، يطل على الحاضرين من ثقب الباب ، وبجواره شقيقتاه تتهامسان .. أما « ناتاليا » فكانت فى غرفة أخرى ، تمسح دموعها بكم سترتها الضيق ، وهى تحس بضيق ورهبة من الحياة المقبلة المجهولة !

***

أخذت دار كورشينوف تعج بضوضاء الاستعداد للزواج .. وكان ميتكا عندما يعود من عمله ليلا ، ويشاهد شقيقته مكبة على اعداد قفاز العريس التقليدى ووشاحه ، يعمد الى اغاظتها ، فيقلل من شأن عريسها ، وعندئذ تنخرط فى البكاء حتى يختنق صوتها .. وتظل هكذا الى أن ينقذها جدها « جريشكا » ، (الذى كان قد اشترك فى غزو تركيا عام ١٨٧٧ ، حيث نال ميداليتين ووساما .. مما جعل أهل القرية يحترمونه .) .. وكان الجد قد قابل نبأ زواج ناتاليا المرتقب بهدوء وابتسامة ، لكنه كتم الحزن فى نفسه ، وشعر بغصة تستقر فى قلبه ، وهو يتذكر عطفها وحدبها عليه . ولما رأته ناتاليا حزينا شاحبا ، اندفعت اليه تسأله : « هل تخاف الموت يا جدى ؟ » .. فأجابها : « **بل اننى انتظره يا بنيتى كما انتظر ضيفا عزيزا على .. لقد حان وقت انطلاقى ، فقد أديت واجبى ، وخدمت قيصرى ، وشربت من الفودكا ما فيه كفايتى !** »

***

وجاء جريجور يوما لزيارة عروسه ، فقضى معها وقتا طيبا ، ثم نهض عائدا .. وصحبته هى لتوديعه .. وتحت سقف مشتل الزهور ، أخرجت من صدرها لفافة ، ودفعتها الى يده وقد احمر وجهها خجلا ، وتألقت عيناها بالحب .. فوجد جريجور نفسه يجذبها نحوه بقوة ، باحثا بشفتيه عن شفتيها .. لكنها دفعته فى صدره بيديها ، وامالت رأسها الى الوراء قائلة :

ـ قد يروننا !

ـ وماذا يهم ؟

ـ يصدنى الخجل !

ثم أمسكت بعنان فرسه ، وابتعدت قليلا ريثما صعد الى ظهره .. ووقفت ترقبه ، وهو يلكز الحصان وينطلق به .. مخلفا وراءه غبارا وشوقا .. وتنهدت ، ثم ابتسمت وهى تقول لنفسها : « لم يبق سوى أحد عشر يوما ! »

***

كانت « أكسينيا » تحس بالمرارة منذ هجرها جريجور .. وكثيرا ما خنقتها العبرات ، واعتصرها الأسى ، والفراغ الذى حل بقلبها .. لكنها أبقت على حبها لجريجور ، رغم حقدها عليه ، وغيرتها من « ناتاليا » ! .. وقد طالما فكرت جديا فى استعادته ، مهما كلفها ذلك من ثمن .. لكنه كان كالصخر لا يلين .. فتحققت فى النهاية من أنها لن تمتلكه .. لقد فر كطير غاب عن عشه ، وأضحى العش هناك ، بجوار ناتاليا !

***

وما أن حل موعد الزفاف ، حتى ضجت دار أسرة العريس بالمدعوين الذين أخذوا يتوافدون عليها زرافات ووحدانا ، وهم يرتدون ثيابا زاهية الألوان ، مزركشة كقوس قزح .. واستقل عدد من أفراد الاسرة أربع عربات مزينة ، تجرها ثمانية جياد ، وانطلقوا بها لاحضار العروس .. وكان فى أولاها جريجور ومعه شقيقه الاكبر « بيوترا » وزوجته « داريا » .

وما أن وصل الركب الى دار العروس ، حتى قاد بيوترا العريس الى باب المطبخ ، حيث توقفا ، ثم راح بيوترا يطرق الباب الموصد من الداخل قائلا : ((**ارحمنا أيها الرب يسوع !**)) .. فأجابه صوت من الداخل قائلا : ((**آمين**)) .. ولما تكرر ذلك ثلاث مرات ، قال : ((**أتسمحون لنا بالدخول ؟**)) ، فأجاب الصوت : ((**تفضلوا ، على الرحب والسعة**)) .. وعندئذ فتح الباب على مصراعيه ، ثم قدمت ((اشبينة)) العروس الى ((بيوترا)) كأس شراب مر المذاق ، فتجرعه متأففا ، وسط ضحك الجميع ، كما قدمت لكل مدعو ثلاث كؤوس من الفودكا ، حسب تقاليد الزواج .

أما ناتاليا فقد وقفت فى ثياب الزفاف خلف مائدة الطعام ، تحرسها شقيقتاها وأمها .. وعندما انحنى بيوترا ، وهو يقدم خمسين قطعة من عملة ((الكوبيك)) داخل كأس ، اعترضت والدة العروس قائلة وهى تضرب على المائدة بعصا : ((**هذا لا يكفى .. لن نبيع العروس !**)) .. وعندئذ أضاف الى المبلغ حفنة أخرى من النقود الفضية ، فاحتجت شقيقتا العروس هذه المرة ، لكن بيوترا كان عنيدا ، اذ صاح قائلا : ((ماهذا ؟ لقد دفعنا ، ودفعنا فوق مايجب أن ندفع !)) .. وعندئذ تكلم مايرون قائلا وهو يأمر الفتاتين : ((تنحين أيتها الفتيات)) .. وكان هذا ايذانا بالموافقة ، وعندئذ وقف المدعوون ، ليفسحوا مكانا للقادمين . ثم ألقى بيوترا بطرف شال فى يد جريجور ، واقتاده الى حيث جلس تحت أيقونة كبيرة بجوار العروس ، التى أمسكت بطرف الشال الآخر .

.. وانهمك الحاضرون بعد هذا فى تناول الطعام ، **ماعدا جريجور وعروسه ، فقد كانت تقاليد الزواج تحرم الطعام على العروسين !** .. ولما نهض مع عروسه ، وضع أحدهم

حفنة من القمح فى حذائه ـ اتقاء للحسد ! ـ الامر الذى سبب له ألما حادا فى قدمه أثناء السير !

وأمام منزل العريس ، وقف بنتاليمون ممسكا بأيقونة ، وبجواره زوجته « اليتشنا » ، لاستقبال موكب العروسين اللذين تقدما حال وصولهما لنيل بركة والدى العريس ، وسط ضجيج من التهليل ووابل من حبوب القمح .. ثم انتقل الموكب الى الكنيسة ، حيث وقف جريجور ، بجوار ناتاليا ، ممسكا بشمعة ، وقد استولى عليه الملل والنعاس ، بينما الكاهن يقوم بمراسم الزواج التى تخللها صوت الشماس ، وهو يردد مايقوله الكاهن بطريقة ناشزة .. وهكذا استسلم جريجور لما يدور حوله ، الى أن تنبه على صوت الكاهن وهو يطلب استبدال دبلتى الزواج .. ثم قبل ناتاليا قبلة العرس ، وأمسك بيدها الكبيرة الخشنة ، وعاد بها من حيث أتى ..

أما والدا العروس ، فلم يصلا الى بيت العريس الا بعد ان توجه العروسان الى الكنيسة ، وكان برفقتهما الجد « جريشكا » مرتديا زيه العسكرى وأوسمته ! .. وهب بنتاليمون وزوجته لاستقبال القادمين ..

وحين عاد العروسان الى البيت ، ألفيا المدعوين فى صخب وضجيج ، بينما الانخاب والكؤوس تدار عليهم ، والغناء والانغام والرقص القوزاقى يصطخب فى كل مكان .. كما دارت رؤوس عدد كبير من الحاضرين الذين أفرطوا فى الطعام والشراب .

واختتمت حفلة الزفاف بأن رقص « بيوترا » مع والدة العروس ، كما رقص كورشينوف مع والدة العريس .. أما بنتاليمون ـ الذى حال عرج ساقه دون الرقص ـ فقد استعاض عن ذلك بتحريك لسانه ، واحداث فرقعة منتظمة به !

***

كان « سرجى بلاتونوفتش موكوف » (١) ينحدر من سلالة فلاح روسى ، أرسله القيصر « بطرس الاكبر » الى قرية (تشيجوناك) الواقعة على نهر الدون ، بقصد تعميرها .. وقد درت التجارة على « سرجى موكوف » أرباحا طائلة ، فشيد طاحونة بخارية ، كما سيطر على قرية (تاتارسك ، وما جاورها ، واستغلها استغلالا غاشما ، حتى أصبحت كافة دورها مدينة له !

وكانت زوجته الاولى قد توفيت عقب انجاب طفليها ـ « اليزابيتا » ، و « فلاديمير » ـ اللذين لم يولهما أبوهما أية عناية .. ثم لم يلبث أن تزوج من أخرى ، اتضح فيما بعد انها عاقر لا تلد . ومع ذلك فانها خصت الطفلين بحبها وعطفها ، لكنها لم تحاول اصلاحهما أو فهم نفسيتهما .. **وهكذا نشأت « اليزابيتا » بين أحضان الخادمة والطاهية الفاسدتى الاخلاق ، ومن ثم تفتحت عيناها ـ فى سن مبكرة ـ على خبايا الحياة المنحلة الساقطة** ، ولم تتصرف بشكل لائق فى مرحلة المراهقة التى تتسم بالخجل والحياء ..

أما فلاديمير فقد شب بليدا ، مصابا بضعف خطير عرضه لمرض السل .. كما كان متعجرفا ، يلذ له ان يشبع غروره بالتسكع فى طاحونة أبيه ، لكى يسمع همسات العمال عنه !

وذات يوم ، بينما كان « ميتكا » ـ شقيق « ناتاليا » ، عروس جريجور ـ يرسو بقاربه ، اذا به يرى زورقا أنيقا

---

(١) التاجر الذى صادفناه فى بداية القصة ، حين ذهب جريجور الى بيته يعرض على ابنته شراء صيده من السمك (صفحة ٤١)

يتهادى على صفحة الماء ، يقوده شاب وبجواره فتاة ممسكة بباقة من الزهور .. وما أن لمحته الفتاة ، حتى صرخت تحييه ، وحين رسا قاربها قفزت منه وهى تصيح بميتكا : « لقد خدعتنى ! ألا تذكر وعدك لى ؟ ألا تذكر رحلة الصيد التى وعدتنى بها ؟ »

وعندئذ عرف ميتكا أن الفتاة لم تكن سوى « اليزابيتا » التى سبق أن وعدها برحلة كهذه .. لكنه اعتذر لها بكثرة مشاغله ، فلما رجته وألحت فى رجائها ، وعدها برحلة فى اليوم التالى . وعندئذ تهلل وجهها وهرعت عائدة الى الزورق ، بعد أن ألقت اليه بابتسامة لاذعة .

.. وفى تلك الليلة استعد ميتكا للصيد ، كما لم يستعد من قبل . وطلب الى جده أن يوقظه عند صياح الديكة ..

وكان على « ميتكا » أن يتسلق الشرفة ليصل الى نافذة « اليزابيتا » .. وهناك تسللت الى أنفه رائحة عطور لم يألفها ، ونظر أمامه فوجدها غارقة فى النوم ، ونادى عليها فلم تستيقظ .. فخشى أن يكون قد أخطأ التقدير ، أو أن يلقاه أبوها بطلقة من بندقيته ! .. وأخيرا تكلمت ، فخرجت الالفاظ من فمها دافئة ناعسة ، وهى تطلب اليه الانتظار .. ومضت فترة ، هبطت بعدها من النافذة فتلقاها بيديه .. وضغطت هى بشدة على يده ، وحدقت فى عينيه عن كثب .. ثم مضت معه الى حيث استقلا قاربا ، بعد أن حملها على ذراعيه ، وهى تصرخ ، وتتعلق بعنقه ..

والتقت شفاههما فى قبلة طويلة ، تأوهت منها « اليزابيتا » ، وتعثرت بسببها قدما « ميتكا » ، واندفع الماء داخل حذائه !

وما أن بلغا الضفة الاخرى ، حتى حملها — دون استئذان — الى داخل مجموعة كثيفة من الشجيرات .. وفوجئت

« اليزابيتا » بما بدر منه ، فانهالت عليه عضا ، وخدشا . وصراخا .. ولما أحست بقوتها آخذة فى التلاشى ، اجهشت بالبكاء محنقة ، لكن دموعها استعصت عليها ..

وفى أثناء العودة – فى نحو التاسعة صباحا – تحاشى « ميتكا » النظر اليها ، وهو منهمك فى التجديف ، وعند قدميه سمكتان صغيرتان . وكانت مشاعره مزيجا من الشعور بالاثم ، والرضا ، والقلق . أما « اليزابيتا » ، فقد جلست مسبلة العينين ، وهى تداعب عود زهرة بغير اكتراث ..

ولما غادرا القارب ، ناولها « ميتكا » نصيبها من الصيد ، فرفعت حاجبيها فى دهشة ، لكنها تناولت السمكة ، واستدارت عائدة ، وقد استولى عليها شعور بالتعاسة . **أحست انها قد ودعت كل بهجتها واطمئنانها عند تلك الشجيرات ! .. وتنبه « ميتكا » الى مزق بدا فى ثوبها ، فناداها .. لكنه دهش اذ رأى الدموع تنهمر من مآقيها !**

وسرعان ماسرى النبأ والهمس فى المدينة ! .. وأصبح موضوعهما شغل النساء الشاغل ، ومحور أحاديثهن ، وهن يلقين بالتبعة على جيلها من البنات : « فاسد .. لا يصلح لشىء ! »

وبلغت الانباء مسامع والد اليزابيتا ، فجن جنونه ، وانقطع يومين عن العمل ! .. وحين مضى اليه « ميتكا » ، عارضا ان يصلح فعلته ، طالبا يد « اليزابيتا » نعته الاب بأقذع الالفاظ .. ورماه بقضيب من الحديد ، أصابه فى ركبته .. فتحامل الفتى على ألمه واندفع الى الخارج وهو يقول : **« لقد أردت أن أصلح ما أفسدت ، اذ من سيطلب يد ابنتك الآن ؟ .. ان الكلب لا يمس عظمة نخرة .. ! »**

فهاج موكوف ، وطار صوابه ، فأطلق خلف الفتى أربعة

كلاب شرسة ، أطبقت عليه من كل جانب .. لكنه قاوم مقاومة جبارة ، حتى استطاع أن يخنق أحدها ، وان ينجح – بمعاونة المارة الذين تجمعوا – فى طرد الثلاثة الآخرين ..

***

استطاعت « ناتاليا » ، بما بذلت من مجهود شاق فى أعمال البيت ، أن تكتسب محبة والدى زوجها وعطفهما .. أما جريجور فلم يتمكن من تنظيم حياته الزوجية على أساس مريح ، كما لم يستطع أن ينسى « أكسينيا » ، خاصة وأنه لم يجد فى زوجته ماكان يجده فى أكسينيا من حرارة وحمية ، اذ كانت قد ورثت عن أمها البلادة ، والبرود ، والنفور من المنشطات الجنسية .. وكان جريجور يقول لها متهكما :

« لابد وأن والدك قد صاغك من الثلج ! » .. **وعندما سألته أكسينيا يوما عن حياته الزوجية ، راح يتملص قائلا : « اننا نعيش ، لا أكثر ! » .. وبدأت العاطفة تتأجج من جديد فى صدره .. وأحس ان أكسينيا هى كل شىء فى حياته !**

وذات ليلة مقمرة ، قاسية البرودة ، قال جريجور لزوجته ناتاليا : « انك كالقمر فى برودته .. ولا يشعر الرجل الى جوارك بدفء أو قشعريرة .. ويؤسفنى ان اصرح لك بأننى لا أحبك ، ولا أحتمل هذه الحياة ! .. ومع انه قد مضى على زواجنا هذا الزمن الطويل ، الا أننى أشعر بأنك غريبة عنى ، كما أشعر أن قلبى لايزال خاويا ! »

.. وهكذا تحول الى أكسينيا ، يبثها شوقه وعشقه ، وهى ، بالمثل ، تهبه كل حبها وحرارتها .. وكانت النتيجة مؤسفة بالنسبة لناتاليا ، التى امتدت آلام نفسها الى جسمها ، فذبلت وشحب لونها .. وعبثا حاول بنتاليمون وزوجته أن يجدا لها علاجا .. وجن جنونهما عندما أعلنت

أنها ستعود الى دار أبيها ، مادامت امرأة غير مرغوب فيها ! .. ولم يعارض جريجور فى ذلك . فاحتد أبوه ، وخيره بين الاقامة مع زوجته ، أو الطرد .. لكنه اختار الطرد !

وخرج فى تلك الليلة ، غير عابىء ببكاء ناتاليا وتوسلاتها.. وأرسل سرا فى طلب « أكسينيا » ، التى وافته ومعها حاجياتها ، بعد أن انتهزت فرصة مغادرة زوجها للبيت ليلعب الميسر .

واحتضنته « أكسينيا » داخل معطفها ، وسارا ، وكل منهما يمنى الآخر بالسعادة .. وفكرت فى لحظة الهناء تلك أن تخبره بأنها حامل ، لكنها عدلت ، خشية أن تفقده ، اذ لم تكن متأكدة من أمر هذا الجنين ، وصاحبه !

أما ناتاليا فقد عادت الى دار أبيها ، حيث ارتمت عند قدميه ، وهى تنتحب قائلة : « لقد قضى على سعادتى الى الأبد يا أبتاه .. لقد هجرنى جريجور ليعيش مع تلك المرأة!»

واحتد « مايرون » ، وأرغى وأزبد ، وأمر خادمه باعداد العربة التى أقلت « ميتكا » الى منزل جريجور ، ثم عادت بحاجيات شقيقته .

ولم يكن «ستيبان» أقل ثورة من « مايرون » ، لكنه انفرد بنوع خاص من الثورة ، اذ كان قد لاحظ فى صبيحة اليوم الذى هربت فيه زوجته «أكسينيا» ، نضارة وبريقا يضيئان وجهها وعينيها ، فلما سألها أجابته بأن هذا ناتج عن وهج النار التى قامت باعدادها فى ذلك الصباح ! .. لكنه أدرك السبب الحقيقى عند عودته فى منتصف الليل .. وعندئذ لم يجد ماينتقم منه سوى سترتها التى كانت قد تركتها سهوا عند هربها ، فأخذ يطوح بها فى الهواء ثم يتلقاها

بسيفه ممزقا اياها .. وأخيرا ارتمى على مقعد ، منكس الرأس ، وأخذ ينقر بأصابعه المرتعشة على غطاء المائدة ..

***

توجه جريجور فى الصباح الى التاجر « موكوف » يطلب عملا ، وصادف ان كان هناك الضابط الشاب « يوجين لستننتسكى » .. فلما علم بأمره عرض عليه وظيفة سائق لوالده ، كما وعده بايجاد عمل لاكسينيا ..

وكان « يوجين » متوسط الطول ، عريض المنكبين ، أنيقا فى ملبسه . وكان يشغل وظيفة قائد الحرس ، الى جوار كونه ابنا للجنرال العجوز المتقاعد « نيقولاى لستننتسكى » ، (الذى كان قد فقد زوجته - ويوجين فى الثانية من عمره - أثناء الثورة ، عندما أخطأه الثوار فقتلوا زوجته وسائقه !) .. وأثرت هذه الحادثة فى نفسه فاعتزل الخدمة ، وعاد الى ضيعته ، حيث أقام هناك وحيدا ، يعانى من آلام مرض فى معدته .. وكان يقوم على خدمته خادم خاص يدعى «بنيامين» وخادمة ، والطاهية « لوكريا » ، التى رفضت ان تتخذ « أكسينيا » مساعدة لها .. فاضطرت الاخيرة الى القيام بمسح الارض واطعام الدواجن وتنظيف حظيرتها .. هذا الى جانب « ساشكا » سائس الخيل العجوز ، والراعى تيخون ، وعدد كبير آخر من العمال الذين كانوا يعملون فى الضيعة الشاسعة ..

وأخذ « يوجين » يتردد ، فى الاسبوع الاخير من عطلته ، على غرفة « أكسينيا » ، منتهزا فرصة تغيب جريجور .

وذات يوم جلس قبالتها ، وراح يسألها عن ماضيها ، حتى احمر وجهها خجلا ، وهمت بالخروج ، وهى مرتبكة ، بحجة

اطعام الدجاج ، لكنه طلب اليها أن ترجىء هـذا .. وظل جالسا أمامها ، وعيناه الصافيتان البراقتان تختلسان النظر اليها فى نهم وجوع ..

وفجأة دخل عليهما جريجور ، فما لبث « يوجين » ان نهض ، وقدم له سيجارة ، ثم غادر الغرفة .

ولما تساءل جريجور عن سبب وجوده بالغرفة ، أجابته «أكسينيا» وقد غلبها الضحك، اذ تذكرت نظرات الضابط : « لست أدرى ! لقد جلس هكذا .. (وجلست تقلده فى جلسته) وطال جلوسه ، حتى ضقت ذرعا به ! » .. فقال جريجور محتدا : **« لابد أنك قد أبديت له عطفا . فاحترسى اذن ، والا ألقيت به يوما على درجات السلم ! »**

وعندئذ تطلعت اليه مبتسمة ، وهى لاتدرى أجاد هو فى كلامه أم أنه يهزل !

***

ولى الشتاء بزمهريره ، وأقبل الربيع .. بينما « ناتاليا » لاتزال مقيمة بمنزل والدها ، وطيف أمل ، بعودة جريجور اليها ، يداعبها من حين لآخر .. وكما أن المصائب لا تأتى فرادى كما يقولون ، فقد ابتليت بهم آخر أطاح بالبقية الباقية من هدوئها، وطمأنينتها .. ذلك ان شقيقها «ميتكا» فاجأها ذات يوم بقوله : « أما زلت تحنين الى جريجور ؟ أريدك أن تنسى الألم .. » . ولم تفهم « ناتاليا » ما قصده أخوها ـ رغم أنها لاحظت فى عينيه بريقا غريبا يوحى بنهم جنسى عنيف ! ـ فصفقت الباب فى وجهه ولاذت بالفرار الى غرفة جدها ، حيث وقفت برهة تنصت الى دقات قلبها الذى كاد أن ينخلع رعبا !

لكن « ميتكا » عاود الكرة بعد يومين ، قائلا لها : «لاتعذبى

نفسك ياناتاليا .. » ، وعندئذ صرخت ، وهددته بافشاء الامر الى والدهما ، متوسلة اليه أن يبتعد عنها .. لكن الذئب لم يقنع بوداعة الحمل ، اذ أفصح عن مأربه قائلا : « لم هذا الصراخ أيتها البلهاء .. لن أقربك الآن .. لكننى أقسم أننى سأعود اليك ليلا ! »

واضطرت ناتاليا فى تلك الليلة الى دعوة شقيقتها الصغرى كى تشاركها الفراش ، حتى ينجلى الموقف. وجافاها النوم، الى مطلع الفجر ، وهى تنصت فى فزع وقلق .. لكن الصمت ظل مخيما على الغرفة فى تلك الليلة ، لايقطعه سوى شخير جدها فى الغرفة المجاورة ..

أما « ميتكا » ، الذى لم يتمكن من اعادة الثقة به ، فقد اتجه اتجاها آخر .. صار يقضى الليالى بصحبة نساء القرية من ذوات السمعة السيئة . وجمعته بستيبان صداقة وطيدة ، جعلته يشاركه لهوه وسهراته الحمراء .

وفى تلك الاثناء ، لاحظت « ناتاليا » الفساد والانحلال يغزوان القرية ، رجالا ونساء ــ فما أكثر قصص الانحلال الخلقى التى انصتت اليها وهى تحكى على ألسنة صاحباتها من النسوة ــ وعبثا حاولت المسكينة أن تعيد جريجور الى حظيرتها ، فقد أرسل اليها ردا على رسالة بعثت بها اليه ، وكان الرد يتألف من كلمتين فحسب ، هما : « لن أعود » !.. **وكتمت الالم فى قلبها ، لكنها لم تتحمل سخرية الصبية فى القرية ، الذين كانوا يلاحقونها بالغمز واللمز كلما سارت فى الطريق ..**

وازدادت حالتها المعنوية سوءا على سوء ، حتى حاولت فى النهاية أن تتخلص من حياتها .. وكادت أن تنجح ، لولا أن تداركتها الصدفة ، فافتضح أمرها ، وعولجت حتى شفيت من الجرح الذى أحدثته بخنجرها ..

وغادرت الفراش وهى مشوهة الوجه ، وضربت بأوامر أبيها عرض الحائط ، فعادت لتقيم بدار حميها ، حيث قوبلت بترحاب من الجميع ، ماعدا « داريا » ـ زوجة «بيوترا» ـ التى كانت ترمقها بنظرات الغيرة !

***

وضعت «أكسينيا» طفلة.. لكن جريجور أحس بالصدمة فجأة ، اذ بدأ الشك يساوره فى نسب الطفلة ، حتى انه كان ينتهز فرصة نوم « اكسينيا » ، فيهب من سريره ، ويتفرس فى وجه الطفلة ، فيراها على شاكلته تارة ، وتارة أخرى يراها صورة طبق الاصل من « ستيبان » ! .. ومع ذلك لم يقبل تحذير أبيه ، فتمسك بالطفلة وأعلن انه لن يتخلى عنها ، حتى لو لم تكن من صلبه ..

وحان موعد رحيله ، الى ادارة الجيش ، لقضاء أربع سنوات فى الخدمة العسكرية. فرحل تاركا أكسينيا والطفلة بمنزل « الجنرال » ، الذى وعد بحسن رعايتهما. وودعته « أكسينيا » ، والدموع تنهمر من عينيها ، لا حزنا على فراقه فحسب ، وانما خوفا مما يخبئه القدر لها طيلة فترة تجنيده ..

على أن الحياة العسكرية لم تكن شاقة على جريجور ورفقائه فحسب ، وانما صحبتها موجة من القسوة العارمة التى تسلح بها الضباط والقواد أثناء الفترة التى قضاها بالجيش .. ولم تكن الحياة فى المعسكرات مزودة بأدنى وسائل الراحة والتسلية . كما لم يكن فى تلك البقعة من النساء سوى زوجة رئيس الخدم المسنة ومساعدتها « فرانيا » ، التى حام حولها الضباط والجنود ، وأشبعوها

اغراء وتدليلا .. حتى امتلأت نفسها بالغرور ، فأمعنت فى اثارتهم ..

ورغم محاولتهم التقرب اليها ، فان قلبها لم يلن لاحد سوى القائد .. مما جعل الجنود يدبرون لها المؤامرة تلو المؤامرة للايقاع بها .. الى أن تم لهم النصر فى النهاية :

فذات يوم ، فوجىء جريجور بثلة من رفقائه وهم يتوافدون بالتوالى على حظيرة بالمعسكر ، الداخل اليها منهم مسرع ، متلهف ، والخارج منها عاكف على ملابسه وشعره بالتعديل والترتيب !

وحاول أن يعرف جلية الامر ،فانطلق الى الحظيرة ، وعندئذ انعقد لسانه من وقع المفاجأة : لقد شاهد « فرانيا» ملقاة على الأرض ، وعلى رأسها غطاء حصان ، وثوبها الممزق مرفوع الى مافوق صدرها ! .. فأيقن ان زملاءه قد اغتصبوها بالجملة .. وحاول أن يصرخ ، وأن ينادى الجاويش ، لكن الذئاب الجناة كانوا أسرع منه ، اذ لحقوا به ، وطرحوه أرضا ، وكمموا فمه ، وهددوه بالقتل ان فاه بكلمة عن هذه الجريمة . ثم أطلقوا سراحه بعد فترة .. وتحولوا الى « فرانيا » فحملوها ، وهى فاقدة الوعى ، الى حيث ألقوا بها بعيدا ..

وفى ساحة الاستعراض لمح القائد مزقا فى سترة جريجور، وزرا مخلوعا بها ، فسأله عن سبب ذلك ، لكن جريجور لم يجب ، وطفرت الى ذهنه صورة الحادثة البشعة فى الحال ، وعندئذ أحس بحاجة شديدة الى البكاء .

***

.. **وذات** يوم ، بينما كان بنتاليمون وأسرته منهمكين فى حصد محصول القمح ، اذا بفارس يقبل عليهم ، وهو ينهب

الارض نهبا، وفى يده علم أحمر . ثم صاح الفارس : « الوطن فى خطر ! » .. وان هى الا لحظات حتى أغلقت حانة القرية، وارتدى الرجال الزى العسكرى ، وبدت على القرية كلها مسحة من القلق والكآبة والارتباك .

وشدت الحرب الشبان الى ساحتها ، كما شدت معهم قلوب ذويهم وعواطفهم .. ولم تكن الحال رخية ميسورة ، اذ لم تنفع الصلوات التى شهدتها الكنائس ، والدعوات التى انطلقت الى السماء ، ونصح الشيوخ وارشادهم للشباب .. كل هذا لم يمنع رحى الحرب من أن تنصب على الآلاف فتزهق أرواحهم .. حتى أصبحت ساحة القتال فى النهاية مقبرة كبيرة مكشوفة ، تحدها الجثث من كل اتجاه !

أما جريجور الذى كان قد مضى عليه زمن فى الجيش ، **فقد خلفت المعارك فى نفسه أسوأ الاثر ، وظلت أشباح قتلاه تعذبه فى نومه وتطارده فى صحوه .. حتى أصاب الهزال جسمه .. بل انه كثيرا ما كان يفزع من نومه بسبب الاحلام المزعجة التى كانت تتراءى له** .. وزاد من بؤسه رؤيته لاصدقائه العائدين من المستشفيات ، مشوهى الوجوه والاطراف . فلم يكن هناك من يستطيع أن يسلم من بلايا الحرب ودمارها، بل ان أحدا من الجنود لم تخل أعماقه من ألم دفين ..

ولحقت آثار الحرب بداريا ، التى لم تستطع صبرا ـ وقد فارقها زوجها منذ عام ـ فدأبت على التبهرج، والتغيب عن البيت حتى ساعة متأخرة من الليل ! .. وعبثا حاول حموها وناتاليا ازجاء النصح والتأنيب لها ، وقد اتهماها بسوء السلوك ..

ويبدو ان احساس داريا بغياب زوجها قد سبب لها توترا **فى وظيفتها كأنثى ، فاندفعت فى طريق السوء الى حد**

الشذوذ عن المألوف ، اذ حاولت ذات مرة أن توقع حماها « بنتاليمون » فى شباكها ، لكن الرجل العجوز لم ينصت الى توسلاتها ، ولم يعترف بنظراتها الجائعة . وعندما ردها بقسوة عاتبته على سلوكه ، وبررت محاولتها قائلة : « .. اننى لم أر زوجى منذ عام ، ولست أستطيع العيش هكذا .. فماذا أفعل ؟ ! .. ان لم تشأ ، فدعنى أبحث عن آخر ، وعليك أن تصمت ! »

وأحس بنتاليمون بالطعنة تنفذ الى أعماقه ، فأخذ يحدق فيها شارد الذهن ، مشلول الارادة .. ثم مضى .. دون أن يبوح بهذا الحادث لاحد ، طيلة حياته ، حتى عند اعترافه على يدى الكاهن .

***

وفيما كانت أسرة بنتاليمون تتلهف على سماع أخبار من ولديها - بيوترا وجريجور - اذا بخطاب يصلهم من ادارة الجيش ، يخطرهم بأن جريجور قد استشهد فى ساحة القتال ، ومات ميتة الابطال !

وأذابت الصدمة قلوبهم ، وكادت أن تقضى على عقل الاب ، كما فقدت « ناتاليا » وعيها ، وظلت أسبوعا بين الاغماء واليقظة .. وبعد أيام وصلهم خطاب آخر ، لكنه كان من « بيوترا » هذه المرة .. وقد جاء فيه أن جريجور لم يمت ، لكنه عد ضمن القتلى لخطورة جرحه .. وهو الآن فى طريقه للشفاء . كما أنعم عليه بوسام « القديس جورج » !

وهكذا ، بين غمضة عين وانتباهتها ، انتقلت الأسرة من حزن أليم الى فرح مقيم .. وكان منظر بنتاليمون يدعو للتأثر ، وهو يجرى - رغم عرجه - فى شوارع القرية ، ممسكا بالخطابين ، معترضا سبيل كل من يصادفه ، طالبا

اليه أن يعيد عليه قراءتهما ، بينما دموع الفرحة تتألق فى عينيه ..

ثم وصلهم بعد ذلك خطاب من جريجور، سرد فيه أخباره، وبعث فى نهايته - لاول مرة - تحية عابرة لناتاليا !.. ورغم تصريحه فى نفس الخطاب بأنه لن يترك « اكسينيا » ، سيما بعد ان أنجبت طفلة ، الا ان التحية هزت مشاعر « ناتاليا »، ودب الأمل فى نفسها ، فقررت أن تتنازل عن قدر كبير من كبريائها . فزارت « أكسينيا » ، وتوسلت اليها أن تعيد اليها فتاها الغائب ، لكن الذئبة القاسية قابلتها بجفاء ، وثارت عليها فى احتقار .. الامر الذى جعلها تبادر بالنهوض .. وانصرفت كسيرة الفؤاد ، عليلة النفس ..

***

وان هى الا أيام حتى أصيبت الطفلة « تانيا » بالدفتيريا .. فجزعت أكسينيا ، اذ ظنت أن الله يعاقبها على اساءتها لناتاليا ، فتضرعت اليه ، جاثية ، باكية ، كى يرحمها .. لكن قضاءه كان قد نفذ ، فأسلمت الطفلة الروح بين ذراعى أمها ..

وصادف أن وصل فى تلك الاثناء « يوجين لستنتسكى »، الذى أصابته الحرب بجرح بليغ كاد أن يقضى عليه ، فجاء الى ضيعة أبيه كى يقضى فترة النقاهة .. فلما علم بموت تانيا ، مر بغرفة « أكسينيا » ليلا ، لتعزيتها ومواساتها . وكانت قد أوت الى فراشها ، فى غلالة رقيقة كشفت عن مفاتن جسدها . ومن ثم حاولت أن ترتدى بقية ملابسها ، لكنه منعها بحجة أنه سينصرف بعدلحظة .. وعندئذ ضغط على يديها ، معزيا ، ملاطفا ، فاستسلمت للبكاء . ومال عليها مهدئا من حزنها ، وأخذ يقبلها .. وما أسرع ما يتأثر

قلب المرأة ، فى وقت الحزن ! .. فما ان بلغت القبلات أكثر من ثلاث حتى تعلقت به بكل مافيها من قوة ، دون ان تدرى ماذا تفعل .. وقادها هذا فى النهاية .. الى الاستسلام !

***

حين تماثل جريجور للشفاء منح عطلة ، سافر خلالها الى أبيه .. وكان أول من لقى « ساشكا » ، فوقف يثرثر معه . وعندئذ لمح فى عينيه شيئا غريبا يود كتمانه .. واذ ضيق عليه الخناق ، قال : « **لقد كنت تحتضن أفعى بين ذراعيك ياجريجور .. اذ رأيتها بعينى رأسى تتسلل كل مساء الى « يوجين » ، ومن المرجح أن تكون معه الآن ! .. ان المرأة ، كالقطة ، تستسلم لمن يربت عليها !** »

وعندئذ أحس جريجور بالدم الحار يغلى فى عروقه ورأسه ، وبالعرق يتصبب من جسمه .. ثم سار دون أن ينبس بكلمة صوب غرفة « أكسينيا » ! .. ووقف طويلا أمام النافذة ، دون أن يجرؤ على طرقها .. لكنه طرقها أخيرا بعنف . وما أن فتحت أكسينيا النافذة ، ورأته ، حتى اندفعت نحوه قائلة : « جريجور ! .. لقد ظننت أننى لن أراك ثانية ، بعد ان انقطعت عنى أخبارك ورسائلك فترة طويلة ! »

ولما احتضنها وعانقها ، أحست بجسمه يرتعد ، رغم أن يديه كانتا تشتعلان حرارة .. ثم جلس دون أن يخلع معطفه ، وراح يتفرس فيها بشوق ولهفة ، فبدت له فى صحة جيدة ، وقد زالت عن يديها آثار العمل والاجهاد ، فبدت — فى حركاتها — كربة بيت ، وليست كخادمة !

وعندما فاتحها بملاحظته هذه ، رمقته بنظرة كلها فزع ، وأطلقت ضحكة مغتصبة ، وعندئذ أيقن ان هذا الجمال

الساحر الفتاك لم يعد ملكا له ، بعد أن أصبحت محظية لابن سيد الضيعة !

ونهض للخروج ، لكنها استوقفته ، وقد اطمأنت الى أنه يود أن يدخن لفافة من التبغ .. فوقف على سلم الدار ، ثم فتح لفافة صغيرة أخرج منها منديلا ، مطرزا ، محلى برسوم يدوية خلابة . وكان قد اشتراه لها ، كهدية يفاجئها بها عند عودته . لكنه أحس الآن أنها هدية حقيرة . فكيف يتسنى له أن ينافس ابن رجل ثرى يملك ضياعا شاسعة ؟ .. وفجأة تشنج وانخرط فى البكاء ، ثم مزق المنديل اربا ، وألقى به تحت قدميه . وعاد الى الغرفة حيث لحقت به «أكسينيا» ، وحاولت — رغم ممانعته — ان تخلع له حذاءه ، بينما غرقت عيناها فى بحر من الدموع ..

ونام جريجور فى تلك الليلة ، من فرط تعبه ، لكن أكسينيا لم تذق طعم النوم ، اذ احتضنت أحد الاعمدة — وكان البرد قارسا والرياح هوجاء — وبقيت كذلك حتى مطلع الفجر !

وفى الصباح نزل جريجور الى فناء الدار حيث تلقى تهنئة سيده ، ثم تهنئة ابن سيده — وغريمه فى الوقت نفسه ! — وكان « يوجين » قد ذكر لجريجور أثناء حديثهما ، أنه سيخرج للنزهة . وعندئذ طلب اليه جريجور ان يأذن له بقيادة العربة التى سينطلق بها للنزهة ، فأذن دون ان يخطر بباله أن جريجور المسكين يخامره أدنى شك من جهته !

وفى طريقهما للنزهة مال عليه « يوجين » ، ووعده بثمن مشروب ان هو أحسن القيادة . فأجاب جريجور : « ألم تغدق على ما فيه الكفاية ؟ .. اننى مدين لك باطعام « أكسينيا » .. وبمنحها ... » وهنا أمسك عن الكلام ، وتهدج صوته ، وبدت فى عينيه نظرات الشك والريبة .

وأحس يوجين بالامتعاض ، فاستند الى المقعد ، وأشعل لفافة ، راح يدخنها بعصبية . أما جريجور فقد ألهب ظهور الخيل بسوطه ، فانطلقت تعدو بجنون ، مما جعل يوجين يفقد سيطرته على نفسه .

وما أن توغلا داخل الوادى، حتى أوقف جريجور العربة، وقفز منها بسرعة ، ثم هجم على يوجين ، فأوسعه ضربا بالسوط ، حتى سال دمه على وجهه .. بينما كان يصيح به اثر كل ضربة : « هذه ، انتقام لأكسينيا .. وهذه ، انتقام لى ! »

ومضى يلهب كل جزء فى جسمه بالسوط حتى كلت يداه، وتعب ، فأمسك عن ضربه ، واذ ذاك ركله بكعب حذائه الحديدى ، ثم تركه ملقى على قارعة الطريق ، ومضى الى البيت .

وهناك تكررت حادثة الضرب ، لكن ضحيتها كانت أنثى هذه المرة ، اذ انهال بنفس السوط والطريقة على أكسينيا وهو يصرخ فيها : « أيتها الحية .. يالك من كلبة خائنة ! »

وحين شفى غليله ، غادر الضيعة مسرعا ، دون أن يلتفت الى أكسينيا التى هرعت تعدو وراءه ، وتبعته مسافة كبيرة من الطريق ، لكنه ردها بقسوة ، ومضى وحيدا !

.. وما أن بلغ فناء دار والديه ، حتى خفت اليه شقيقته « دونيا » ، وهبط والده السلم مسرعا - رغم عرجه - ليعانقه ، كما ارتفع صوت أمه وهى تبكى من شدة الفرح .
أما «ناتاليا» فانها وقفت الى جوار الباب ، وقد استندت اليه - حتى لا تسقط - وعلى شفتيها ابتسامة حائرة ، صادرة عن نفس معذبة !

.. وسرعان ماالمحها جريجور ، فتعانقا ، وتعاتبا ، ثم تصالحا ..

***

فى تلك الليلة ، لكز « بنتاليمون » زوجته ـ وهى نائمة الى جانبه فى الفراش ـ قائلا : **« سيرى بخفة وحذر لترى ما اذا كان جريجور وناتاليا نائمين معا ، أم لا ؟ »**

.. وسارت المرأة بخفةوحذر كما نصحها الزوج العطوف، حتى بلغت باب غرفتهما ، فأطلت من ثقب الباب ، ثم عادت تقول : **« انهما نائمان جنبا الى جنب ! »**

وعندئذ نهض بنتاليمون ، وأخذ يرسم علامة الصليب ، وقد اختنق صوته بالبكاء ، وهو يقول :

« حمدا لله ! .. شكرا لله ! .. حمدا لله .. ! »



عربة اسمها اللذة!

المسرحية التى بنت مجد الأديب الأمريكي المعاصر
تنيسي وليامز

تنيسى وليامز .. فى سطور



ولد «تنيسى وليامز» فى مدينة (كولومبس) بولاية (ميسورى) الأمريكية ، حيث كان جده قسيس البلدة . وحين بلغ الثانية عشرة ، انتقل أبوه ـ الذى كان مندوب مبيعات متجول ـ بأسرته الى مدينة (سانت لويس) .. وهناك تبين الفتى وشقيقته استحالة الاخلاد الى حياة الاستقرار فى المدينة . وانه لفى حالة الكآبة والانقباض تلك ، التحق باحدى مدارس المدينة . لكنه تركها بعد سنوات ليعمل فى وظيفة كتابية فى شركة لصنع الاحذية .. وقضى فى الشركة عامين ، كان خلالهما ينتهز فرصة الامسيات ليكتب . ثم التحق بجامعة (لووا) فى عام ١٩٣٨، حيث أتم دراسته ، فى نفس الوقت الذى كان فيه يعمل ـ فى أوقات فراغه ـ أعمالا اضافية متباينة الاختلاف والتنويع .

وفى عام ١٩٤٠ ظفر « تنيسى » بمنحة مؤسسة روكفلر ، عن مسرحيته (معركة الملائكة) . ومنذ ذلك الحين كتب عددا كبيرا من المسرحيات ، وبعض القصص والاشعار . وأشهر هذه المسرحيات، التى ظفر أكثرها بشهرة عالمية على المسرح، كما أخرجت فى افلام سينمائية : عربة اسمها اللذة ، وشم الوردة ، قطة على سطح صفيح ساخن ، فجأة فى الصيف الماضى .. الخ .

ويعيش « تنيسى » الآن فى مدينة (نيو اورليانز)

عربة اسمها اللذة !

عرض وتلخيص : الدكتور لويس عوض

بلانش ديبوا امرأة جميلة ، فى الثلاثين من عمرها ، كانت تعمل ، الى عهد قريب ، مدرسة للغة الانجليزية بمدرسة فى مدينة لوريل ، من أعمال الجنوب فى الولايات المتحدة الامريكية ، حتى تركت عملها فى ظروف غامضة ، وانتقلت الى مدينة (نيواورليانز) الكبيرة ، حيث تقيم أختها «ستيللا ديبوا » ، أو على الاصح ستيللا كوفالسكى ، مع زوجها « ستانلى كوفالسكى » فى بيت حقير بحى الفقراء فى المدينة .

وحين تصل بلانش الى البيت تقف أمامه ، حاملة حقيبتها بيد ، وبيدها الاخرى ورقة فيها عنوان البيت ، وتبدو عليها الحيرة ، فينتقل بصرها مرارا من الورقة الى البيت ، ومن البيت الى الورقة . ويبدو مظهرها شاذا فى هذا الوسط الفقير ، فهى على اناقة واضحة ، فى فستان أبيض ناصع ، وجوانتى أبيض ، وقبعة واسعة ثمينة . وقد زينت صدرها

بعقد من اللؤلؤ وأذنيها بقرط من اللؤلؤ . وتظهر فى جمالها الهش كالفراشة حطت فى حقول غير مزهرة .

ولا تجد بلانش عند وصولها أحدا فى البيت ، الا جارة اسمها «يونيس» ، وتلتقى بها يونيس خارج البيت ، وتراها مصدومة حائرة . فتسألها ان كانت قد ضلت طريقها ، فتجيبها بلانش قائلة : « **قالوا لى أن أركب عربة ترام اسمها اللذة ، ثم أغير لترام آخر اسمه الجبانات ، يسير بى ست نواص ، فاصل الى شارع اسمه جنة عدن !** » .. وتعرف بلانش من يونيس انها فعلا فى جنة عدن . انها تبحث عن المنزل رقم ٦٣٢ ، فتقول يونيس : « انه أمامك » . انها تبحث عن اختها ستيللا ديبوا ، تقصد مسز ستانلى كوفالسكى . وهذا من غير شك بيت أختها ، ويونيس خير من يعرف ذلك ، لانها تقيم معها فى هذا البيت الصغير المكون من دورين ، فهى تشغل مع زوجها « ستيف هبل » الدور الاعلى ، بينما تشغل ستيللا وزوجها ستانلى كوفالسكى الدور الاسفل ، وليس بينهما الا سلم داخلى يصل الطابقين .

وتفتح يونيس الباب الخارجى المشترك فتدخل بلانش وتجيل نظرها فى الشقة كالمصعوقة ، فهى لا ترى الا حجرتين تنتهيان بالحمام ، أو على الاصح حجرة واحدة تستعمل للنوم ، اما الحجرة الاولى فهى تستعمل مطبخا ، وقد جهزت بسرير لتنام عليه بلانش عند وصولها . وليس بين الحجرتين باب يفصل بينهما . انها لم تألف هذه الحياة ، فهى قد ربيت مع أختها ستيللا فى أسرة كريمة ، عريقة ، تنحدر من أصل فرنسى ، كانت تملك عزبة كبيرة بها دار فخمة ذات أعمدة جميلة أثيلة ، يعرفها كل من جاورهم من سكان (الميسسبى) باسم « بيل ريف » . وهى لهذا تعجب ان ترضى أختها ستيللا بالعيش فى هذا الوسط الوضيع ..

لقد كانت تحسب أن اختها ستيللا ـ منذ أن غادرت (بيل ريف) لسنوات خلت لتشق طريقها فى الحياة ـ قد تزوجت برجل من طبقتها !

وترحب « يونيس » ببلانش ، قائلة انها طالما سمعت ستيللا تتحدث عنها وعن ضيعتهما « بيل ريف » ، ودارهما ذات الاعمدة ، فتصرفها بلانش قائلة انها مرهقة وتحب أن تخلو بنفسها . وتنطلق يونيس الى مكان ليس ببعيد ، لتبلغ ستيللا وزوجها بمجىء بلانش . أما بلانش فتقبل على المطبخ باحثة عن شىء تشربه ، وتجد زجاجة الويسكى ، فتصب لنفسها كوبا تشربه ، ثم تغسل الكوب فى عناية ، وتجلس بجوار المائدة .

***

وبعد قليل ، تعود ستيللا الى بيتها ، وهى امرأة هادئة تصغر أختها بخمس سنوات ، وتحملق كل من الأختين فى الاخرى لحظة ، ثم تنهض بلانش وتعانق اختها وهى تصيح فى عصبية شديدة : « ستيللا ! ستيللا ! .. يا طفلتى المسكينة ! » .. انهما لم يلتقيا منذ سنوات عديدة ! وتمضى بلانش ترثى لحالها ولحظها القاسى الذى قذف بها لتعيش فى هذا المكان الوضيع . ولا تكف بلانش لحظة عن الكلام ، ثم تعجب لصمت ستيللا ، فتذكرها ستيللا فى هدوء بأنها لا تدع لها فرصة للكلام . ثم تؤكد لها أنها ، على غير ما تعتقد ، تحب زوجها ، وانها راضية بحياتها !

وتفسر بلانش سبب مجيئها بقولها ان الارهاق أخذ منها كل مأخذ ، حتى انهارت أعصابها ، وأوشكت ان تجن ، فنصحها المشرف على المدرسة بأن تأخذ أجازة تستجم فيها .

وتعرف بلانش انها ستنام فى المطبخ ، وتلاحظ انه ليس هناك باب يفصلها عن حجرة نوم أختها ، فتقول ستيللا أن

زوجها ستانلى بولندى، والبولنديون كالايرلنديين لايخجلون بسهولة . وتعرف بلانش ان ستانلى يجتمع أكثر الليالى بأصحابه ليلعبوا الورق فى البيت ، فتقول انها جاءت بثياب جميلة كثيرة لتبدو فى أحسن زينة أمام أصحابها . ولكن ستيللا تجيب بأن بلانش لن تسر كثيرا برؤية أصحاب زوجها ، فهم نماذج من غير من الفت أن تراهم فى بيل ريف ، فهى لن تحتاج الى كل هذه الاناقة بينهم .

وتقول بلانش لاختها ان بيت بيل ريف قد ضاع ، فتبدو الدهشة والاستياء على وجه ستيللا . ولكن بلانش تدافع عن نفسها قائلة ان ستيللا لا يجوز لها أن تبدى كل هذا الجزع على دار كانت هى أول من هجرها . وبعد ان تركت ستيللا بيل ريف وقع كل العبء على كاهل بلانش ، التى جاهدت ما أمكنها ذلك لتحتفظ بميراث الاسرة ، ولتحافظ على تقاليدها . ان ستيللا لا تعرف ان بلانش كابدت وشقيت فى بيل ريف وتحملت العبء كله ، فهى التى دفنت أباها وأمها ثم أختها مرجريت ثم عمتها جيسى . كلهم ذهبوا .. الواحد بعد الآخر، وكانت هى، بلانش، الى جوارهم وهم يحتضرون . أن ستيللا لم تسمعهم وهم يصرخون متشبثين بالحياة : « لا تتركينى أموت . لا تتركينى أموت! » !.. حتى العجائز منهم كانوا يتشبثون بالحياة . أما ستيللا فقد كانت بعيدة عن كل ذلك . . لقد كانت حقا تأتى بانتظام لحضور الجنازات، ولكن الجنازات شىء هادىء ويجلله الصمت وتكثر فيه باقات الزهور . واذا كانت ستيللا لا تعرف ، فيجب أن تعرف أن الموت يكلف مالا كثيرا . ومن أين تأتى بلانش بكل هذا المال . لم يكن بد اذن من الاستدانة ، وقد ضاع البيت وفاء لهذه الديون الكثيرة . ان ستيللا تلومها على ضياع بيل ريف ، وهى التى كانت تنعم بأطيب الاوقات فى أحضان زوجها البولندى،

بينما كانت بلانش تواجه حقائق الحياة والموت فى شجاعة .

وتبكى ستيللا من قسوة هذا الكلام ، وتدخل الحمام لتجفف دموعها وتغسل وجهها . وفى هذه الاثناء يقبل ستانلى كوفالسكى ومعه جاره ستيف وصديقه ميتش ، فتتوارى بلانش فى حجرة النوم ، وتسمع الرجال الثلاثة يتواعدون على لعب البوكر فى المساء التالى . وتسمع ميتش يقول انه يفضل ألا يكون ذلك فى منزله ، لان امه العجوز مريضة جدا ، وهذا يزعجها ، فيقول ستانلى : « اذن فلنلعب فى بيتى بشرط أن تأتوا ومعكم البيرة » . ثم يصعد ستيف الى الدور الاعلى حيث يقيم ، وينصرف ميتش .. وهنا تخرج بلانش وتعرف ستانلى كوفالسكى بنفسها . وتنظر اليه لحظة ، فتجده رجلا متوسط الطول ، متين البنيان ، تبدو الحيوانية الشرهة فى كل قسماته ، والغلظة فى كل حركاته ، والسوقية فى كل كلماته .

ولا يلبث ستانلى ان يقول لبلانش ان العرق يجعل قميصه يلتصق بجسمه ، ويخلع قميصه آمامها دون تحرج . ويبحث عن زجاجة الويسكى ، ويلاحظ مابها من نقص ، فيقول هازئا ان الويسكى يتبخر بسرعة فى أيام الصيف . ثم يسأل بلانش عن حياتها الخاصة . انه سمع من أختها انها كانت متزوجة فى يوم من الايام . فتضطرب بلانش ويصيبها دوار شديد وتجيبه قائلة : « نعم .. كان هذا منذ زمن بعيد ، حين كنت فى السابعة عشرة » . ويلحف ستانلى فى السؤال : « وماذا حدث ؟ » فتجيبه فى اعياء : « أن الفتى الذى تزوجته .. قد مات ! » ثم تسقط برأسها على ذراعها وتغيب فى ذهول ، فينصرف ستانلى للنوم .

***

وفى مساء اليوم التالى تخبر ستيللا زوجها ستانلى انها ستخرج بأختها بلانش للنزهة ، ليخلو البيت له ولاصدقائه فيلعبوا البوكر كما يحبون ، وان بلانش الآن تأخذ حماما ساخنا فى الصيف لتهدىء أعصابها الثائرة . وتبلغ ستيللا زوجها ان دار بيل ريف ضاعت، وهى لاتعرف كيف ضاعت، ولكنها تعتقد انها ضاعت وفاء للديون . وترجو ستيللا ستانلى ان يحسن معاملة أختها ، فلا ينسى أن يطرى جمالها ومظهرها حين يراها ، فهى بنت مرهفة الحس . وهى قد صدمت ، لانها لم تكن تنتظر ان تجدهما فى هذا البيت الصغير الفقير ، فهى لم تألف هذا النوع من الحياه . نعم ، يجب أن يظهر ستانلى اعجابه بأناقة بلانش ، لانها تهتم كثيرا بجمال المظهر .

ويختصر ستانلى الطريق ويقول فى غلظة : « كل هذا حسن . ولكن كيف ضاعت بيل ريف ؟ » ، وترجوه ستيللا أن يرجىء الحديث فى هذا الموضوع حتى تسترد بلانش هدوءها وصحتها . ويعود ستانلى الى جفافه فيقول : «أين عقد البيع ؟ أريد أن ألقى عليه نظرة . » ، فتجيب ستيللا ان بلانش لم تعرض عليها أوراقا . ويصر ستانلى على فحص الاوراق . وحين تقول ستيللا انها تثق فى أختها وأنها لاتكترث بالاوراق ، يقول ستانلى فى خشونة : « هل سمعت بشىء اسمه قوانين نابليون ؟ اذا كنت لاتعرفين ، فيجب أن تعرفى أن قوانين نابليون هى القوانين المعمول بها فى ولاية لويزيانا . وبموجب هذه القوانين ، كل ما تملكه الزوجة يملكه الزوج ، وكل ما يملكه الزوج تملكه الزوجة . »

وتقول ستيللا ان رأسها يدور .. لكن ستانلى يمضى فى غلظته قائلا : « سننتظر اذن حتى تهدأ أعصاب صاحبة

السمو اختك ، ثم نعلمها أحكام قوانين نابليون » . ولكن الذى يبدو واضحا له هو ان أختها نصبت عليها ، ونصبت عليه ، فهو له حق فى كل ما تملكه ستيللا !

وتحتج ستيللا قائلة ان ستانلى بلغ أسخف السخف فى كلامه ، فليس بين أهلها أحد ينصب على أحد . ويسألها ستانلى : « أين اذن المال ، اذا كان البيت قد بيع ؟ » فتجيبه : « انه لم يبع ، بل ضاع .. ضاع ! » ، فينطلق ستانلى الى حقيبة بلانش هائجا ، ويفتحها ويجمع بين ذراعيه عددا كبيرا من الاثواب ، ويصيح : « افتحى عينيك . أنظرى الى كل هذا . أتظنين انها أشترته من مرتب مدرسة ؟ أنظرى الى هذا الرياش ، وهذا الرينار أرجنتيه . » .. ويلقى ستانلى بالثياب على السرير ، ثم يخرج من الحقيبة علبة الجواهر ، ويستخرج منها الاسورة الذهبية وعقود اللؤلؤ وأقراط الماس ، وتاجا من الماس ، وهو يسب ويصخب . وتحاول ستيللا أن تفهمه أن فرو الثعلب كان عند بلانش من زمن طويل ، وان كل ما يراه من لؤلؤ وماس وذهب هو من الحلى « الفالصو » . لكنه يصر على أن زينة بلانش هذه هى التى ابتلعت (بيل ريف) ، وانه سيعرض هذه الاشياء على صديق له خبير بالجواهر ، لتعرف قيمتها الحقيقية . وحين لا تجد ستيللا سبيلا الى اسكاته ، تمضى الى الباب الخارجى وتنتظر به ، منعا للجدل .

وتخرج بلانش من الحمام ، وهى تطفح بشرا وتفيض عطرا . وتلاحظ ان ملابسها موضوعة على السرير ، فيقول ستانلى مفسرا انه أراد ان يعينها على ترتيب أشيائها ، ثم يضيف هازئا : « يبدو انك سطوت على محل أزياء فى باريس ! » فتجيبه بلانش ان الثياب الجميلة هى نقطة ضعفها . ويسألها عن فرو الثعلب فتقول انه هدية من معجب ، أيام ان كان

جمالها يستحق الاعجاب . اما الآن ، فمن ذا الذى يظن انها كانت جميلة فى يوم من الايام ! .. فيقول ستانلى – كالتيس – أن منظرها لا غبار عليه . فتضحك بلانش وتقول انها كانت تتصيد منه الاطراء . فيجيب بقوله ان النساء تافهات مغرورات، لا عمل لهن الا تصيد الاطراء من الرجال . أما هو ، فانه لا يكترث لهذه الفتنة التى تضحك بها النساء على الرجال . وهو لا يهتم الا بالمرأة التى تكشف كل أوراقها وتعامله بصراحة . فتقول بلانش متملقة انها فهمته فى أول لحظة رأته فيها ، فقالت لنفسها أن أختها قد تزوجت رجلا .

وتعود ستيللا ، ويعود ستانلى كوفالسكى الى قصة المرأة التى يجب أن تكشف كل أوراقها . فتكف بلانش عن المراوغة وتقول انها مستعدة للاجابة عن كل سؤال . ويذكرها ستانلى بقوانين نابليون المتبعة فى ولاية لويزيانا ويضيف : « أين الاوراق ؟ أهى فى الحقيبة ؟ » فتجيبه : « أن كل ما أملك موجود فى الحقيبة . »

ويهجم ستانلى على الحقيبة ، ويذهب ينبش فيها بحثا عن الاوراق ، فتغضب بلانش وتصيح به : « ماهذا الذى تفعل ، أتظن انى أخفى عن أختى شيئا ؟ دعنى آتيك بالاوراق ، فهذا أبسط وأسرع . »

وتخرج بلانش من الحقيبة صندوقا من الصفيح وتفتحه . ويلمح ستانلى ربطة من الاوراق فى الحقيبة ، ويسألها عنها فتقول انها خطابات غرامية ، فيخطف الرابطة . وتصرخ فيه بلانش فى حدة : « هات هذه الرسائل ! » .. ولكن ستانلى يصر على فحصها أولا ، فتصرخ فيه قائلة : « انك تلوثها بلمسها » ، ولا يكترث بكلامها ، ويذهب يتصفحها . وتتناثر من يده الاوراق على الارض . فتجمعها بلانش قائلة :

« سأحرقها مادمت قد لوثتها بيدك ونظرك ! » . ويسألها ستانلى ، ذاهلا ، عن مضمون هذه الاوراق ، فتجيبه : « انها قصائد كتبها فتى صغير . كتبها زوجى . وقد مات . وأنا أسأت اليه كما تريد أنت الآن أن تسىء الى . ولكنك لن تدفعنى كما دفعته أنا الى .. أنا لم أعد صغيرة ، ولم يعد من السهل جرحى ! »

وتوشك أن يغمى عليها ، ولكنها تتمالك قواها وتجلس ، وتقول : « معذرة ، ان لكل منا أشياء خاصة لا يحب أن يطلع عليها الغير . لقد فقدت صوابى لحظة » .. ثم تناوله أوراقا من الصندوق الصفيح تحمل اسم « شركة امبلر وامبلر للرهونات » . نعم ، هذه هى الشركة التى أقرضتها المال ، وارتهنت دار بيل ريف ، ثم استولت عليها حين عجزت عن السداد ، ويسألها فى غلظة عن بقية الاوراق ، فتسلمه مجموعة ضخمة منها ، وهى تصيح : « هذا كل ما تبقى من بيل ريف . تاريخ مئات السنين تحول الى أوراق ضاعت جزءا جزءا . اضاعها اجدادنا فى ملاحم النكاح والصبوات . هذه هى الصراحة . لقد اضاعت عزتنا كلمة من ثلاثة احرف ! .. أسأل ستيللا عن التفاصيل . وكل ما ورثناه منها البيت وعشرون فدانا والمقبرة التى تضم رميم كل آل ديبوا ما عدا ستيللا وأنا . اليك بالاوراق . أدرسها . احفظها عن ظهر قلب . من حسن حظ بيل ريف أن يقع مصيرها بين يديك القادرتين . »

ويقول ستانلى أن قوانين نابليون تخول له أن يرعى شئون زوجته المالية ، سيما وان ستيللا حامل .

وتعود ستيللا ، فتهنئها بلانش على انها تنتظر مولودا . وتعتذر ستيللا لبلانش عن فظاظة زوجها ، فتقول بلانش :

« الآن وقد فقدنا بيل ريف فلعله ينفعنا أن يختلط دم الاسرة بدم رجل مثل ستانلى كوفالسكى . »

وتنصرف ستيللا وبلانش للنزهة . ويقبل الضيوف واحدا بعد الآخر ، فهذه ليلة البوكر .

***

يقبل الجار « ستيف » وصديق العمل « ميتش » ثم « بابلو جونزاليس » ، وكلهم فى قمصان سوقيةالالوان . ويضعون على المائدة زجاجة من الويسكى ويمضون فى اللعب . وبعد قليل ينذر ميتش الجماعة انه لن يفرط فى السهر معهم ، لان له أما مريضة ، وهى لا تنام قبل عودته . انهم متزوجون ومعهم زوجاتهم ، أما هو فسيبقى وحيدا فى الحياة حتى تموت أمه . ويعيره ستانلى بأنه لا يزال بحاجة الى « بزازة » !

وبعد قليل تعود ستيللا وبلانش من السينما . ولما تقترب منهم بلانش تقول للرجال بلهجة السيدات الكرائم : «ارجوكم لا تقفوا » ، فيقول ستانلى هازئا : « اطمئنى .. لن يقف لك أحد ! » ، ولكن ميتش هو الوحيد الذى يعامل بلانش باحترام ، فيلفت هذا نظر بلانش اليه ، وتذهب تجمع من اختهـا المعلومات عنه وهما على حدة . كلا ، انه ليس متزوجا . كلا ، انه ليس زير نساء . نعم ، هو زميل ستانلى، وهو يعمل فى ضبط الادوات بالمصنع فى قسم قطع الغيار . ويعلو حديث الاختين وضحكهما ، فيغتاظ ستانلى ، لان الضجة تفسد عليه لعبة البوكر ، فيأمرهما بالسكوت — فى هياج — وقد امتلأت شرايينه بالويسكى . فتسكت الاختان قليلا ثم تمضى بلانش الى الراديو وتفتحه فتسمع منه موسيقى الرومبا . وتطرب الجماعة للموسيقى ، ما عدا

ستانلى الذى بدأ يفقد أعصابه من الشراب ومن الخسارة فى البوكر . ويصيح ستانلى : « اقفليه » . ولكن بلانش لا تتحرك من مقعدها ، فينهض ستانلى ويقفل الراديو فى عصبية ، ويعود الى مكانه .

ويأنس ميتش للحديث مع بلانش فلا يلقى بالا للعب ، بل يذهب يتجاذب معها اطراف الحديث، وتطلب بلانش سيجارة فيريها ميتش علبة سجائره الفضية . وتقلبها بلانش معجبة فتقرأ عليها نقشا يقول : **« ولو أراد الله لزاد حبى لك .. بعد الموت ! »** ، وهو بيت من شعر « اليزابيث براوننج » . ويقول ميتش ان البنت التى أهدته العلبة قد ماتت ، وانه حزن لموتها حزنا شديدا ، فتقول بلانش ان الاحزان تطهر



لوحة للرسام « توماس هارت بنتون » تمثل مشهدا من المسرحية ، وتقتنى هذه اللوحة ـ ضمن مجموعة كبيرة ـ السيدة « ايرين ماير سلزنيك » ، منتجة المسرحية عند تمثيلها على مسارح نيويورك

النفوس . وتفتح بلانش الراديو مرة أخرى فيسمع منه فالس جميل ترقص عليه بلانش بمفردها ، ويجاريها ميتش وهو فى سعادة قصوى . ولكن ستانلى يثور حنقا ، ويندفع الى الراديو ، فيرفعه ، ويقذف به من النافذة !

وتعنفه ستيللا غاضبة ، وهى تصيح : « أنت سكران .. أنت سكران ! .. هيا انصرفوا جميعا . ان كانت بكم بقية من كرامة ، فارجوكم أن تنصرفوا . ! »

ويهجم ستانلى على ستيللا قاصدا ضربها .. وتصيح بلانش قائلة : « ان اختى حامل » . ويهدىء الرجال من ثائرته ، وتتفاداه ستيللا ثم تتوارى فى المطبخ ، ولكن ستانلى الهائج يتبعها ويلكمها ، فتصرخ بلانش .. ويتجمهر الرجال على ستانلى ، ويدفعونه دفعا الى حجرة النوم . ويتهافت ستانلى على الفراش ، بعد أن كان يقاوم مقاومة عنيفة . وتصرخ ستيللا : « اريد أن أرحل ! أريد أن أرحل ! » ويقول ميتش : « هذا فظيع ! هذا فظيع ! ان البوكر لا يلعب فى بيت فيه نساء . » وتجمع بلانش ملابس اختها وتصعد معها الى شقة يونيس فى الدور الاعلى . ويضع الرجال ستانلى تحت « الدوش » حتى يفيق ثم ينصرفون ، كل بما كسب . ويجأر ستانلى بالصياح قائلا : « ستيللا يا حبيبتى ! .. عودى الى يا حبيبتى ! يونيس ! يونيس ! ردى على يا حبيبتى ! » وتجيبه يونيس : « كفى نباحا ونم .. » ويعود ستانلى الى الصياح : « ستيللا ! ستيللا ! يا حبيبتى ! عودى الى يا حبيبتى . » ، فتجيبه يونيس مرة أخرى : « انها لن تعود ، فكف عن الصياح ، والا ناديت البوليس . »

ولكن ستانلى لا يكف عن الصياح ، وهو يبكى بكاء الاطفال : « ستيللا ! ستيللا ! عودى يا ستيللا ! » .. ويصعد السلم ، ويدق بكلتا يديه باب يونيس ، وهو لا يكف عن

النداء بأعلى صوته. **وأخيرا يفتح الباب وتخرج منه ستيللا ، والدموع تبرق فى عينيها ، وشعرها محلول على كتفيها ، ويحملق كل منهما فى الآخر لحظة ، ثم يمضيان نحو غرفة النوم ، وهما يئنان أنينا خفيضا كأنين الحيوان ، ويركع ستانلى أمامها ، ويلصق خده ببطنها ، فيشيع فى جسدها حنان قوى ، وينهض ويحملها على ذراعيه الى الغرفة المظلمة ، ويجذب الستار الذى يفصلهما عن المطبخ الكبير .**

ويعود ميتش ليطمئن على ما يجرى فيجد بلانش ذاهلة من هذا الذى رأت . ان اختها ستيللا دخلت مع زوجها حجرة النوم بعدكل الذى فعل! ؟ انها لم تألف هذه الاشياء !

ويشرح لها ميتش أن هذه عاصفة فى فنجان ، ولكنها لا تفيق من دهشتها . ويخرج ميتش الى الهواء ، لتدخن معه سيجارة تهدىء بها أعصابها .

***

وفى صباح اليوم التالى تنهض ستيللا من نوم عميق مريح ، وقد تلألأ وجهها بضياء الراحة والسعادة ، أما بلانش فقد قضت ليلة ساهدة ، لم تذق فيها طعم النوم .. بينما خرج ستانلى ليصلح الراديو ، وليشحم السيارة .

ويدور بين الاختين حديث يبدأ هادئا ثم يعنف. ان ستيللا كانت مجنونة لانها عادت الى زوجها ـ بل لعلها استسلمت له ـ بعد أن ضربها ! وتعتذر ستيللا لاختها عما كان من ازعاج لها فى الليلة السابقة . ولكنها تجد أن بلانش تهول فى الامر ، وهى تفهم هذا ، فقد كانت بلانش دائما بنتا عصبية . انها لا تقر ما فعله زوجها ، ولكنها لا ترى داعيا للمبالغة فى الامور . فالرجال حين يشربون يميلون الى الشجار ، ومنهم من يحطم كل ما تقع عليه يده . وستانلى من هذا النوع .

وهى تذكر كيف انه ، ليلة الزواج ، تناول حذاءها ، وذهب يكسر كل اللمبات الكهربائية بكعبه ، وهو قد اعتذر لها فى



الممثلة العالمية « فيفيان لى » كما تبدو فى دور « بلانش ديبوا » ، فى فيلم « عربة اسمها اللذة » الذى اقتبس عن المسرحية .

الليلة السابقة بما فيه الكفاية ، فلا ضرورة اذن للتهويل فى الامر كما تفعل بلانش .

أما بلانش فتصر على أن ستيللا متزوجة من مجنون ، وانه لا بد من ايجاد مخرج لهما . فلا يجب أن تبقى هى أو أختها ، لحظة واحدة ، تحت سقف هذا الوضيع الذى يضرب زوجته ! وبلانش تعرف طريقا ، فستيللا لا شك تذكر صديق الاسرة الفتى « شب هنتلى » .. انه الآن من اصحاب الملايين فى تكساس ، يملك ابار البترول التى تتجشأ الذهب فى جيبه ، وهى قد التقت به فى «الكريسماس» الماضى ، وفى استطاعتهما أن يقصدا اليه ، فيعينهما بفتح محل تجارى لهما . ان قلبها يتفطر لسوء حالة أختها ستيللا ، ولسوف تنقذها وتنقذ نفسها من هذا الجحيم الذى تعيشان فيه .

وتهم بلانش فعلا بارسال برقية الى شب هنتلى تعلن قدومها ، ولكن ستيللا تمنعها من ذلك قائلة انها لا تعيش فى جحيم كما تتوهم بلانش ، بل على العكس من ذلك فهى سعيدة مع زوجها . وتجيبها بلانش قائلة انها لا تتحدث عن السعادة بل تتحدث عن اللذة ، اللذة الصاخبة التى تصخب حتى تصم آذانها ، كما تصخب عربة الترام ـ تلك التى يسمونها « اللذة » ـ فى شوارع مدينتها الضيقة . وحقيقة الامر أن زوجها حيوان ، مجرد حيوان ، انه رجل من العصر الحجرى ، يخرج كل يوم للصيد ، وفى المساء يعود اليها ليضربها ويقبلها ، ويحملها الى مغارة من تلك المغارات المظلمة ، التى لا تختلف كثيرا عن حجرة نومها . ولكن ستيللا تنسى ان العالم قد تقدم ، وان فيه شيئا اسمه الشعر ، والموسيقى ، وكل ما هو جميل ، ورقيق ..

ويعود ستانلى الى بيته ، ويلتقى ببلانش متجاهلا ما

حدث . ولكنه يحدجها بنظرات شك واضحة ، ويسألها قائلا : « اتعرفين رجلا اسمه شو ؟ » فترتبك بلانش قليلا ، ولكنها تتمالك نفسها وتجيب : « ليس هناك أحد لا يعرف رجلا باسم شو » . فيمضى ستانلى فى كلامه قائلا : « ان شو هذا يعتقد انه قابلك فى مدينة لوريل . لا شك ان الامر اختلط عليه ، فهو يقول انه قابلك فى فندق (فلامنجو) ، وهو فندق سىء السمعة . انه يذهب يوميا الى لوريل ، لتصريف منتجات الشركة ، وفى امكانه التحقق من الامر . »

***

وبعد أن ينصرف ستانلى يعود الاضطراب الى بلانش وترتجف يداها . وتراها ستيللا على هذه الحال فتسألها عما بها . فتقول بلانش فى شبه هذيان : « هل سمعت أحدا يخوض فى سيرتى ؟ ماذا يثرثر الناس عنى ؟ » وتنفى ستيللا عاجبة أنها سمعت احدا يذكرها بسوء . فتقول بلانش انها لم تكن مثالية السلوك فى السنتين الاخيرتين ، بعد ان ضاعت (بيل ريف) . لقد كانت فى الماضى ضعيفة ، وكان جمالها مصدر قوة لها . أما الآن فجمالها يذبل ، وقد جاوزت الثلاثين !

وتسرع بلانش الى الشراب فتخلط لها ستيللا الويسكى بالكوكاكولا لتهدئها . ولكن بلانش تظل على حالتها العصبية وتقول : « ان ميتش قادم فى الساعة السابعة . وأنا لم أعطه شيئا الا قبلة وداع . أنا أريده أن يحترمنى ، انه لا يعرف حقيقة سنى . أنا متعبة .. متعبة جدا . وأريد أن أستريح ، ولو تزوجنى لانتهت مشاكلى ومشاكلكم . »

وتقول ستيللا لبلانش مشجعة ان أمنيتها ستتحقق ، وتحذرها من الافراط فى الشراب ، ثم تنصرف للقاء زوجها

فى الخارج . ولكن بلانش تبادر الى زجاجة الويسكى وتشرب منها بيد مرتعشة . ان ميتش هو أملها الاخير .. ولو ضاع منها ميتش ، فما أبأسها .. ! ترى ماذا يكون مصيرها ؟ هل تعود الى مدينة (لوريل) ؟

ويقبل فتى حديث السن ويضرب الجرس فتفتح له الباب . انه محصل جريدة « الايفننج ستار » . وحين تقع عينها عليه تتوه فى الذكريات البعيدة ، وتذكر زوجها الذى مات وهو بعد دون العشرين . وتعتذر له بأن ربة البيت قد خرجت ، فيجيب : « لا بأس اذن . سأعود فى وقت آخر » . ويهم بالانصراف ، فتدعوه اليها كأن مغناطيسا يجذبها اليه قائلة : « ايها الفتى ! أما سمعت أحدا يقول لك انك تشبه أميرا صغيرا فى ألف ليلة وليلة ؟ »

ويضحك الفتى ويحمر وجهه خجلا ، فتقول له بلانش : « تعال .. أريد أن أقبلك . قبلة واحدة رقيقة على فمك . »

وقبل أن يتنبه الفتى تقبله بلانش قبلة واحدة رقيقة على فمه ثم تقول : « هيا انصرف .. انصرف بسرعة .. فلا ينبغى أن أتعرض للاطفال .. » ويحملق الفتى فيها ذاهلا ، ثم ينصرف وهى تتبعه بنظرات غريبة زائغة .

وما ان يختفى حتى يظهر ميتش عند المنعطف حاملا باقة من الورد ، فتطرب لرؤياه . وحين يصل تقول له فى بهجة : « يا فارسى ! انحن اولا ثم قدم لى ورودك . »

***

وتخرج بلانش وميتش لقضاء المساء فى الملاهى . ويعودان بعد الساعة الثانية صباحا ، فيجدان ان ستانلى وستيللا لم يعودا بعد من نزهتهما . ويتضح من هيئة بلانش وميتش ، ومن كلامهما ، انهما لم يقضيا مساء موفقا ، فقد كانا مكتئبين

أكثر الوقت. واجتهدت بلانش أن تتكلف المرح طوال المساء، لكن شخصيتها النورستينية كانت دائما تغلبها . وكان هو



بلانش ديبوا (فيفيان لى) في موقف رائع من الفيلم ، تبدو فيه ساهمة النظرات ، وقد حطمها اليأس ، وبدأ يذهب بعقلها ..

يحاول تقبيلها ، ولكنها كانت ترده ، لخشيتها من توغله فيما بعد القبل .

وتدعو بلانش ميتش للدخول ، الى ان تعود اختها وزوجها ، فيدخل . وتأتيه بشىء من الويسكى لينبسط انقباضه . ولا يجدان ما يتحدثان فيه ، فيذهب يحدثها عن وزنه وعن وزنها . ويعلم منها انها لم تعد موضع ترحيب فى بيت أختها ، وانها ، لهذا ، سترحل عنه قريبا . انها تمقت هذا البيت وتمقت ستانلى . انها منذ أن وقعت عينها عليه وهى تعتقد انه جلادها .. انه محطم حياتها . انها تعلم انه يمقتها من صميم قلبه ، ولا يجد سبيلا الى اهانتها الا وسلكه .

ويجمع ميتش قواه ويسألها فجأة عن عمرها ، فترتجف وتقول : « وفيم هذا السؤال ؟ » فيقول ميتش : « لانى تحدثت مع أمى عنك فسألتنى : « كم عمر بلانش ؟ » ، ولم أعرف بماذا أجيب . » نعم ، انه تحدث مع أمه عن بلانش وقال لها انها بنت لطيفة وانه يأنس اليها كثيرا . وأمه المريضة تعرف انها لن تعيش أكثر من شهور معدودة ، وهى لهذا تحب له أن يتزوج ، قبل أن ترحل هى عن الحياة . وهذا سر اهتمامها بعمر بلانش .

ان بلانش تفهمه حق الفهم . انه رجل مخلص ، متفان فى الاخلاص . وحين تموت أمه سيعيش فى وحدة قاتلة . انها تفهمه لانها تعرف معنى الوحدة القاتلة . فقد أحبت هى أيضا شخصا ما ، أحبته حب العبادة ، ثم فقدته . ومنذ ذلك اليوم وهى تعيش فى وحدة قاتلة . وتستعين بلانش بكأس آخر من الويسكى لتهدىء أعصابها ، ثم تمضى فى سردها فتقول لميتش : « كان غلاما صغيرا ، وكنت بنتا صغيرة . فحين كنت فى السادسة عشرة اكتشفت الحب ..

اكتشفته فجأة ، وفى اكتماله وتمامه .. كأن أنوارا كشافة تغشى الابصار سقطت على شىء كان دائما نصف محجوب فى الظلال .. وكنت سيئة الحظ . فقد كان الفتى مختلفا عن غيره من الفتيان .. كانت فيه عصبية ورقة وحنان ليست من صفات الرجال ، وان كان أبعد ما يكون عن التخنث .. وجاءنى يطلب العون . ولم أكن أعرف انه ينتظر منى العون . لم أعرف ذلك الا بعد زواجنا .. بعد ان هربنا وعدنا .. وكان كل ما عرفته اننى عجزت عن مساعدته فى شىء غامض ، وفشلت فى اعطائه العون الذى كان يحتاج اليه والذى كان يعجز عن الافصاح عنه . كان كمن تسوخ قدماه فى الرمال المتحركة وقد تشبث بى طالبا النجدة . غير انى بدلا من أن أجذبه كنت أسوخ معه فى الرمال . ولكنى لم أعرف ذلك وقتئذ . وكل ما كنت أعرفه انى أحببته حبا لا يطاق .. ثم اكتشفت الحقيقة فى أبشع صورها . فذات يوم دخلت فجأة غرفة كنت أحسبها خالية .. فوجدت فيها هذا الغلام الذى تزوجته ، ومعه رجل يكبره سنا ، كان صديقه من سنوات . لكنى تظاهرت بأنى لم أكتشف شيئا . وخرجنا ، ثلاثتنا ، فى سيارة الى كازينو (مون ليك) ، ونحن فى حالة سكر شديد ، نضحك طول الطريق . ورقصنا رقصة « البولكا » .. وفى منتصف الرقص لم أملك نفسى فجأة فعيرته بما فعل . وانفلت الغلام منى وخرج من الكازينو .. وبعد لحظات سمعنا طلقة ! » .. وهكذا انتحر زوجها ! .. وجرت هى لترى ما الخبر ، ولكن الناس منعوها من الاقتراب من جثته . وهى منذ ذلك الوقت تعيش فى وحدة قاتلة .. تعرف مئات الناس ولكنها تعيش فى وحدة قاتلة !

ويهدئها ميتش قائلا انه بحاجة اليها وانها بحاجة اليه .

فهل تقبله زوجا . فتتمتم بلانش قائلة : « ان الله يكون أحيانا أقرب الينا من حبل الوريد ! »

***

وفى اليوم التالى يدخل ستانلى كوفالسكى فيجد زوجته ستيللا ترتب الشموع لعيد ميلاد بلانش ، فيقول هازئا : « لقد اكتشفتها ! لقد اكتشفتها ! » .. انه تحقق الآن من كل شىء . تحقق من أن اختها أفاقة من أعظم طراز وكذابة من الدرجة الاولى ، فالكذبة الاولى انها تمثل أمام ميتش دور المرأة الطاهرة التى يخدشها مر النسيم ، والعذراء التى لم يقبلها رجل ، والحقيقة التى جاء بها صاحبه « شو » من مدينة لوريل ، انها كانت تعيش فى فندق فلامنجو الذى لا يسأل فيه نزيل عن شىء يفعله ، وان كل أهل المدينة يعرفونها ، بل ويشيرون اليها بالاصابع ويسمونها « المجنونة » . والكذبة الثانية هى انها تقول انها راجعة الى مدرستها فى لوريل ، وهى تعلم تماما انها طردت من عملها ، لانهم اتهموها باغواء فتى فى السابعة عشرة ، بعد أن اشتكاها ابوه لناظر المدرسة !

وتدافع ستيلا عن أختها بحرارة ، قائلة انها لاتصدق كلمة واحدة من هذه الوشايات ! .. وتمضى فى ترتيب الشموع ، وهى تتحدث عن زيارة ميتش المنتظرة ، فيقاطعها ستانلى قائلا انه من الخير الا تنتظر ميتش . ان ميتش صديقه وزميله فى العمل وهو لن يقوى على مواجهته اذا اكتشف هذه الحقائق بعد فوات الاوان . وهو لذا قد اطلعه على كل شىء حتى يكون على بينة من أمره ، بل أكثر من ذلك ان ستانلى قد اشترى لبلانش تذكرة سفر الى لوريل ، فهى لا بد أن ترحل بعد يومين !

وينصرف ستانلي ، بعد ان أفرغ كل ما فى جعبتـه من وشايات ! .. ويسقط فى يد ستيللا حين تسمع هذا الكلام ، وتلزم مكانها كالمصعوقة . وحين تقبل عليها بلانش متهللة فى انتظار ميتش ، ترى وجهها فى شحوب الموتى ، فتستفسر عن الخبر فى انزعاج شديد، ولكن ستيللا تمضى فى ترتيب المائدة ، متظاهرة بأن كل شيء على مايرام .

وبعد ساعة يجتمع ثلاثتهم حول مائدة الطعام ، ويحتفلون بعيد ميلاد بلانش احتفالا غريبا : فستيللا تبتسم فى وجوم وفى عينيها عبرة معلقة لا تريد أن تفيض ولا تريد أن تنهمر . وبلانش يبدو عليهـا القلق الشـديد لعـدم مجيء ميتش ، وستانلى لايكف عن العبارات الموجعة يكيلها لبلانش . وبعد العشـاء يقول سـتانلي ان لديه هدية يريد أن يقـدمها الى بلانش ، بمناسبة هـذا العيد . ويخرج من جيبـه تذكرة السفر الى (لوريل) ويقدمها اليها ! .. ولا تحتمل التعسة هـذا الموقف ، فتجرى الى الحمـام لتنتحب فى خلوة ، أما ستيللا الفاضبة فيصيبها دوار ، وقبل أن يثقل عليها الالم تقول لستانلى : « انقلنى الى المستشـفى » .. لقـد جاءها المخاض .

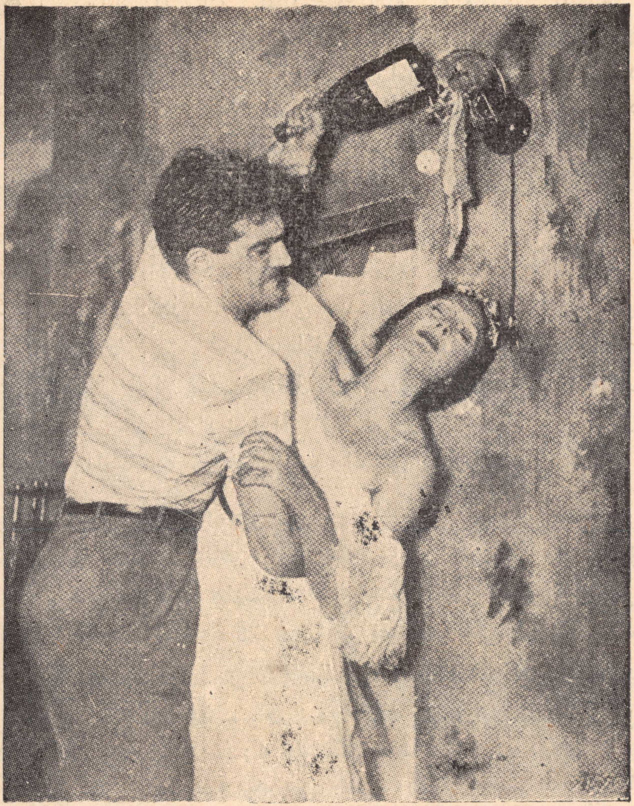
***

ويعود ستانلى بعد أن نقل ستيللا الى المستشفى . يعود ليجد ان ميتش قد جاء ليعنف بلانش ثم مضى ، وان بلانش قد عرفت انه قد دمر حياتها ، أو مابقى من حياتها . ويجد ستانلى بلانش قد أفرطت فى الشراب بعد انصراف ميتش . وتسأله بلانش عن صحة سـتيللا فيجيبها بأنها فى صـحة جيدة . وتسأله عن الطفل فيقول انه لن يولد حتى الصباح . وتنتبه بلانش الى انها وحيدة مع سـتانلى ، فترتجف ..

ويتنبه ستانلى الى انه وحيد مع بلانش ، فيمضى الى غرفة النوم ويلبس بيجامته الحريرية ، ثم يقول انه لم يلبس هذه البيجاما منذ ليلة زفافه، وهو يلبسها الليلة احتفالا بالمولود.

وتصطنع بلانش أولا عدم الاكتراث وتذهب تتحدث عن صديقها المليونير شبلى الذى سيضيفها ويحترمها لانه يحبها حبا افلاطونيا .. انه جنتلمان ، انه يحترم عقلها وثقافتها ، أما هنا فهى تلقى دررها أمام الخنازير . وينظر اليها ستانلى فتقرأ الشبق الجائع فى نظراته . انه لايفتأ يعيرها - مستهزئا - بكل هذا الذى سمعه عنها . انه ينظر اليها نظرته الى بغى . وتحاول بلانش أن تتجنبه ، ولكنه يدنو منها ، وترى فى عينيه نظرات وحش مفترس . انه ليس بالابله ليستمع لاحاديثها الزائفة عن شعر الحياة وموسيقاها ومعانيها السامية . انه يعرف ماضيها فى (لوريل) !

وتسعى بلانش للخروج ، وتراه يعترض طريقها - أو يخيل لها ذلك - **فتأمره بأن يبتعد عن طريقها .. فتلتهب فيه الرغبة ، ويدنو منها ، فتتراجع بلانش حتى تبلغ غرفة النوم ، وتجد زجاجة فترفعها ثم تحطمها على المائدة وتشهر رأس الزجاجة المكسور صائحة انها ستدافع عن نفسها ، وتتراجع الى الغرفة .. فيتبعها كأنه يتبع قنيصة ويقول : ((مادمت تطلبين العنف ، فليكن عنفا !)) ، ثم يهجم عليها ويقبض على معصمها بيد من حديد حتى تسقط من يدها الزجاجة . وتسقط بلانش متهافتة على الارض ، فيحملها ستانلى على ذراعيه ويتجه نحو الفراش قائلا : ((هذا الموعد ضربناه منذ اليوم الأول)) .**



« أيتها النمرة .. أيتها النمرة .. دعى هذه الزجاجة ! »
(النجمة الفرنسية « أرليتى » ، والنجم « ايف فنسان » ، كما مثلا
دوري « بلانش » و « ستانلى » على المسرح الفرنسى ، بعد أن أعدها
له الاديب الفرنسى الكبير « جان كوكتو »)



« هذا الموعد ضربناه منذ اليوم الاول ! »

(« مارلون براندو » فى دور « ستانلى » ، ونجمة المسرح « جسيكا تاندى » فى دور « بلانش » ، كما مثلا المسرحية على مسارح نيويورك)

***

وتعود ستيللا مع وليدها من المستشفى فتجد أن بلانش قد انهارت تماما ! .. انها لم تعد تأكل زادا ، ولا تكف عن الشراب ، وهى تحدثها عن شىء فظيع جرى بينها وبين ستانلى ليلة دخولها المستشفى ! .. ان حديثها قد غدا كالهذيان المستمر ، ولابد من حل عاجل لانها فى كل يوم تسوء عنها فى سابقه ! .. ان ستيللا لا تدرى أتصدق ما تقوله بلانش عن ستانلى أم تعده ضربا من هذيانها . انها لن تطيق الحياة مع ستانلى بعد ذلك ان كان هذا صحيحا . وتميل عليها جارتها يونيس قائلة : « لا تصدقى شيئا مما سمعت ، فلابد ان تجرى الحياة مجراها . ومهما حدث حولك من أشياء ، فلا بد ان تثابرى على الحياة . »

وبعد قليل يأتى طبيب الامراض العقلية ومعه الممرضة تحمل « الكاميزول » ، احتياطا للطوارىء . وتقاوم بلانش فى أول الامر ، ولكن الطبيب العجوز يقول فى رفق واحترام : « لا تجزعى يا آنسة ديبوا ! » ، فتحملق فيه بلانش ، وتأنس الى أدبه الجم . ان هذا السيد الغريب يناديها باحترام قائلا : « يا آنسة ديبوا ! » .. انه لا شك فارس شهم ، جاء لينقذها من الجحيم الذى تعيش فيه . وتهش له بلانش وتقول فى صوت تشيع فيه الراحة : « لقد اعتمدت دائما على كرم الغرباء . »

وتعتمد على ذراعه ، وتخرج معه فى هدوء .. تتبعهما الممرضة .



حياة واعترافات الإمام الغزالي

تلخيص : عبد الجليل حسن

الغزالى فى سطور

• **ولد** أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالى عام ٤٥٠ هـ - (١٠٥٩ م) - ببلدة (طوس) من أعمال خراسان . وهو من أصل فارسى .

• **توفى** بطوس فى ١٤ جمادى الآخرة عام ٥٠٥ هـ - (١٨ ديسمبر عام ١١١١ م) .

• **قدره** كثير من المستشرقين، وألفوا كثيرا من كتبهم عن حياته وأعماله . ومن بينهم المستشرق الالمانى « وستنفيلد » والمستشرق الانجليزى « ماكدونالد » .

• **قال** عنه المستشرق الالمانى الدكتور زويمر : « كل باحث فى تاريخ الاسلام ، يلتقى بأربعة من أولئك الفطاحل العظام وهم محمد (النبى) ، والبخارى، والاشعرى، والغزالى»

• **قال** عنه المستشرق ماكدونالد : « ان الغزالى لم يكن كشافا ، ولا أول من سلك الطريق ، واهتدى الى النجد ، ولكنه كان رجلا كبير الشخصية ، شديد التأثير النفسى ، نهج سبيلا مطروقة فجعلها مشرعا عاما ومحجة واضحة ، وهذامن فضل شخصيته وقوة خلقه . »

من اقوال الغزالى

• الشكوك هى الموصلة الى الحق ، فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال .

من كتابه (ميزان العمل)

• الحياة محبة وعبادة

• اطرح المذاهب ، فليس مع واحد منهم معجزة يترجح

بها جانبه . فاطلب الحق بطريق النظر ، لتكون صاحب مذهب ، ولا تكن فى صورة أعمى مقلد ، وانما خذ الحق أينما وجدته ، وفى أى ناحية كان ، وأطلب الحق بالنظر لا بالتقليد - فالحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أينما وجدها .

- الطلاق ايذاء ، ولا يباح للرجل ايذاء المرأة الا بجناية من جانبها .
- من الخطأ أن يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن ، وترك التدبير بالقلب ، والسقوط على الارض كالخرقة الملقاة وكاللحم على الوضم ، فهذا ظن الجهال .
- أروع الناس وأتقاهم ، وأعلمهم ، من لا ينظر الناس كلهم اليه بعين واحدة ، بل بعضهم بعين الرضا ، وبعضهم بعين السخط .

من (احياء علوم الدين)

الغزالى : الباحث عن الحقيقة

بداية الطريق

كان أشهر أستاذ بالمدرسة النظامية ببغداد . وكان الطلاب يقبلون على دروسه من جميع انحاء العالم العربى !

وماذا يبتغى شاب فقير من الحياة بعد هذه الشهرة العريضة ، والحظوة عند ((السلطان)) ، الذى ولاه التدريس بمدرسته بعد أن قهر العلماء ، وبز الفقهاء ، ولم يكن هناك من يقدر على منازعته مكانته وعلمه الغزير ؟ ! .. **ولكن الاستاذ أحس فى داخله بأن كل هذا المجد زيف وباطل ،** فماذا يكسب اذا ربح العالم وخسر نفسه ؟ وماذا تغنى عنه دنياه اذا خسر آخرته ؟ .. لابد أن يراجع نفسه ومعتقداته وعلمه . هل هو سائر فى الطريق الصحيحة ؟ وهل هو واثق من علمه تمام

الثقة ، بحيث لا يتطرق الى ما يعرف أدنى ريب ؟ وهل يؤمن بما تؤديه اليه حواسه ؟ - ونحن نعلم أن الحواس خداعة ، فالنجوم على ضخامتها فى السماء تبدو كالدنانير !

لا .. انه لن يركن الى الحس ، فشهادة العقل تكذبه ، ولكن العقل أيضا لا يطمأن اليه الا اذا كان ما يقرره شيئا واضحا ، بينا بذاته ، بحيث لا يمكن له أن يتناقض مع نفسه قط ، كأربعة وخمسة تنتجان تسعة . ولكن مثل هذه الحقائق الجلية قليلة . ويا لضيعة حياتنا اذا لم تقم على مثل هذه الحقائق الصلبة !

ولكن ما نعده صادقا معقولا قد يكون كذلك أمامنا فقط فى هذا الوجود . ولعل هناك حياة أخرى تقف حياتنا أمامها كالسراب الضائع . ألسنا نجزم أثناء احلامنا بأن الحياة فى منامنا واقعية ؟ .. لعلنا كذلك نعيش فى حلم طويل . من يدرى ؟

رباه !.. أين الحقيقة ؟ اننى الآن امام من أئمة المسلمين . فماذا يكون حالى لو اننى نشأت فى أسرة مسيحية ؟ لا ريب أننى كنت أكون مسيحيا . وما قصدى من التدريس ؟ أليس هو الجاه وذيوع الصيت ؟ **ان نيتى فى عملى اذن ليست خالصة لوجه الله . فلابد أن أجد نفسى لأنجو بها ..**

دعك يا أبا حامد من هذا الزخرف الذى تحيط به نفسك ، لكى تعرف حقيقتك فى هذه الدنيا . ان أسرتك وأهلك وجاهك ومالك وولدك ، كل هؤلاء لن يغنوا عنك شيئا .

يا أبا حامد ، طلق كل هذا ، وعش وحدك باحثا عن الحقيقة !

محنة نفسية .. ومرض غامض !

منذ تسعمائة سنة كان فى بغداد رجل ، يناهز الثامنة والثلاثين من عمره ، يعيش هذه المأساة العقلية التى كانت

تطحنه ، وتدق كيانه بأسره ، جاعلة منه انسانا قلقا ، كبندول الساعة ، لا يدرى أين المستقر !

ودامت هذه المحنة النفسية قرابة ستة أشهر ، حتى أصيب الامام العالم بمرض مجهول غريب . فلم يعد يستطيع النطق ، وهو الذى شهدت له بغداد بطلاقة اللسان، ورشاقة العبارة ، ولطيف الاشارة ، وطريف الملح .

وجافى الطعام ، ولم يعد يحس له طعما . ويئس الاطباء من شفائه ، وقالوا : « هذا داء نزل على القلب ، ولا رجاء فى حياته ، مالم يكف عن اجهاد ذهنه ، وارهاق عقله »

نعم ، **ان الرجل مريض بداء البحث عن الحقيقة ، وهو يريدها واضحة ، سافرة ، لا تحجبها عنه عادة ، أو مألوف ، أو تربية ، أو قول أستاذ ! .. وليس من سبيل أمامه الا أن يتجرد من كل شىء ، ويخرج الى العالم بنفسه ، باحثا عن « حجر الفلاسفة » ، مستخرجا كبد الحقيقة .**

وكيف ذلك ؟

ان الخليفة سيمنعه من السفر الى الشام ، وكذلك أصحابه وتلاميذه . فليعلن اذن عزمه على الحج ! .. وهذا ما كان . فقد ترك التدريس ، وأناب أخاه مكانه ، وتخلى عن كل شىء لأسرته ، ولم يأخذ معه الا القليل لقوته .

ومضى عام .. لكن الامام أبو حامد الغزالى لم يعد الى بغداد. وعجب الناس لهذا الرجل الذى هجر الجاه ، واعتزل الناس ، لكى يعبد الله !

وطالت غيبته .. واتسعت سياحته ، فذهب الى دمشق، بعد أن أدى فريضة الحج ، زاهدا متصوفا ، يرتدى ثيابا خشنة . واعتكف فى منارة (المسجد الاموى) ، وأخذ يزور المساجد ومقابر الصالحين من عباد الله وأوليائه . ثم رحل الى (بيت المقدس) ، وتنقل بعد ذلك سائحا فى أنحاء العالم

الاسلامى ، فزار الاسكندرية ، ومكة ، والمدينة . واستمر فى هذه السياحة النفسية والمادية ما يزيد على عشر سنوات !

طفولته ونشأته ..

ولعله كان ، حينذاك ، يراجع حياته منذ نشأ فى (طوس) . وكانت تتراءى أمامه صورة أبيه ، الذى توفى وتركه طفلا بجوار أخيه الآخر ، وهو جالس أمام مغزله بمدينة (طوس) من أعمال اقليم خراسان . وكان يراه يحتفل أيما احتفال بهؤلاء « الدراويش » الذين يفدون عليه ، بينما هو يدعو الله أن يجعل من ولديه فقيهين ، يعظان الناس . ثم يذكر هذا الدرويش الطيب القلب الذى كفله مع أخيه بعد وفاة والدهما ، وأخلص فى تعليمهما القراءة والكتابة ، الى أن شبا عن الطوق ، فبعث بهما الى المدرسة ، طلبا للعلم . ويذكر أيضا انتقاله من طوس الى (جرجان) ، طلبا للعلم على يد شيخه « أبى نصر الاسماعيلى » .

وهو اذ يذكر انتقاله هذا الى (جرجان) ، تتدافع الى مخيلته صور طريفة تجعله يغرق فى الضحك . **فقد هاجمه اللصوص ، وهو عائد من الدرس ذات يوم ، وسرقوا ما معه ، فلم يجد مفرا سوى أن يعدو خلف زعيمهم ، يستعطفه ويرجوه ان يرد اليه كراريسه وأوراقه ، ففيها علم تعب فى تحصيله** . لكن اللص قال له : « كيف تدعى أنك عرفت علمها ، وقد أخذناها منك ؛ فتجردت من معرفتها ، وبقيت بلا علم ؟ » . ثم أشفق عليه وسلمه المخلاة بما فيها . فلما عاد الى طوس حفظ ما فيها ، **وأدرك ان العلم يجب أن يحفظ فى الرأس ، لا فى الورق !**

ثم يذكر ، فيما يذكر ، أستاذه العظيم امام الحرمين « أبا المعالى الجوينى » ببلدة (نيسابور) ، الذى درس على يديه

أصول الفقه والمنطق والحكمة والفلسفة . وأظهر أمامه كفاءة نادرة جعلت الاستاذ يصفه بأنه « بحر مغرق » !

لكن أستاذه ما لبث أن مات ، فحزن عليه حزنا جما ، ووجد نفسه فى النهاية متخذا طريقه الى الوزير « نظام الملك » ، الذى كان يجل العلم والعلماء . فهو الذى أنشأ (المدارس النظامية) ، نسبة اليه ، فى طول البلاد وعرضها .

وظهر فضل الغزالى أمام الوزير .. كان يساجل العلماء والفقهاء ، محرزا النصر عليهم ، مما جعل الوزير – اعترافا بقيمته – يوليه التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد التى أنشأها لكى تكون جامعة لفقه أهل السنة وعلومهم ، ردا على الفاطميين الذين أنشأوا الجامع الازهر لنشر تعاليم المذهب الشيعى .

انه يذكر الآن هذه السنوات الاربع التى قضاها فى التدريس بالمدرسة النظامية ، ويذكر المجد والشهرة ، وما كان يحظى به من تقدير واحترام ، ويحس براحة نفسية عميقة : **فقد ترك كل هذا من أجل البحث عن الحقيقة التى ينهل من مذاقها الآن فى نسكه وعبادته ، واقباله على الآخرة .**

لقد اكتشف الآن الطريق المأمونة : طريق الحق .

الاستعمار الغربى يتخفى فى ثوب الدين !

ولكن كيف اهتدى الغزالى الى الطريق الحقة ؟ هنا يحسن أن نلقى نظرة عجلى على المسرح الذى عاش فبه الغزالى ، لنتبين ملامح الحياة فى عصره ، واتجاهاتها العقلية والفكرية ، حتى نعرف لماذا كان الامام الغزالى امام الدين وحجة الاسلام ، وكيف وجد المسلمون فيه بطلا دافع عن الدين ، ورد الى الافئدة مكانته ؟

لقد كان القرن الخامس الهجرى – والحادى عشر الميلادى –

عصر فوضى واضطراب عقلى وسياسى واجتماعى . وكان المجتمع بحاجة الى بطل يدفع عنه خطر الفرقة السياسية ، ازاء الاستعمار الغربى المتشح بثوب الحروب الصليبية . فها هم الصليبيون قد استولوا على بيت المقدس ، بينما العالم الاسلامى والعربى متفرق ، مشتت ، مجزأ الى دول ودويلات ضعيفة منهكة . ونحن نعرف أن صلاح الدين الايوبى قد مثل دور المنقذ بنجاح وبطولة فيما بعد . **لكن الخطر الآخر العميق ، الذى لم يكن الضعف السياسى الا صدى له ، كان يتمثل فى الفرقة العقلية والمذهبية التى دوت فى أرجاء الوطن العربى وقتذاك** . فقد تعددت المذاهب والفرق والاحزاب ، كل يؤمن بصواب جانبه وخطأ غريمه : فهناك **المعتزلة** الذين ساروا وراء العقل أينما كان ، وحيثما أدى بهم ، وكذلك **المتكلمون** الذين كانوا يؤيدون الدين بحجج وجدل عقلى لا يقنع عقلا متحررا ، وهناك **الفلاسفة** الذين شككوا الناس فى الدين والوحى والبعث ، حتى أصبح الناس لا يطمئنون الى رأى ! .. ومما زاد الطين بلة أن كثيرين من ضعاف العقول قد انخدعوا بآرائهم ، واغتروا بأنفسهم ، فتجرؤوا على الدين . كما كانت هناك فرق **الباطنية** التى زعمت أن وراء الاوامر والنواهى الدينية دلالات باطنة لا يفقهها الا الذين تلقوها عن الامام المعصوم .

وهكذا انتشرت الفرق المختلفة والجماعات السرية التى كانت تهدد أمن المجتمع ، مثل الاسماعيلية ، والقرامطة ، واخوان الصفاء ، على تفاوت فى درجة الخطورة والتهديد .

ولم يصب الناس من كل هذا الجدل المتلاطم الا ضعف الايمان ، والاستهتار بالدين والشريعة ، مما جعل طائفة من الناس تنصرف عن كل هذا ، وتهرع الى الله ، متلمسة طريق

الحق من خلال التجربة الروحية والمجاهدة النفسية، وهؤلاء هم **الصوفية** .

بين الغزالى و « ديكارت »

وقد عاش الغزالى هـذا كله بعمق ، وأدرك خطر هـذه الفوضى العقلية الساذجة . وأراد أن يستخلص الحق من بين هذا الظلام ، فارتضى لنفسه سبيل الشك فى كل شيء لا يتضح أمامه بجلاء ويقين . **لقد اتخذ الشك منهجا للوصول الى الحقيقة ، والشـك هنا منهج عقلى ونفسى . وهـذا هو الفرق بينه وبين شك الفيلسوف الفرنسى «رينيه ديكارت» ، الذى جاء بعد الغزالى بخمسمائة عام** . اذ أن شـك ديكارت ذهنى عقلى فقط ، يتيح له تخليص الذهن من الآراء السابقة ، حتى يطمئن الى حقيقة واحدة هى وجوده من خلال شكه . فهو يبنى مذهبه على قوله : **« أنا أفكر ، فاذن أنا موجود »** . أما الغزالى فيقيم شكه على هذا المنهج العقلى الذى يتخلص من الآراء السابقة، غير مسلم الا بالحقيقة الجلية الواضحة، ولكنه يفترق عنه فى أنه أعمق منه ارتباطا بالنفس وتأثيرا فيهـا . اذ هو قد انفصل به ، وبلغ به مداه ، ولم يقف عنـد حقيقة معينة . فقد سار فى طريق الشك ، حتى اضطربت نفسه ، وأصابه المرض ، واستمر يغالب هذه المأساة العقلية بعمق أكثر من شهرين . فالشك كمنهج للوصول الى المعرفة يتفق فيه ديكارت مع الغزالى ، لكن الخلاف ينحصر فى أن الثـانى قد عاش شكه بلحمه ودمه . وبينما نجد أن ديـكارت قـد تخلص من شكه بالـكوجيتو (أنا أفـكر فأنا اذن موجود) ، نجد ان الغزالى قد تخلص من شكه « بنور قذفه الله تعـالى فى الصدر . وذلك النور هو مفتاح أكثر المعـارف » وذلك تخلص القلق الحائر الذى لم يصبر على عذاب الروح !

وقد قص الغزالى سيرته ، وأظهر للناس وجدانه الحائر فى

كتاب يقف فريداً فى تاريخ الفكر العربى ، ويعتبر من خيرة كتب الاعترافات التى خطها المفكرون العالميون بأقلامهم ، وهو كتاب « المنقذ من الضلال » ، الذى سنتركك معه بعد قليل.

حجة الاسلام وزين الدين

والآن لنترك الغزالى فى سياحته ، وتأملاته ، ومجاهدته لنفسه وانقطاعه للعبادة والتأليف مدة تزيد على العشر سنوات ، كتب فيها أعظم كتبه : **((احياء علوم الدين))** ، الذى يدل اسمه على رسالة صاحبه فى حياتنا .. لنتركه بعد أن هدأت نفسه ، واطمأن الى طريق الحق – طريق التصوف بمعنى آخر – لننظر فيما فعله حتى رد الى الدين سلطانه على النفوس ، وحتى لقب « بحجة الاسلام وزين الدين » .

لقد أدرك الغزالى أنه « لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم ، حتى يساوى أعلمهم فى أصل العلم ، ثم يزيد عليه ، ويجاوز درجته ، فيطلع على مالم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائله . فاذ ذاك يمكن ان يكون ما يدعيه من فساده ، حقا » .. وذلك ما كان . فقد درس الغزالى مذاهب علم الكلام ، ووجد أن هم المتكلمين هو حراسة الشريعة ، ولكن حججهم ليست مما يستعصى على الشك ، كما أن خطرهم ليس كبيرا. أما الفلسفة فهى الميدان المختلط الذى يستهوى الكثيرين ، ويضل الجموع ، وقد ألف فى ذلك كتابه **((مقاصد الفلاسفة))** ، فقرر فيه مسائل الفلسفة دون أن يتعرض لها بالنقد ، حتى كشف الحجب التى تتلفح بها آراء الفلاسفة من الغموض والاصطلاحات ، وأخرج الفلسفة الى الفضاء ، وكشفها للناس عامة ، ثم ألف عمله الفلسفى النقدى الذى دحض فيه الفلسفة وهدمها ، حتى لم تعد لها قائمة بعد ذلك . فكتب كتابه : **((تهافت**

الفلاسفة » ، وفيه تتجلى عبقريته الذهنية وعمقه فى البحث .
وقد كانت الفلسفة ـ وقتذاك ـ تشمل العلوم الرياضية والطبيعية والمنطقية والسياسية والاخلاقية . وليس يكمن الخطر فى هذا ، وانما يكمن فى الالهيات أو «ما وراء الطبيعة» ، حيث توجد اكثر اغلاط الفلاسفة . وقد وقع الغلط فى عشرين مسألة ، كفرهم الغزالي فى ثلاث منها ، وهى قولهم بقدم العالم ، وانه غير مخلوق فى زمن معين ، وان الله يعلم الكليات والعموميات فى العالم دون الجزئيات ، (وبذلك تنتفى العناية الالهية) ، وأخيرا قولهم ان الاجساد لا تبعث .

وقد حشد الغزالى للهجوم على الفلسفة والفلاسفة كل الاسلحة الممكنة ، ونزع الى هدم آرائهم ، ومعارضة اشكالاتهم بمثلها ، دون أن يحلها . وكان هدفه من ذلك أن يبين فساد قولهم . وقد استعان على ذلك بما وجده لدى المعتزلة ، ولدى يحيى النحوى ، بل ولدى الفلاسفة أنفسهم ، من تناقض . ومن ثم أشعلها حربا شعواء ، جعلت الفلسفة تنزوى فى الشرق ، ولم يقلها من عثرتها القاتلة ما حاوله الفيلسوف الاندلسى العظيم « ابن رشد » حين رد على الغزالى فى كتابه : « تهافت التهافت » .

والواقع أن الغزالى ، من خلال حججه ومناقشاته ، يسمو على فلاسفة الغرب فى كثير من الآراء المبتكرة . وليس سموه هذا من قبيل التهافت، وانما هو سبق أحرزه بجدارة واستحقاق .

وماذا بعد الفلاسفة ؟

لقد رد الغزالى على الباطنية ، وفضحهم . وتحول الى الصوفية فدرس آدابهم وحصل علومهم ، وأدرك أن التصوف لايكون بمجرد المعرفة، وانما يجب أن يجرب ، وأن يتذوق . ثم

اكتشف نفسه من خلال التصوف ، ووجد الراحة وهدوء النفس فى رحابه ..

سنواته الاخيرة ..

بعد عشر من السنين ، قضاها الغزالى فى رحلته الروحية ، عاد الى مسقط رأسه فى (طوس) ، وقد جرفه الحنين اليها . ثم استدعى للتدريس ببغداد مرة أخرى ، فعقد بها مجالس للوعظ ، و « تكلم بلسان أهل الحقيقة ، بكلام أطرب الأنام ، وأعجب الخاص والعام ، وحدث الناس بكتاب الاحياء وغيره من مصنفاته » .

وما لبث أن ترك بغداد ، من جديد ، الى (نيسابور) ، حيث درس بمدرستها ، ولكنه سئم جدل الفقهاء وحسدهم ، فغادر نيسابور عائدا الى طوس . واتخذ هناك مجلسه ، متعبدا ، صائما ، متوفرا على دراسة الحديث والسيرة النبوية .

لكن الحياة لم تمتد به طويلا ، اذ غادر دنياه ، وارتحل الى العالم الآخر ، وهو فى الخامسة والخمسين من عمره .

ماذا ترك لنا الغزالى ؟

تلك سيرة رجل من أعظم رجال البعث الفكرى والروحى فى العالم قاطبة ، رجل بعث الطمأنينة والثقة والمحبة فى نفوس الملايين من المسلمين ، فى مختلف العصور ، وأعاد للدين مكانته ، ورد عنه أباطيل خصومه . **فهو خير من كتب عن المحبة والاخاء والاخلاص والصداقة بفهم عميق انسانى شامل ..** وما كتابه « احياء علوم الدين » الا دستور شامل للمسلمين ، قسمه الى أربعة أقسام : تناول فى القسم الاول العبادات وآدابها وأسرارها . وتناول فى الثانى العادات

والتقاليد الاجتماعية كالزواج ، والاكل ، والاستماع الى الموسيقى ، وأخلاق النبوة . اما القسم الثالث فقد عالج فيه الصفات المهلكة . ثم خصص الرابع والاخير للحديث عن الصفات المنجية - كل ذلك بأسلوب تحليلى بارع . ولئن كان قد حشد فيه بعض الاخبار والروايات التى قد يستنكرها البعض ، الا أن قصده كان الترغيب والترهيب .

ولكن ما الميراث الذى أورثنا اياه فيلسوفنا الغزالى ؟

طبيعى بعد كل هذا أن يشق على الباحث أن يلخص مآثر مفكر متنوع الانتاج وافره كالغزالى ، ولكننا نقدم اليك النقاط الاربع التالية ، قاصدين الاشارة دون الاحاطة الواسعة ، والقاء الضوء دفعا الى التوسع فى الالمام بحياة هذا المفكر الجليل وأعماله . واليك نقاطنا الاربع التى تجمع مآثر الغزالى ، وتلخص مكانته فى الفكر العربى والعالمى :

• **منهج التفكير الحر** ، وعدم التقيد بالتقليد ، ومحاربة الايمان التقليدى ، واتخاذ الشك منهجا للوصول الى الحقيقة ، والاعتماد على التجربة والمعاناة فى تذوق التجربة الدينية .

• ثروة فكرية ضخمة ، زادت على **مائة وثلاثين مؤلفا** ، انتاجها وسط جو حافل بالاضطراب السياسى ، وخلال حياة قصيرة انتهت عند الخامسة والخمسين .

• **نظرة متطورة الى الدين والعبادات** ، تقضى بأنهما ليسا نصوصا جامدة ، وحركات وشعائر تقليدية ، وانما هما روح وحياة . وليس الايمان جدلا ونقاشا ، ولكنه عمل ، فالقرآن يقرن الايمان بعمل الصالحات دائما .

• **سبقه لكثير من أعلام الفلسفة الغربية** فى العصور الحديثة . ويجدر بنا أن نقف قليلا عند هذه النقطة بالذات .

ذلك لأن الغزالى قد سبق الفيلسوف الفرنسى «بليز **باسكال**» (١٦٢٣ - ١٦٦٢) الذى عاش بعد الغزالى بخمسة قرون ، والذى تشبه حياته الروحية ، وتطوره العقلى ، ورضاؤه بالزهد والتصوف فى آخر حياته ، مثيلتها لدى مفكرنا العربى. فقد قال باسكال بنظرية مشهورة تعرف ببرهان باسكال ، مؤداها انه اذا كانت الآخرة حقيقة ، فاننا نخاطر مخاطرة كبرى باقبالنا على الحياة الدنيا ، وملذاتها ، وهى محدودة .. فالعقل يدعونا للاستعداد للآخرة ، لنتخلص من العذاب الأزلى فيها .. وهذا عين ما اتبعه الغزالى فى جدله مع الدهريين والاطباء والمنجمين ، وضرب لذلك مثلا قوله : **« رجل عاقل يقدم له طعام يشتهيه ، لكنه يشك فى كونه مسموما ، فهل يتناول منه لقمة مهما بلغت لذتها ، فيعرض نفسه للهلاك ، أم يكبح جماح الشهوة المؤقتة ، فينجو من خطر الموت الدائم ؟ ! »**

كذلك يقف الغزالى موقفا مشابها من الفيلسوف الالمانى المشهور «ايمانويل **كانت**» ، حين أثبت عجز العقل عن معرفة كنه الاشياء . ثم هو يحلل الزمان والمكان ، ويربط بينهما ، ولا يجعلهما منفصلين ، ويردهما الى مجرد العلاقات بين الاجسام ، ويجعلها مجرد وسيلة نستعين بها على ادراك العالم الخارجى .

أما كلام الغزالى عن السببية ، وتحليله لها ، فيكاد يكون بنصه كلام الفيلسوف الانجليزى « دافيد **هيوم** » . فالغزالى حين يقول ، متحدثا عن المعجزات : « اذا أدنيت قطعة من القطن من النار فاحترقت ، فليس هناك ما يجعلك تقول ان النار هى سبب الاحراق . اذ كل ما تستطيع أن تقوله هو أنك شاهدت القطن يحترق عند ملامسة النار له ، فهناك مجرد تعاقب حادثتين ، واقترانهما معا . ولا حق لك فى أن

تزعم أن الحادثة الاولى هي سبب الثانية ، كما يقول قانون السببية . فالعلية هذه ليست سوى تتابع لحوادث حكمنا ، بسبب العادة والمألوف وتكرر المشاهدة ، بأن الاولى منها سبب للثانية . » وهذا عين ما قاله الفيلسوف الانجليزى ، بعد الغزالى بأكثر من ستة قرون !

حقا ! تلك سيرة رجل ومفكر يقف على رأس مفكرى الاسلام المجددين الواعين .

والآن ، اليك درة الاعترافات فى الادب العربى ، التى سبق بها الغزالى « روسو » و « أندريه جيد » ومن نحا نحوهما فى الغرب والشرق :

المنقذ من الضلال

سألتنى ، أيها الأخ فى الدين ، أن أبث اليك غاية العلوم وأسرارها ، وغائلة المذاهب وأغوارها ، وأحكى لك ما قاسيته فى استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق ، مع تباين المسالك والطرق ، وما استجرأت عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد ، الى يفاع الاستبصار ، وما استفدته أولا من علم الكلام ، وماكرهته ثانيا من طرق أهل التعليم ، الذين قصروا معرفة الحق على تقليد الامام المعصوم ، وما ازدريته ثالثا من طرق التفلسف ، وما ارتضيته آخرا من طريقة التصوف . وما انجلى لى فى تضاعيف تفتيشى عن أقاويل الخلق من لباب الحق ، وما صرفنى عن نشر العلم ببغداد مع كثرة الطلبة ، وما دعانى الى معاودتى بنيسابور بعد طول المدة ، فابتدرت لاجابتك الى طلبك بعد الوقوف على صدق رغبتك ، وقلت ، مستعينا بالله ومتوكلا عليه :

خوض البحر ..

اعلموا ، أحسن الله ارشادكم وألان للحق قيادكم ، أن اختلاف الخلق فى الاديان والملل ، ثم اختلاف الأئمة فى المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق ، بحر عميق غرق فيه الاكثرون ، وما نجا منه الا الاقلون ، وكل فريق يزعم أنه الناجى ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، وهذا مصداق قول سيد المرسلين : ((**ستفترق أمتى ثلاثا وسبعين فرقة ، الناجية منها واحدة**)) ، فقد كاد ما عد أن يكون .

ولم أزل فى عنفوان شبابى ، منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين الى الآن ، وقد أناف السن على الخمسين ، أقتحم لجة هذا البحر العميق واخوض غمراته ، خوض الجسور لاخوض الجبان الحذور ، فأتهجم على كل مشكلة ، وأتقحم كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، واستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ، ومبطل ، ومتسنن ، ومبتدع . لا أغادر باطنيا الا وأحب أن أطلع على بطانته ، ولا ظاهريا الا وأريد أن اعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفيا الا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلما الا وأجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفيا الا وأحرص على العثور على سر صفوته .. ولا متعبدا .. ولا زنديقا .. الا وأريد أن أعرف سره .

عطشان الى اليقين

وقد كان التعطش الى درك حقائق الامور رأيى وديدنى من أول أمرى وريعان عمرى ، غريزة وفطرة من الله وضعتا فى جبلتى ، لا باختيارى وحيلتى ، حتى انحلت عنى رابطة التقليد ، على قرب عهد سن الصبا ، اذ رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء الا على التنصر ، وصبيان اليهود

لا نشوء لهم الا على التهود ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم الا على الاسلام .

وسمعت الحديث القائل : ((**كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، وينصرانه ، و . . يمجسانه**)) ، فتحرك باطنى الى معرفة حقيقة الفطرة الاصلية التى يخلق عليها الناس جميعا ، ثم معرفة حقيقة العقائد التى تغشى هذه الفطرة بتقليد الوالدين والمعلمين ، ثم التمييز بين هذه التقليدات ، وأوائلها تلقينات ، وفى تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات ، فقلت فى نفسي : أولا ، مطلوبى العلم بحقائق الامور ، فلا بد من طلب حقيقة العلم ما هى ؟

وبان لى أن العلم اليقينى هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه امكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ، بل الامان من الخطأ ينبغى أن يكون مقارنا لليقين مقارنة لو تحدى باظهار بطلانه . مثلا من يقلب الحجر ذهبا والعصا ثعبانا ، لم يورث ذلك شكا وانكارا ، فانى اذا علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة ، فلو قال لى قائل : لا ، بل الثلاثة أكثر بدليل أنى أقلب هذه العصا ثعبانا وقلبها ، وشاهدت ذلك منه ، لم أشك بسببه فى معرفتى ، ولم يحصل لى منه الا التعجب من كيفية قدرته عليه . فأما الشك فيما علمته ، فلا .

ثم علمت أن كل مالا أعلمه على هذا الوجه ، ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ، ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه ، فليس بعلم يقينى .

مداخل السفسطة وجحد العلوم

ثم فتشت عن علومى ، فوجدت نفسى عاطلا من علم موصوف بهذه الصفة ، الا فى الحسيات والضروريات . ولكن هل أنا على ثقة كاملة من المحسوسات ؟

فأخذت أتأمل المحسوسات والضروريات ، وأبحث هل يمكنني أن أشكك نفسي فيها ؟ فانتهى بى طول التشكيك الى أن لم تسمح نفسي بتسليم الامان فى المحسوسات أيضا . واتسع الشك، وأخذت أقول لنفسى : كيف أثق بالمحسوسات ـ وأقواها حاسة البصر ـ وهى تنظر الى الظل فتراه واقفا غير متحرك ، وتحكم بنفى حركته ، ثم بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة أعرف أنه متحرك ، وان لم يتحرك دفعة واحدة بل على التدريج ، وأنظر الى الكوكب فأراه صغيرا فى مقدار الدينار ، ثم الادلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الارض . فالحس يحكم على المحسوسات ، ثم يكذب حكم العقل المحسوسات . اذن فقد بطلت الثقة بالمحسوسات . ولعله لاثقة الا بالعقليات ، التى هى من قبيل الاوليات والبديهيات، كقولنا : العشرة أكثر من الثلاثة ، والنفى والاثبات لا يجتمعان فى الشيء الواحد .

ثم انبرت لى المحسوسات ، وقالت : لم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات . وانظر ، فقد كنت واثقا بى ، ثم أتى العقل فكذبنى ، **فلعل وراء العقل حاكما آخر لو تجلى لكذب العقليات . وعدم تجليه لا يدل على استحالته . اما تراك تعتقد فى النوم أمورا ، وتتخيل أحوالا ، وتعتقد لها ثباتا واستقرارا ، ولا تشك فى تلك الحالة فيها ، ثم تستيقظ فتعرف أن ذلك كان خيالات !** فبم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده فى يقظتك بحس أو عقل ، هو حق ، بالاضافة الى حالتك التى أنت فيها . لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها الى يقظتك، كنسبة يقظتك الى منامك ، وتكون يقظتك نوما بالاضافة اليها !

ولعل هذه الحالة ما تدعيه الصوفية ، فهم يزعمون انهم يشاهدون أحوالا ، اذا غاصوا فى أنفسهم وغابوا عن حواسهم

.. يشاهدون أحوالا توافق هذه المعقولات . ولعل هذه الحالة هى الموت. **((فالناس نيام ، اذا ماتوا انتبهوا))** ، ولعل الدنيا نوم بالاضافة الى الآخرة !

الشفاء من الشك !

خطرت لى هذه الخواطر ، ولم استطع دفع ذلك الا بالدليل. ولم يمكن ترتيب دليل بعد فقد الثقة فى المحسوسات والمعقولات . وأعضل هذا الداء ، ودام قريبا من شهرين ، أنا فيها على مذهب السفسطة ، بحكم الحال لا بحكم النطق والمقال ، حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض ، وعادت النفس الى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة ، موثوقا بها على أمن ويقين . ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف ، فمن ظن أن الكشف موقوف على الادلة المحررة ، فقد ضيق رحمة الله الواسعة ، وهذا هو معنى ((**الشرح**)) فى قوله تعالى : ((**فمن يرد الله أن يهديه، يشرح صدره للاسلام**)) ، فقد فسره رسول الله : ((**هو نور يقذفه الله تعالى فى القلب**))، وسئل: ((**وما علامته؟**))، فقال : ((**التجافى عن دار الغرور ، والانابة الى دار الخلود**))

أصناف الطالبين

ولما شفانى الله تعالى من هذا المرض بفضله وسعة جوده ، انحصرت أصناف الطالبين عندى فى أربع فرق ، وقلت فى نفسى : الحق لايعدو هذه الفرق الاربع، وهؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق ، فان شذ الحق عنهم ، فلا يبقى فى درك الحق مطمع ، ولا يمكننى العودة الى التقليد . فأسرعت بسلوك هذه الفرق الاربع ، علنى اهتدى الى الحقيقة .

فابتدأت بعلم الكلام ، فالفلسفة ، ثم الباطنية ، وأخيرا الصوفية .

علم الكلام

طالعت كتب علم الكلام ، وحصلته ، وعقلته ، وصنفت فيه ما أردت أن أصنف ؛ ووجدته علما يهدف الى حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها من تشويش أهل البدع ، والنضال عن العقيدة . وهم فى جدلهم يستندون على مقدمات تسلموها من خصومهم ، اضطرهم الى التسليم بها ، اما التقليد أو اجماع الامة أو مجرد القبول من القرآن والاخبار ، وهذا قليل النفع فى حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئا أصلا .

والمهم اننى وجدت علم الكلام وافيا بمقصوده ، غير واف بمقصودي . وقد يكون فيه شفاء غيرى . والغرض الآن حكاية حالى ؛ لا الانكار على من استشفى به ، فان أدوية الشفاء تختلف باختلاف الداء . وكم من دواء ينتفع به مريض ، ويستضر به آخر .

الفلسفة

ثم ابتدأت ، بعد الفراغ من علم الكلام ، بعلم الفلسفة . وعلمت يقينا انه لايقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم ، حتى يساوى أعلمهم فى أصل ذلك العلم . ثم يزيد عليه ويجاوز درجته ، فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائله . واذ ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساده حقا ، ولم أر أحدا من علماء الاسلام صرف عنايته وهمته الى ذلك .

وعلمت أن رد المذهب ، قبل فهمه والاطلاع على كنهه ، رد فى عماية . فشمرت عن ساق الجد فى تحصيل الفلسفة من

الكتب ، وذلك بمجرد المطالعة فى كتبهم دون الاستعانة باستاذ . وأقبلت على ذلك فى أوقات فراغى من التصنيف والتدريس فى العلوم الشرعية ، وأنا مشغول بالتدريس والافادة لثلثمائة نفس من الطلبة ببغداد ، فأطلعنى الله سبحانه ، بمجرد المطالعة فى هذه الاوقات المختلسة ، على منتهى علومهم فى أقل من سنتين . ثم لم أزل أواظب على التفكر فيه بعد فهمه قريبا من سنة ، أعاوده وأردده حتى ادركت ما فيه من خداع وتلبيس .

واسمع الآن حكايتهم ، فانى رأيتهم أصنافا ، وعلومهم أقساما ، ووصمة الكفر تشمل كافتهم .

أصناف الفلاسفة

ينقسم الفلاسفة الى ثلاثة اقسام : الدهريون والطبيعيون والالهيون :

الدهريون ، هم الذين ينكرون وجود الصانع المدبر ، وزعموا أن العالم لم يزل موجودا كذلك ، بنفسه وبلاصانع .. وهؤلاء هم الزنادقة .

الطبيعيون ، وهم قوم أكثروا من البحث عن عالم الطبيعة ، وعن عجائب الحيوان والنبات ، فرأوا فى ذلك بدائع حكمة الله سبحانه ، فاضطروا الى الاعتراف بوجود فاعل حكيم ، ولكنهم قالوا ان النفس مرتبطة بالبدن ، وتموت بموته ولا تعود ، فأنكروا الآخرة والجنة والنار والحشر . وهؤلاء أيضا زنادقة .

الالهيون ، وهم المتأخرون منهم مثل سقراط ، وهو أستاذ أفلاطون ، وأفلاطون أستاذ أرسطوطاليس ، وهؤلاء ردوا على الدهريين والطبيعيين ، وكفى الله المؤمنين القتال . ورد أرسطو على سقراط وأفلاطون ، ولكنه استبقى رذائل

من كفرهما ، فوجب تكفيره ، وتكفير شيعته من المتفلسفة الاسلاميين ، كابن سينا والفرابى . وما صح عندنا بحسب نقل هذين الرجلين من فلسفة أرسطو ، ينحصر فى ثلاثة أقسام : قسم يجب التكفير به . وقسم يجب التبديع به . وقسم لا يجب انكاره أصلا ، فلنفصله :

أقسام الفلسفة

الرياضة : وتتعلق بالحساب والهندسة وعلم الفلك ، وهى لا صلة لها بالدين ، نفيا أو اثباتا . وهى أمور برهانية ، وتولد عنها آفتان ، فالذى يراها على ما بها من دقة ووضوح ووثاقة برهان ، ثم يسمع بكفر الفلاسفة فيكفر بالتقليد ، ويقول: لو كان الدين حقا ، لما اختفى على هؤلاء ، مع تدقيقهم فى هذا العلم . وغاب عنه انه لا يلزم من الحاذق فى صناعة ، أن يكون حاذقا كذلك فى غيرها .

والآفة الثانية نشأت من صديق جاهل للاسلام ، ظن أنه ينصر الدين بانكار هذه العلوم ما دامت منسوبة اليهم . والذى يسمع ذلك ، ويعرف أن هذه العلوم قائمة على البرهان القاطع ، يعتقد أن الاسلام مبنى على الجهل ، وانكار البرهان القاطع ، ويزداد للفلسفة حبا وللاسلام بغضا .

وأما المنطقيات ، فلا يتعلق شىء منها بالدين ، نفيا أو اثباتا ، بل هو النظر فى طرق الادلة والقياس والبرهان .. وقد يظن البعض أن ما ينقل عنهم من الكفريات مؤيد بمثل تلك البراهين ، فيستعجل بالكفر قبل الانتهاء الى العلوم الالهية التى لم يستوفوا فيها ما اشترطوه فى منطقهم .

وأما **علم الطبيعيات** ، فهو البحث فى عالم السموات والعناصر ، كالماء والهواء والتراب والنار ، ومركباتها

كالحيوان والنبات والمعادن وأسباب تغيرها ، ومثل هذا الطب ..

وليس من الدين انكار هذا الا فى مسائل معينة ذكرتها فى كتابى : « تهافت الفلاسفة » . والمهم أن نعرف أن الطبيعة مسخرة لله تعالى ، لا تعمل بنفسها .

وأما **الالهيات** : ففيها أكثر أغاليطهم .. ومجموع ما غلطوا فيه يرجع الى عشرين أصلا ، يجب تكفيرهم فى ثلاثة منها ، وتبديعهم فى سبعة عشر . ولابطال مذهبهم فى هذه المسائل العشرين ، صنفنا كتاب « تهافت الفلاسفة » .

وأما المسائل الثلاث التى خالفوا فيها كافة المسلمين، فهى قولهم ان الاجساد لا تحشر ، وانما المثاب والمعاقب هى الارواح المجردة ، وقولهم ان الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات .. وقولهم بقدم العالم وأزليته. هذه هى المسائل التى كفروا فيها. أما قولهم فيما وراء ذلك من نفى الصفات ، فهم يذهبون فيه الى ما بقرب من مذهب المعتزلة .

وأما **السياسيات** ، فكلامهم فيها يرجع الى المصلحة الدنيوية ، وأخذوه من كتب الله المنزلة على الانبياء .

وأما **الخلقية** ، فكلامهم فيها يرجع الى حصر صفات النفس ، وأخلاقها ، وذكر أجناسها وأنواعها ، وكيفية معالجتها ومجاهدتها . وانما أخذوها من كلام الصوفية ، ومزجوها بكلامهم ، توسلا بالتجمل بها الى ترويج باطلهم .

ولقد كان هناك جماعة من المتألهين المتصوفة فى كل عصر ، وتولد من مزجهم كلام النبوة والصوفية بكتبهم آفتان : آفة فى حق القابل ، وآفة فى حق الراد . فأما الآفة الثانية فهى أن يستنكر الشخص ضعيف العقل كلام النبوة وكلام الصوفية المدون فى كتبهم ، ما داموا قد ذكروه ، لانه يرد كل

ما ذكروه فى كتبهم ، وان كان حقا . والضعفاء هم الذين يعرفون الحق بالرجال ، لا الرجال بالحق .

وقد استنكر البعض ما ذكرناه فى تصانيفنا فى أسرارعلوم الدين ، وقالوا انها من كلام الاوائل ، مع أن بعضها من مولدات الخواطر . ولا يبعد أن يقع الحافر على الحافر .. ولو هجرنا كل حق ذهب اليه خاطر مبطل ، لزمنا أن نهجر كثيرا من الحق ، ولزمنا أن نهجر جملة آيات من آيات القرآن ، وأخبار الرسول ، وحكايات السلف ، وكلمات الحكماء والصوفية ، لان صاحب كتاب **« اخوان الصفا »** أوردها فى كتابه ، مستشهدا بها ، ومستدرجا قلوب الحمقى بواسطتها .. وهذا وهم باطل ، وهو غالب على أكثر الخلق . **فمهما نسبت الكلام ، وأسندته الى قائل حسن فيه اعتقادهم ، قبلوه وان كان باطلا . وان أسندته الى من ساء فيه اعتقادهم ، ردوه وان كان حقا . فأبدا يعرفون الحق بالرجال ، ولا يعرفون الرجال بالحق ، وهو غاية الضلال** . ولذا وجب حسم الباب ، وزجر الكافة عن مطالعة كتبهم .

وأما الآفة الاخرى ، آفة القبول ، فهى أن من ينظر فى كتبهم ويرى ما مزجوه بكلامهم من الحكم النبوية والكلمات الصوفية ، ربما استحسنها ، وحسن اعتقاده فيها ، فيسارع الى قبول باطلهم الممزوج به لحسن ظن حصل فيما رآه واستحسنه .

ولذا يجب زجر الكافة عن مطالعة كتبهم لما فيها من الخطر . فكما يجب صون من لا يحسن السباحة عن مزالق الشطوط ، يجب زجر الخلق عن مطالعة كتبهم .

مذهب التعليم وغائلته

ثم بعد أن فرغت من الفلسفة ، وزيفت منها مايزيف .. وكان قد شاع بين الخلق ما تقوله طائفة الباطنية ، أصحاب التعليم ،

القائلين ان معنى الأمور يتلقى من جهة الامام المعصوم ، عن لى أن أبحث ما يقولون . ثم ورد أمر من حضرة الخلافة بتصنيف كتاب يكشف عن حقيقة مذهبهم ، فلم يسعنى مدافعته . وصار ذلك مستحثا لى من خارج ، ضميمه للباعث الاصلى من الباطن ، فابتدأت بطلب كتبهم وجمع مقالاتهم .. ورتبت مقالاتهم ، وقررت شبهاتهم أوضح تقرير، حتى اعترض على البعض بأننى أنصر مذهبهم بترتيبى له . ولكن شبهاتهم كانت منتشرة ، فالجواب عنها فرض . والمقصود انني قررت شبهتهم الى أقصى الامكان ، ثم أظهرت فسادها بغاية البرهان .

والحاصل : أنه لا حاصل عند هؤلاء ، ولا طائل لكلامهم . فدعواهم أنه لا يصلح كل معلم ، بل لا بد من معلم معصوم ، قول حق ان أريد به ضرورة الحاجة الى التعليم والمعلم . ولكن اشتراطه بالمعلم المعصوم فمردود ، لان معلمنا المعصوم هو الرسول عليه السلام . وهو قد علم الدعاة ، وبثهم فى البلاد ، وأكمل التعليم . اذ قال الله تعالى : ((**اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى**)) ، وأمرنا بالاجتهاد فى أمر ديننا . فقواعد العقائد يشتمل عليها الكتاب والسنة . وما وراء ذلك من التفصيل والمتنازع ، يعرف فيه بالوزن ، بالقسطاس المستقيم ، وهى الموازين التى ذكرها الله تعالى فى كتابه ، وهى خمسة ذكرتها فى كتاب ((**القسطاس المستقيم**)) ..

وليس المقصود الآن بيان فساد مذهبهم ، فقد ذكرت ذلك فى كتاب ((**المستظهرى**)) أولا ، وفى كتاب ((**حجة الحق**)) ثانيا ، وكذلك فى كتاب ((**مفصل الخلاف**)) ، وفى كتاب ((**القسطاس المستقيم**)) .

طرق الصوفية

ثم اني لما فرغت من هذه العلوم ، أقبلت بهمتى على طرق الصوفية ، وعلمت أن طريقهم انما يتم بعلم وعمل . وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس ، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها الى تخلية القلب عن غير الله تعالى ، وتحليته بذكر الله .

وكان العلم أيسر على من العمل ، فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم ، مثل قوت القلوب ، وكتب الحارث المحاسبى ، والمأثور عن الجنيد والشبلى والبسطامى .. حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وظهر لى أن أخص خواصهم ، ما لا يمكن الوصول اليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال وتبدل الصفات . **وكم من الفرق بين أن يعلم المرء حد الصحة وحد الشبع ، وأسبابها وشروطها ، وبين أن يكون صحيحا وشبعان ! ... فكذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها وأسبابها ، وبين أن يكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا** . فعلمت يقينا أنهم أرباب الاحوال، لا أصحاب الاقوال ..

وكان قد حصل لى ايمان يقينى بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر ، فهذه الاصول الثلاثة من الايمان كانت قد رسخت فى نفسى ، وظهر عندى انه لا مطمع لى فى سعادة الآخرة الا بالتقوى ، وكف النفس عن الهوى ، وراس ذلك كله قطع علاقة القلب بالدنيا ، بالتجافى عن دار الغرور . ولا يتم ذلك الا بالاعراض عن الجاه والمال والهرب من الشواغل والعلائق .

ثم لاحظت أحوالى .. فوجدتنى مقبل على علوم غير مهمة ، ولا نافعة فى طريق الآخرة . **ثم تفكرت فى نيتى فى التدريس ، فاذا هى غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها**

طلب الجاه وانتشار الصيت ، فتيقنت أنى على شفا جرف هار ، وأنى قد أشفيت على النار ، ان لم أشتغل بتلافى الاحوال .

حيرة .. ومرض

ولم ازل أفكر فى ذلك ، وأصمم على الخروج من بغداد ، ومفارقة تلك الاحوال ، ثم أعدل ، وأقدم رجلا وأؤخر اخرى . ولم أزل اتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة ، قريبا من ستة أشهر ، أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة . وفى هذا الشهر جاوز الامر حد الاختيار الى الاضطرار ، اذ أقفل الله على لسانى حتى اعتقل عن التدريس . فكنت اجاهد نفسى أن أدرس يوما واحدا ، تطييبا لقلوب المختلفة الى ، فكان لا ينطق لسانى بكلمة واحدة ، ولا أستطيعها البتة ، حتى أورثت هذه العقلة فى اللسان حزنا فى القلب ، بطلت معه قوة الهضم ومراءة الطعام والشراب . فكان لا ينساغ لى ثريد ، ولا تنهضم لى لقمة .

وتعدى الى ضعف القوى ، حتى قطع الاطباء طمعهم من العلاج ، وقالوا : ((**هذا أمر نزل بالقلب ، ومنه سرى الى المزاج ، فلا سبيل اليه بالعلاج ، الا بأن يتروح السر عن الهم الملم**)) .

ثم لما أحسست بعجزى ، التجأت الى الله التجاء المضطر ، فأجابنى الذى يجيب المضطر اذا دعاه ، وسهل على قلبى الاعراض عن الجاه والمال والاولاد .

مفارقة بغداد

وأظهرت عزم الخروج الى مكة ، وأنا أدبر فى نفسى سفر الشام ، حذرا أن يطلع الخليفة وجملة الاصحاب على عزمى

المقام بالشام ، فتلطفت بلطائف الحيل فى الخروج عن بغداد، على عزم الا أعاودها أبدا .

واستهدفت لالسنة الناس . فقال البعض أنى فارقتها لاستشعار من جهة الولاة ، ولكن الذين كانوا يعلمون مدى تعلق الولاة بى ، واعراضى عنهم قالوا : « **هذا أمر سماوى ، وليس له سبب الا عين أصابت أهل الاسلام وزمرة العلم** » .

وفارقت بغداد ، وفرقت ما كان معى من المال . ولم أدخر الا قدر الكفاف وقوت الاطفال . . ثم دخلت الشام ، وأقمت به قريبا من سنتين، لا شغل لى الا العزلة ، والخلوة ، والرياضة ، والمجاهدة ، اشتغالا بتزكية النفس وتصفية القلب . فكنت اعتكف مدة فى مسجد دمشق ، أصعد منارة المسجد طول النهار ، وأغلق بابها على نفسى .

ثم رحلت منها الى بيت المقدس ، أدخل كل يوم الصخرة، وأغلق بابها على نفسى . ثم اشتقت الى الحج ، والاستمداد من بركات مكة والمدينة ، وزيارة الرسول عليه السلام ، بعد الفراغ من زيارة الخليل ، فسرت الى الحجاز .

العودة الى الوطن

ثم جذبتنى الهمم ودعوات الاطفال الى الوطن . فعاودته ، بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع اليه . فآثرت العزلة به أيضا ، حرصا على الخلوة ، وتصفية القلب للذكر .

وكانت حوادث الزمان ومهمات العيال وضرورات المعاش ، تغير فى وجه المراد ، وتشوش صفوة الخلوة . وكان لا يصفو لى الحال الا فى أوقات متفرقة .

انكشاف السر

ودمت على هذه الحال نحو عشر سنين ، انكشف لى فيها طريق الحق ، طريق الصوفية . وعلمت يقينا أن الصوفية

هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الاخلاق ..

وتنكشف لى المكاشفات والمشاهدات حتى أنهم يشاهدون الملائكة ، وأرواح الانبياء ، ويسمعون منهم أصوات .. حتى ينتهى الامر الى قرب ، يكاد يتخيل منه طائفة الحلول ، وطائفة الاتحاد ، وطائفة الوصول ، وكل ذلك خطأ .. اذ هذه أمور لا يمكن التعبير عنها . وتلك الحالة تتحقق بالذوق وسلوك طريقهم . وبان لى من سلوك طريقهم حقيقة النبوة وخواصها .

العودة الى نشر العلم

ثم انى لما واظبت على العزلة والخلوة ، قريبا من عشر سنين ، بان لى فى أثناء ذلك أن الانسان خلق من بدن وقلب. وأعنى بالقلب حقيقة روحه التى هى محل معرفة الله دون اللحم والدم ، الذى يشارك فيه الميت والبهيمة .

وكما أن للبدن أمراضه ، وأدويتها عند الأطباء ، فكذلك للقلب أمراضه المهلكة ، وأدويتها العبادات . والانبياء هم أطباء أمراض القلوب ..

ولما كنت قد فكرت فى مختلف الفرق، الذين يزعمون طلب الحقيقة ، وعرفت من ضعف ايمانهم الكثير ، حتى كان افضاح هؤلاء أيسر عندى من شربة ماء ، لكثرة خوضى فى علومهم وطرقهم ، أعنى طرق الصوفية والفلاسفة والتعليمية والمتوسمين من العلماء .. خطر لى أن من الواجب ترك العزلة .

ولكن ماذا استطيع أن أعمل ؟ وكيف لى أن أقاوم هؤلاء الخلق ؟ .. ما لم يكن هناك زمان مساعد ، وسلطان متدين قاهر .

فآثرت العزلة ، متعللا بالعجز عن اظهار الحق بالحجة .

فقدر الله تعالى أن حرك داعية سلطان الوقت ، فأمرني بالنهوض الى (نيسابور) . وخطر لى أنه يجب ألا أوثر العزلة حبا فى الكسل والاستراحة ، وطلب عز النفس ، وصونها عن أذى الخلق . وتأيد ذلك بمشورة أرباب القلوب الصالحين ، ومناماتهم التى شهدت بأن هذه حركة خير ورشد .

فذهبت الى (نيسابور) فى ذى القعدة سنة تسع وتسعين وأربعمائة . وكان الخروج من بغداد فى ذى القعدة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة . وبلغت مدة العزلة احدى عشرة سنة .

أى علم أنشر ؟

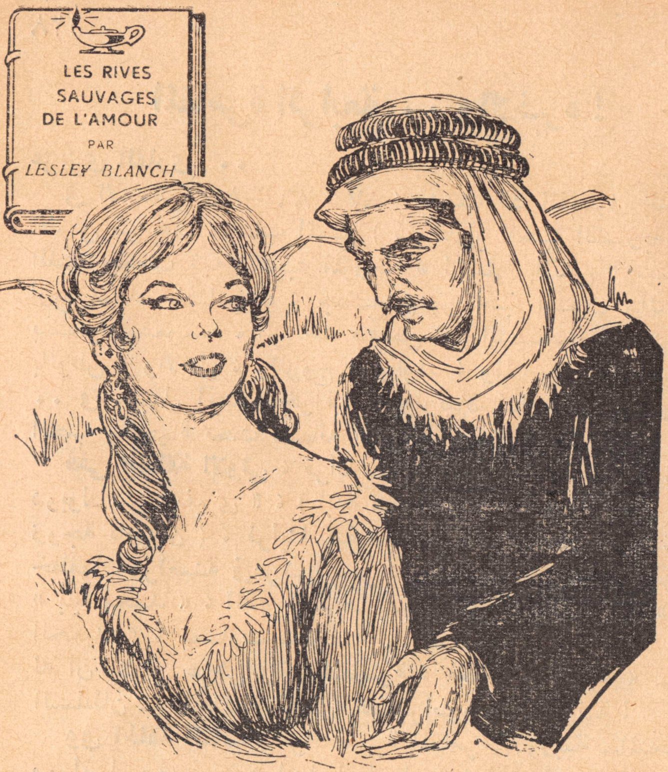
وأنا أعلم أنى، وان رجعت الى نشر العلم، فما رجعت!.. فان الرجوع عود الى ما كان . وكنت فى ذلك الزمان أنشر العلم الذى يكتسب الجاه ، وأدعو اليه بقولى وعملى . وكان ذلك قصدى ونيتى .

وأما الآن فأدعو الى العلم الذى به يترك الجاه ، وتعرف به سقوط رتبة الجاه. هذا هو الآن نيتى وقصدى وأمنيتى ، يعلم الله ذلك منى . وانا أبغى أن أصلح نفسى وغيرى .

ولست أدرى أأصل الى مرادى، أم أموت قبل نوال غرضى؟

دعاء ..

أسأل الله أولا أن يصلحنى، ثم يصلح بى. ويهدينى، ثم يهدى بى ، وأن يرينى الحق حقا ، ويرزقنى اتباعه ، ويرينى الباطل باطلا ، ويرزقنى اجتنابه . وأن يجعلنا ممن آثره واجتباه ، وارشده الى الحق وهداه ، والهمه ذكره حتى لا ينساه ، وعصمه عن شر نفسه حتى لم يؤثر عليه سواه ، واستخلصه لنفسه حتى لا يعبد الا اياه .



شواطئ الحب الضارية

نزوات زوجة !

للاديبة المؤرخة "ليلى بلانش

تلخيص : ماهر مينا

المغامرة الرابعة .. والأخيرة !

عزيزى القارىء ..

فى الاعداد (٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧) قدمت لك الفصول الثلاثة الاولى من هذا الكتاب الممتع (شواطىء الحب الضارية) ، الذى جمعت فيه الاديبة المؤرخة « ليسلى بلانش » سيرة أربع نساء مغامرات ، جمع بينهن حب الشرق والتعلق بسحره وغموضه ، الى حد دفعهن الى التضحية بكل شىء : بالوطن ، والاهل ، والزوج ، والولد ، والماضى ، والمستقبل .. فى سبيل اجتلاء خوافيه ، وارتياد فيافيه ، وممارسة الحب والحياة تحت سمائه المشرقة الصافية ..

ففى الحلقة الاولى ، قرأنا سيرة المغامرة الفرنسية « ايميه دوبوك دى ريفيرى » ، (ابنة عم الامبراطورة « جوزفين » ، زوجة نابليون) ، فرأينا كيف بدأت حياتها فى الدير ، ثم خطفها القراصنة فى عرض البحر ، وأهدوها الى حاكم الجزائر « بابا محمد » ، الذى أهداها بدوره الى سلطان تركيا « عبد الحميد » ، فصارت محظيته .. ثم أنجبت منه ولدا قدر له أن يتولى عرش القسطنطينية ، ففدت « ايميه » ــ أم السلطان ــ الحاكمة الفعلية للامبراطورية العثمانية !

وفى الحلقة الثانية، قرأنا سيرة المغامرة الاوربية ــ المنحدرة من أصل روسى ــ « ايزابيل ابيرار » ، التى أحبت العرب ، ودرست فلسفة الاسلام ، ثم هجرت اوربا لتعيش ــ وتموت ــ فى شمال افريقيا !

وفى الحلقة الثالثة ، قرأنا قصة حياة ومغامرات « ايزابيل ارندل » التى عشقت الرحالة « رتشارد برتون » وتزوجته، كى تجوب معه أقطار الشرق التى شغف بارتيادها !

والآن ، تعال معى نقرأ الحلقة الرابعة والاخيرة من الكتاب:

لم تضن عليها الطبيعة بكل ما تشتهيه امراة من فتنة ، ومال ، وعراقة أصل ، بل أغدقت عليها من هذه النعم بغير حساب ، فاذا بها تصبح قبلة انظار المجتمع اللندنى وشبابه الارستقراطى المثقف ، ومطمع الملوك والأمراء الاجانب الذين راحوا يلاحقونها فى غير كلل، وقد منى كل منهم نفسه بالظفر بحبها والزواج منها ! .. على انها لم تكن بالمرأة التى تقنع بالحياة المستقرة الهادئة التى تخلو من الحب ، وان ظللتها السعادة الزوجية واحاطتها جميع أسباب الجاه والثراء . فلم تلبث طبيعتها النارية ، وعواطفها المشبوبة المختزنة فى قلبها المتعطش ، ان دفعتها الى هجر زوجها وأولادها ، وارتياد شواطىء الحب الضارية ، غير عابئة بما كانت تثيره وراءها من فضائح وزوابع تزلزل أركان المجتمع الانجليزى الصارم، ويتردد صداها بين أرجاء مجلس اللوردات ذاته !.. **وكانت تحسب انها سيدة مصيرها ، وانها مهتدية حتما الى ذلك المصير اذا ما سعت هى اليه ، فقضت حياتها تخوض المغامرات العاطفية ، متنقلة من حب الى حب ، متوهمة ـ فى كل مرة ـ انها بلغت غايتها المنشودة** ، وما ان كانت تبرأ من الجراح التى خلفتها لها تجربتها الفاشلة ، حتى يتملكها أمل جديد أشد قوة من سابقه ، فاذا به يدفعها الى معاودة الكرة والمضى فى طريق المجهول .. الى أن انتهى بها المطاف فى بلاد الشرق البعيدة ، حيث وجد القلب الولهان ـ بعد طول انتظار وتجارب مضنية ـ سيده ومولاه !

تنشأ فى بيئة مشبعة بسحر الشرق

ولدت «جين ديجبى» فى عام ١٨٠٧ ، فى مقاطعة (نورفولك) بانجلترا ، من اسرة عظيمة الثراء ، عريقة الحسب ، تتمتع

بهيبة كبيرة كادت تبلغ مسامع المجتمعات الراقية التى تضمها العاصمة .. ومنذ فجر صباها ، تفتحت عينا « جين » على المناظر الريفية الساحرة ـ بجوها الحالم الخلاب ـ التى كانت تحوط بحياتها من كل جانب . وكانت نفسها المرهفة تهتز لمشهد الفسق بأشعته الذهبية الصافية التى راحت تنعكس على وجوه الفلاحين وهم يلهون ويلعبون فى ساحات القرى ، بينما كانت مياه النهر تنساب عذبة هادئة فى رحلتها اللانهائية .. **وكان سحر الشرق قد بدأ يداعب خيال الفنانين ، فيوحى الى الرسامين بلوحات تمثل شروق الشمس أو غروبها على الصحراء ، والى الموسيقيين بألحان شرقية شجية كانت تطرب الانجليز وتستحوذ على مشاعرهم ، فتدفعهم الى التعلق بذلك الشرق الرومانتيكى البعيد بسحره وغموضه الآسرين !** .. وكان لابد لفتاة مثل « جين » ، أوتيت عاطفة متأججة ، وخيال متقد ، ان تتأثر بذلك الجو الشاعرى ، وان تعشق بلاد الشرق ، وتتوق نفسها الى مشاهدتها ، حتى لقد عقدت العزم ـ بينها وبين نفسها ـ على أن ترحل اليها فى أول فرصة تواتيها ، سيما وان الترحال وارتياد الاقطار النائية كانا من تقاليد أسرتها ومن أحوالها المألوفة .. فقد كان والدها «الاميرال ديجبى» معروفا برحلاته البحرية الحافلة التى جلبت له لقب « ذئب البحار» ؛ لما كان يبثه من رعب وهلع فى قلوب أعداء انجلترا . وحين بلغت «جين» الثانية عشرة من عمرها ، رأت ابن عمها « هنرى انسن » يهجر بلاده ويرحل الى (مكة) ، متنكرا فى ملابس عربية ، كى تتاح له زيارتها التى كانت محرمة على الأوروبيين . فكان لكل تلك الأمور أثرها البالغ فى تشكيل ميول الفتاة وتكوين مزاجها ، ودفعها الى التطلع الى ذلك الشرق البعيد الذى بات حبه يملأ قلبها ويشغل بالها !

مجون زوجها المسن ، يطيح بحياتها الزوجية !

على انها لم تكد تبلغ السابعة عشرة من عمرها ، حتى كانت قد صارت فتاة مكتملة الانوثة ، رائعة الحسن ، لامعة الذكاء ، تستأثر بحب جميع المحيطين بها واعجابهم . وسرعان ما قرر والداها أن يستغلا ما أوتيته ابنتهما من نعم طبيعية ، لتزويجها من رجل من الطبقة الارستقراطية الانجليزية ، صاحب اسم وجاه ، يكفل لها الحياة الكريمة التي الفتها في بيت اسرتها . **وما لبثا ان عثرا على ضالتهما المنشودة فى شخص رجل موسر ، ذى مكانة اجتماعية مرموقة ، ماجن الطباع ، متقدم فى السن ، يدعى « اللورد النبورو » !**

على أن زوجا من ذلك الطراز ، ما كان ليقدر على اسعاد فتاة لها طبيعة « جين » وشبابها وحيويتها . وسرعان ما بدأ النزاع يدب بين العروسين ، وهما بعد فى الأيام الأولى من شهر العسل ، واذا بالزوج يهجر عروسه ، وينصرف عنها باحثا عن فتاة أخرى يعيش بجوارها ويلهو معها ، علّه ينسى تجربة زواجه الفاشل ! .. وأخذت الشائعات تتواتر بين ارجاء المجتمعات اللندنية ، كاشفة النقاب شيئا فشيئا عن فضيحة اللورد الثرى الذى هجر زوجته الفاتنة ، وراح يعيش حياة لا تليق برجل له سنه وهيبته ! . **ولعل «جين» قد ارتضت تصرف زوجها فى البداية على اعتبار انه وضع طبيعى ، فسلمت بالأمر الواقع** ، وراحت تأمل — فى صبر — ان يكف زوجها الشيخ عن غيه ، وان يعود اليها تائبا نادما ، فيستأنفا حياتهما الزوجية الأولى !

حبها الأول !

واذ ذاك وقعت لجين أول مغامرة من سلسلة مغامراتها

العاطفية التى قدر لها ان تقلب حياتها رأسا على عقب ! ..
ففى عام ١٨٢٧ ، التقت بشاب انجليزى ، وسيم القسمات، فى السابعة والعشرين من عمره ، يدعى «فريدريك مادن» . وكان الشاب يشغل احدى الوظائف بالمتحف البريطانى ، فأراد والد « جين » ان يستعين به لجرد محتويات مكتبة قصر (نورفولك) واعادة تنظيمها . وفى أحد أيام الربيع ، وفيما كان « مادن » غارقا بين الكتب ، عاكفا على ترتيبها ، اذا بالقدر يدفع «الليدى النبورو» الى الحضور الى القصر لزيارة اسرتها .. وكانت امرأة فى نحو العشرين من عمرها ، أشد ما تكون فتنة وجمالا ، ذات عينين زرقاوين تبهران الناظر اليهما من فرط سحرهما . ولم يلبث « مادن » ان وقع فى غرام « جين » ، كما تدلهت هى الاخرى فى حبه ، واذا بهما لا يفترقان منذ ذلك الحين ، ويقضيان اوقاتهما فى تجاذب أطراف الحديث والتريض بين حدائق القصروالحقول المجاورة ، بعيدا عن أنظار الفضوليين !

على انها سرعان ما بدأت تحس بالندم ووخز الضمير لما اقترفته من جرم فى حق الأمانة الزوجية ، فقررت ان تضع حدا لعلاقتها بمادن ، وان تتجنب لقاءه ما استطاعت الى ذلك سبيلا ..وان هى الا أيام ، حتى غادرت منزل اسرتها فجأة ، وقفلت عائدة الى لندن .. وحاول الشاب اللحاق بها هناك واستئناف علاقتهما الغرامية ، بيد أن « جين » ظلت تحرص عى تجنبه والتهرب منه ، حتى أسقط فى يده ، فلم يقدر لهما أن يلتقيا قط بعد ذلك !

تعشق الأمير من النظرة الأولى !

وفى شهر فبراير من عام ١٨٢٨ ، رزقت « جين » بطفل أسمته « ارثر » تيمنا بالدوق « ولنجتون » رئيس وزراء

بريطانيا فى ذلك الحين .. ولما كان زوجها اللورد يتوق الى أن يكون له وريث يحمل اسمه ويخلفه فى ادارة ممتلكاته الشاسعة ، فقد بادر يعترف ببنوته للطفل . ومضت فترة صدر بعدها قرار بتعيين « اللورد النبورو » فى منصب حامل الاختام فى وزارة ولنجتون، فما ان تولى مهام منصبه الجديد حتى بدأ يهمل زوجته ويتجاهلها تماما ، سواء فى حياتهما الخاصة أو فى المجتمعات التى كانت تحتم عليهما الظروف أن يغشيانها ! .. **واذ ذاك أحست « جين » انها قد تحررت من القيود التى تفرضها عليها الحياة الزوجية ، وانه قد بات فى وسعها أن تجابه وتتحمل جو الفتور الذى يخيم على علاقتها بزوجها** ، فلما التقت بعد ذلك بالأمير النمسوى ، الذى قدر له أن يشغل حياتها الفارغة أمدا من الوقت ، كانت قد صارت امرأة ناضجة العواطف مكتملة الأحاسيس، تستطيع أن تقع فى الحب من النظرة الأولى !

فلقد هيأت لها الظروف ان تلتقى بأمير نمسوى شاب ، يعمل سكرتيرا بسفارة بلاده فى لندن ، ويدعى « فليكس شوارزنبرج » ..وسرعان ماهامت به حبا من النظرة الأولى، واذا بها تصبح عشيقته ، وتهجر بيتها لتمضى معه الساعات الطوال فى مسكنه الانيق بشارع « هارلى ستريت » ، غير عابئة بالنظرات والاقاويل التى راحت تلاحقها مستنكرة مسلكها الفاضح المشين الذى قلما شهد مثله أهالى لندن الشديدو الحرص على التقاليد والمبادىء الاخلاقية . وقد أغضب أسرة جين ان زوجها كان غافلا عن فضيحة امرأته ، فى الوقت الذى لم يكن فيه للنوادى والمجتمعات من حديث سوى مغامرة زوجة اللورد حامل اختام المملكة مع الامير النمسوى الوسيم !

على ان النبأ ما لبث ان بلغ مسامع اللورد الغارق فى

أعماله ومشاغله، فاذا به يقرر ان يسير على الفور فى اجراءات الطلاق ، صونا لاسمه وكرامته . وفى تلك الاثناء ، كان الامير العاشق قد غادر انجلترا عائدا الى بلاده .. وسواء كان قراره هذا صادرا عنه هو ، أو جاء بناء على تعليمات من وزارة خارجية النمسا ، فقد أعلن بعد حين انه قد نقل الى السفارة النمسوية فى باريس !

تلحق بعشيقها فى باريس !

ولم تكن « جين ديجبى » بالمرأة التى يعرف اليأس سبيلا الى قلبها ، أو بالتى تسمح لأية عقبة بأن تقف فى طريقها ، سيما اذا كان الأمر متعلقا بالعيش بجوار الرجل الذى أحبته !.. وعبثا حاول والداها ان يذكراها بواجباتها نحو بيتها وزوجها ، أو حتى نحو ولدها الذى كان مايزال طفلا ، فقد عقدت العزم على أن تهجر قومها وبلدها، وتلحق بحبيبها فى باريس لتنعم معه بالسعادة والحب . **ولم يكن هروبها من انجلترا يرجع فى الواقع الى رغبتها فى تجنب فضيحة غرامها هناك ـ فما كانت لتأبه بالفضائح التى تكتنف حياتها ـ بقدر ما كان يرجع الى تلهفها على رؤية عشيقها والاستمتاع بالحياة فى كنفه !**

ولكنها لم تكد تصل الى باريس ، حتى وجدت ان عاطفة الامير قد انطفأت جذوتها ، وانه بدأ يعاملها فى فتور وتحفظ لم يخفيا عليها .. والحق أن الشاب كان ذا اخلاق لا تكاد تشبه من قريب أو بعيد طبيعة عشيقته العاطفية المندفعة .. لم يكن بالمخلوق الساذج الذى يجرفه الحب فى تياره الخطر المجهول العواقب ، بل لعله لم يكن يؤمن بالحب على الاطلاق ، سيما وانه لم يكن ينتوى ـ فى قرارة نفسه ـ ان يسعى لتطليق « جين » ليتزوج منها هو .. فقد كان هذا

المسلك خليقا بأن يغضب اسرته الكاثوليكية المحافظة ، وان يقضي على مستقبله باعتباره موظفا فى وزارة الخارجية !.. حقيقة ان عشيقته كانت من أجمل نساء عصرها وأوفرهن سحرا وجاذبية ، وانها قد ضحت من أجله بكل شيء : ثروتها ، وسمعتها ، وأهلها ، وأصدقائها ، **بيد انه كان قد بدأ يرى ان ذلك الوضع ما كان ليستمر الى الابد ، وانه يسبب لكلاهما حرجا وضيقا لا قبل لهما بهما !** .. ولم يكن انجابها منه طفلتين — فى الفترة التى عاشتها بجواره — ليجدى شيئا فى التقريب بينهما مرة أخرى ، أو توثيق عرى رابطتهما بشكل يسمح لهما بالاستمرار فى الحياة معا .. وعلى هذا النحو ، فحين شرع « اللورد النبورو » فى اتخاذ اجراءات الطلاق ضد زوجته فى لندن ، كانت « جين » تقف بمفردها لمجابهة محنتها الجديدة !

الطلاق فى انجلترا .. بقرار من البرلمان !

وكان الطلاق فى انجلترا فى ذلك الحين امرا نادر الحدوث، ويتطلب قدرا كبيرا من المال والوقت ، حتى أن قليلين من الانجليز كانوا يستطيعون مواجهة مشكلاته واعبائه .. **فقد كان يتعين أولا الحصول على موافقة البرلمان ، ثم يعرض الامر بعد ذلك على المحاكم الدينية ، التى لم يكن يجوز لها أن تقرر أكثر من « الفصل بين الزوجين »** .. وكان على طالب الطلاق بعد ذلك أن يرفع دعوى بالتعويض ضد عشيق زوجته (لم يكن يحق للزوجات المخدوعات ان يقمن مثل هذه الدعوى ، بل كان عليهن أن يتحملن ما لحق بهن من اضرار فى خضوع واستسلام !) حتى اذا حكمت المحكمة المدنية بالتعويض ، صار فى مقدور المدعى الاقدام على الخطوة التالية . فقد كان عليه أن يحصل من مجلس اللوردات على

قرار نهائى يخول له الزواج مرة أخرى . فاذا وافق المجلس – بعد بحث المستندات والاستماع الى الشهود – على طلب صاحب الدعوى ، أحيل الأمر برمته الى مجلس العموم لبحثه من جديد . حتى اذا أقره مجلس العموم بدوره ، استصدر به مرسوم ملكى ليصبح سارى المفعول بعد ذلك !

ومن ثم لم يكن غريبا ان حالات الطلاق لم تكن تتجاوز في ذلك الحين حالة واحدة أو حالتين سنويا ! .. وظل هذا الوضع قائما حتى عام ١٨٥٦ حين انشئت محاكم الطلاق والاحوال الشخصية ، بالرغم من معارضة الكنيسة وحملات « جلادستون » العنيفة !

تطلق من زوجها ، ولكن ..

على أن « جين » لم تكن فى حال تسمح لها بالتفكير فى انابة من يتولى الدفاع عنها فى القضية التى رفعها عليها زوجها ، بل لعلها لم تكترث باجراءات القضية على الاطلاق .. فقد كانت تقاسى من اليأس والانهيار اللذين خلفهما فى نفسها قيام القطيعة بينها وبين « شوارزنبرج » ، وكان طفلها الأول « ارثر » قد قضى نحبه قبل بضعة أشهر ، فلم يعد ثمة وريث « للورد النبورو » .. ومن هنا ، فحتى لو قد رغبت فى العودة الى زوجها ، لم يكن هناك شىء يمكن أن يجمع بينهما مرة أخرى . وبذلك قرر اللورد أن يمضى فى اجراءات الطلاق حتى نهايتها !

غير أن دعوى الطلاق التى أقامها اللورد ضد زوجته الخائنة ، ما لبثت أن لاقت معارضة لم تكن فى الحسبان .. **فعلى الرغم من أن الزوج كان قد خدع بطريقة سافرة لاتقبل جدالا ، فانه لم يحظ الا بقدر ضئيل من العطف والتأييد من**

جانب الرأى العام الانجليزى ، وخاصة من جانب الطبقة الارستقراطية . ومع أن أحدا لم يحاول أن يبرىء ساحة الزوجة المتهمة ، فقد راح اللوردات يؤكدون أن القضية تنطوى على حلقة مفقودة وأمور غامضة ، وانهم يشمون فيها رائحة التواطؤ والتضليل .. اذ ما الذى يدعو اللورد الى أن يطلب الطلاق من زوجة لم يفكر قط فى أن يعاملها معاملة كريمة ؟ .. وفيم هذه الأهمية التى أخذ يعلقها فجأة على عفاف زوجته وطهرها ؟.. والا ، فما الذى جعله يهمل امرأة فاتنة لم تتجاوز العشرين ربيعا ، فيدعها تنام الليالى الطوال بمفردها ، وتغشى مجتمعات لندن فى غير صحبته ؟ !

ومن ثم ، لم يكن مجلس اللوردات راضيا كل الرضا عن وقائع الدعوى ، **بل لقد راح بعضهم ينظر الى ((جين)) على انها ضحية زوجها ، وانها ما كانت لتقترف ما اقترفت على ذلك النحو المشين ، لولا اهمال زوجها لها ، وعدم اكتراثه بها ، المتعمدين !** .. وساد الاعتقاد بأن اللورد كان قد قصد ان يتخلص — بطريقته الخاصة — من زوجة رأى انها غير صالحة له ، وانه ابتز سرا من الأمير العشيق مبلغ خمسة وعشرين الفا من الجنيهات ، حتى لا يضطر أن يدفع من جيبه نفقة زوجته بعد تطليقها !

على أن قرار الطلاق سرعان ما صدر مع ذلك .. **ولكن اذا كان الزوج والعشيق قد أظهرا خسة ودناءة فى مسلكهما تجاه ((جين)) ، فان البرلمان كان أكثر شهامة ونبلا نحو امرأة حزينة يائسة ..** فقد تعمد أن يغفل اصدار القرار الذى يحرم — فى مثل تلك الأحوال — على الزوجة المذنبة أن تتزوج من شريكها ، وبذلك ترك لها الحرية فى أن تتزوج من الامير اذا شاءت !

توحى الى « بلزاك » باحدى بطلاته !

ظلت « جين » على علاقتها بالامير فى باريس من عام ١٨٢٩ حتى عام ١٨٣١ . ولكن لما كان « شوارزنبرج » لا يفكر فى الزواج منها ، فان حياتها المتحررة معه ما لبثت أن أضفت على شخصيتها سحرا جديدا فى نظر المجتمعات الفرنسية الراقية ، **فاذا بها تغشى مختلف الدوائر الادبية ، وتتعرف الى نجوم المجتمع ، وتختلط بمشاهير الكتاب والادباء .** وسرعان ما توثقت اواصر الصداقة بينها وبين الروائى الفرنسى الأشهر « اونوريه دى بلزاك » الذى لمح فيها على الفور – بما عرف عنه من دقة ملاحظة ولماحية شديدة – السمات ألشرقية الصميمة والانفعالات العارمة التى قدر لها أن تنمو وتزداد فيما بعد ، كاشفة عن حقيقة تلك المرأة الانجليزية ! .. ولم تلبث « جين » ان أوحت اليه بشخصية « ليدى ارابيلا دودلى » فى رواية « زنبقة الوادى » .. **وقد صورها « بلزاك » فى روايته مخلوقا عنيف الطباع ، ذا شهوة جامحة ، يملك الحب عليه كل جوارحه ، ولا ينتمى الى دسائس ((الصالونات)) ومكائدها ..** ووصف مشاعرها بانها « أفريقية » ، وشبه أهواءها ونزواتها بالاعاصير التى تجتاح الصحراء المحرقة !!

على أن العلاقات بينها وبين عشيقها أخذت تتدهور شيئا فشيئا منذ ذلك الحين ، حتى اذا حلت أواخر عام ١٨٣١ ، رحل الامير عن باريس عائدا الى بلاده ، فلم تلبث « جين » ان سئمت الحياة هناك بمفردها ، وبدأت تحس بالوحشة بعد أن هجرها حبيبها ، **فاذا بها تغادر باريس بدورها منطلقة على غير هدى ، دون أن تدرى انها قد خطت بذلك خطوة أخرى نحو الشرق ، خاتمة مطافها ..** وانها كانت

تسير صوب شواطىء حب جديدة كتب عليها أن ترتادها ، فتسعد بها وتقاسى منها !

تغدو عشيقة ملك بافاريا !

حين رحلت « جين » عن باريس ، كانت ما زالت نجما متألقا يحظى باهتمام جانب كبير من الرأى العام فى فرنسا ، حتى لقد راح سفرها المباغت يثير العديد من التأويلات والتقولات بين كبار شخصيات المجتمع : فمن قائل انها أضحت عشيقة للملك « برنادوت » عاهل السويد ، ومن زاعم انها هربت مع ابن صاحب أحد الفنادق ، بل لقد ذهب بعضهم الى حد التأكيد بأنها اعتزلت الحياة ولاذت بأحد الاديرة ! .. ولكن سرعان ما اتضح انها قد شدت الرحال الى (ميونخ) ، وانها اختارت ــ فى تلك المرة ــ ملك (بافاريا) عشيقا جديدا لها !

وكانت « جين » ــ بعد مغادرتها باريس ــ قد قصدت الى (ميونخ) ، فلم يكد يستقر بها المقام هناك ، حتى راحت شهرتها كامرأة لها ماض صاخب حافل بالغراميات والفضائح تجتاح مجالس علية القوم والنبلاء من البافاريين ، فاذا بها تثير ضجة مدوية حولها ، واذا بالاضواء تسلط عليها مرة أخرى ، فلم يمض طويل وقت حتى تلقت دعوة بزيارة البلاط الملكى والتردد عليه وقتما تشاء .. **وبعد فترة وجيزة ، استطاعت ــ عن طريق بعض اصدقائها فى القصر ــ أن تلتقى بالملك لويس الاول وان تقدم اليه ، فلم يلبث هذا أن أخذ بحسنها وفتن بشخصيتها ، فاتخذها عشيقة له .** ثم عهد الى رسام البلاط الخاص برسم لوحة لها كى يضمها الى مجموعة لوحاته الاخرى التى كان يحلو له أن يتأملها كل يوم فى نشوة وطرب بالغين !

وعاشت « جين » فى (ميونخ) حياة تخيم عليها السعادة والطمأنينة . وكان الملك لا يفتأ يشجعها على الاهتمام بمختلف الفنون وتذوقها ، واستطاع أن يبث فيها حبه لبلاد اليونان التى قدر لها ان تلعب دورا حاسما فى حياتها فيما بعد . فأخذت تتلقى دروسا فى النحت والرسم واللغة الاغريقية القديمة ، وكان الملك يستشيرها فى جميع مشروعاته الفنية والعمرانية التى كان يحرص على أن تكون متميزة دائما بالطابع الاغريقى ، فلم تكن عشيقته تخيب ظنه قط ، بل كانت تحتفظ بثقته وتقديره على الدوام !

تتزوج للمرة الثانية !

ولعل « جين » حسبت انها قد بلغت فى حياتها الهانئة مع الملك لويس غايتها المنشودة التى طالما هفت اليها نفسها الهائمة الحائرة ، وانها وجدت فى كنفه الحب والاستقرار الحقيقيين اللذين ظلت تفتقدهما حتى ذلك الحين . بيد انها كانت واهمة كل الوهم ، اذ ان علاقتها بملك بافاريا لم تكن سوى حلقة جديدة فى سلسلة مغامراتها العاطفية ، التى قدر لها ان تنساق فى تيارها ــ الواحدة تلو الاخرى ــ حتى آخر أيامها !

فلم تنقض أشهر قلائل على مقامها فى ميونخ ، حتى علمت اسرتها فى انجلترا ــ فى ارتياح كبير ــ انها اقترنت من نبيل بافارى ثرى يدعى «البارون كارل تيودور فون فيننجن» .. ودار اذ ذاك همس يزعم ان الملك هو الذى دبر زواج عشيقته كى يضمن لها مكانة رسمية فى البلاط ، وحتى يكفل لولده المنتظر ميلادا شرعيا لا تشوبه شائبة !.. لكن البارون كان شابا وسيم الملامح ، واسع الثراء ، شديد الاباء ، ومن ثم فمن المستبعد ان يكون قد قبل الزواج من « جين »

لمجرد « تغطية » علاقة الملك بها .. فضلا عن أن الطفل سرعان ما ظهر انه صورة مطابقة لأبيه البارون ، مما وضع حدا لجميع الشائعات التى راجت حول انتمائه الى الملك لويس !

ولكن أحدا لم يعلم - على وجه التحقيق - كيف استطاع البارون ، وهو الرجل الكاثوليكى الشديد الولاء لكاثوليكيته، ان يحصل من الكنيسة على تصريح بالاقتران من امرأة مطلقة، وان يكن من المرجح ان الملك قد تدخل شخصيا لدى البابا فى هذا الشأن ! .. وكيفما كان الأمر ، فقد عقد الزواج فى ايطاليا فى يوم ١٠ من نوفمبر عام ١٨٣٢ . وكان الملك يزور (صقلية) فى ذلك الشتاء ، وما أن حل شهر ديسمبر حتى وضعت « جين » طفلا فى (باليرمو) أسمته « هيريبرت » .. ولبث آل « فيننجن » بعد ذلك عامين فى (صقلية) نعموا خلالهما بالشمس الدافئة والسعادة الغامرة . واعتقد البارون انه نجح فى ترويض زوجته ، وانها برئت من حب التجوال والتنقل ، **بيد أن الاسرة لم تكد تعود الى (ميونخ) وتستقر فى ضيعة البارون ، حتى عاود « جين » داؤها القديم ، وبدأت تضيق ذرعا بدورها كربة أسرة ، دائرة حياتها ضيقة محدودة** ، فاذا بها تنطلق سعيا وراء ما اعتبرته مجرد لهو وتسلية ، ولو انه كان فى واقع الأمر بحثا عن المغامرات والمخاطر والحياة المتجددة التى طالما دفعتها اليها طبيعتها القلقة الشريدة !

بين الزوج .. والعشيق !

وفى احدى الحفلات التى أقيمت فى البلاط ، التقت «جين» بالكونت « سبيريدون تيوتوكى » ، وكان شابا ينحدر من اسرة يونانية عريقة ، لا يكاد يملك من حطام الدنيا شيئا ،

وان لم يحل ذلك دون ان يكون مزهوا فخورا شديد الاعتداد بنفسه ! .. **وقد لمحت فيه جين على الفور اشراقة أملها ومغامرة حياتها اللتين حرمها منهما زواجها من البارون !** ومع أنها كانت تحب زوجها وتعجب بشخصيته النبيلة المستقيمة ، فانه لم يكن يسعها ان تتصور نفسها – وهى بعد فى السابعة والعشرين من عمرها – ربة أسرة كتب عليها أن تعيش حياة هادئة مستقرة جرداء ، لا تتألق سماؤها بومضات العشق والهوى !

فلم يكد آل فيننجن ينتقلون الى ضيعتهم بمدينة (باد) ، حتى تبعهم الكونت اليونانى على وجه السرعة ، واستقر على مقربة منهم فى (هايدلبرج) . وتعددت النزهات الخلوية بين العاشقين ، فكانا يلتقيان بين الحقول النائية والغابات الكثيفة المنعزلة ، وكانت جين تقطع مسافة طويلة على صهوة جوادها لكى تلقى بنفسها بين ذراعى «سبيريدون» ، فى الوقت الذى كان فيه زوجها يتفقد أراضى ضيعته ، خالى الذهن عما كانت تقترفه زوجته وراء ظهره !

على ان الامور ما لبثت فى النهاية ان عكرت على العاشقين صفو غرامهما . فقد بدأ البارون يرتاب فى مسلك زوجته ، **ولما لم يكن من الرجال الذين يرتضون ان تخدعهم زوجاتهم دون أن يحركوا ساكنا ، فقد قرر أن يضع جين تحت رقابة شديدة ، حتى يتبين حقيقة أمرها !** .. وبعد أيام ، أقيم حفل فى البلاط تكريما لملك بروسيا ، واذا بالزوج يفطن الى تغيب زوجته وعشيقها أثناء الحفل ، فهرع فى الحال الى عربته التى كانت تنتظر فى الخارج ، وانطلق مسرعا فى أثر الهاربين . وما أن لحق بهما ، حتى أخرج غدارته ولوح بها فى وجه الكونت ، داعيا اياه الى منازلته ! .. **وجلست جين ترقب نتيجة المبارزة وقد تملكها الهلع ، بينما وقف سائق**

العربة ورفيقه يقومان بدور الشهود • وسرعان ما انطلق رصاص المسدسين، واذا بتيوتوكى يتهاوى مضرجا فى دمائه، وقد أصيب بجرح خطير فى صدره . ومع انه بدا ان الجريح يوشك أن يلفظ آخر أنفاسه ، فقد استطاع ان يقسم لغريمه من خلال زفراته المتهدجة المتلاحقة أن حبه لجين كان طاهرا بريئا، وانه لم يحدث بينهما ما يخدش الشرف أو يمس العرض ! .. وكان البارون شهما نبيلا ، فوافق على نقل الرجل المحتضر الى قصره ، حتى يقضى نحبه هناك .. أو تضمد جراحه ان كانت ثمة جدوى ترجى من اسعافه !

وبعد أيام ، استطاع الكونت ـ بفضل ما احاطته به جين من رعاية واهتمام ـ ان يسترد قواه، وان يعد عدته للرحيل .. **وتحتم على الزوجة اذ ذاك ان تحسم موقفها ، فتختار بين الرحيل مع العشيق الذى كان قد ازداد ـ فى تلك الاثناء ـ تدلها فى هواها ، أو البقاء مع زوجها وأولادها الصغار ، وارتضاء حياة الهدوء والاستقرار** .. على انها ما لبثت ان اتخذت قرارها ، فاذا بها تعقد العزم على أن تتخلى مرة أخرى عن حياتها الزوجية ، وتنطلق سعيا وراء الحب وبحثا عن **المغامرة !**

من ميونخ .. الى باريس .. الى اثينا !

وغادر العاشقان ميونخ قاصدين الى باريس ، وقد عولا على أرجاء سفرهما الى اليونان ـ موطن تيوتوكى ـ اذ رأيا من الحكمة الا يجاهرا بحبهما أمام المجتمع اليونانى المتزمت الذى ما كان ليسمح بقيام علاقة غير مشروعة بين رجل وامرأة ..

وبعد سنوات أمضتها جين وعشيقها فى باريس ، ونعما خلالها بكل ما يشتهيه قلباهما المتعطشان من حب وسعادة ،

استطاعا أن يدبرا أمر طلاق جين من زوجها البارون ، وان يعقدا قرانهما توطئة لسفرهما الى اليونان . وفى عام ١٨٤١ غادرا باريس نهائيا ، الى جزيرة (كورفو) اليونانية ، مسقط رأس تيوتوكى .. وما أن وصلت جين ، حتى لقيت من أسرة زوجها ترحيبا وحفاوة لا حد لهما ، فلم تلبث أن أحبت أفرادالاسرة بدورها ، وعاشت بينهم حياة يرفرف عليها الهناء والوئام !

على أن الزوجين سرعان ما اضطرا الى مغادرة جزيرتهما السعيدة والانتقال الى (اثينا) ، بعد أن صدر مرسوم ملكى بتعيين الكونت ياورا خاصا لملك اليونان ! .. **وكانت جين اذ ذاك فى أوج سحرها وجمالها ، فلم يكد يستقر بها المقام فى العاصمة ، حتى ألفت نفسها محوطة بعدد كبير من العشاق والمعجبين ، واذا بالملك ذاته تبهره فتنتها ، فيقع فى هواها .. ويتخذها خليلة له !**

ولما انكشفت فضيحة الملك الغرامية ، بدأت الغيرة تدب فى قلب الملكة ، التى رأت فى جين مزاحمة خطيرة لها ، بعد أن استحوذت على قلب الملك واستأثرت بحب واعجاب العديد من رجال البلاط ، وجانب كبير من الشعب اليونانى . وراح الفتور — من ناحية أخرى — يخيم شيئا فشيئا على العلاقة بين جين وزوجها ، فلم يمض طويل وقت ، حتى انفصلا تماما ، وسار كل منهما فى طريقه !

الملكة تنتقم !

وفى ذلك الحين ، وقعت حركة تمرد فى البانيا — التى كانت تخضع للحكم اليونانى — وراحت تتسع بشكل ينذر بأوخم العواقب بالنسبة لحكومة اثينا .. وأراد الملك استرضاء الثوار لاخماد حركتهم ، فقرر أن يستدعى

زعيمهم – وكان يدعى « حاجى بطرس » – وأن يعينه ياورا خاصا له ، بدلا من الكونت تيوتوكى زوج جين الذى كان على خلاف معها !

وكان القدر يدخر لجين قصة حب جديدة .. اذ لم يكد الثائر الألبانى يفد الى اثينا ، ويلتقى بها فى قصر الملك ، حتى هامت به حبا ، على نحو عنيف لم تعهده فى نفسها من قبل ، رغم ماضيها الحافل بتجاربها العاطفية المتلاحقة !

.. ولم يعنها قط ان الياور الجديد كان فى الستين من عمره ، وانه كان أبا لعدد من الأولاد . فقد رأت فيه بطلا ثائرا ، يفيض رجولة وقوة ، وتنبعث منه رائحة النار والمغامرة ، ويمثل الحب والخيال اللذين طالما هفت نفس جين اليهما . فأخذت تصاحبه فى جولاته حول الجبال ، وترتاد معه الصحراء المترامية ، مشاطرة اياه ما كان يخوضه من مغامرات ومخاطر ، محققة بذلك أمنية حياتها التى جعلتها منذ فجر صباها تتطلع الى زيارة البيداء والعيش بين ارجائها !

وطفقت ((جين)) تفكر فى الطلاق من تيوتوكى كى تتزوج من بطلها الألبانى .. وكانت الملكة تتابع علاقتها ببطرس ، وقد وجدت فيها فرصة سانحة للانتقام ! فما ان شرعت العاشقة المغامرة تسير فى اجراءات الطلاق ، تمهيدا لزواجها الجديد ، حتى ضربت الملكة ضربتها . فصدر قرار – على حين غرة – بعزل « حاجى بطرس » من منصبه ، وابعاده عن البلاط !

.. وبادر الالبانى يكتب الى الملكة مستعطفا ، ملتمسا اعادته الى منصبه ، مفسرا مسلكه بقوله : **((اننى اذا كنت أبغى الزواج من تلك المرأة ، فما ذاك بدافع حبى لها ، وانما تحت وطأة الحاجة والمصلحة .. فهى غنية ، وأنا فقير ، لدى مكانة أريد المحافظة عليها ، وأولاد أحرص على تربيتهم !!)).**

ولكن الملكة لم تستجب لالتماسه ، وانما عمدت ـ بدلا من ذلك ـ الى نشر الخطاب واذاعة فحواه على الملأ !

تشد الرحال الى الشرق !

وكانت « جين » متسامحة الى أبعد حدود التسامح مع « بطرس » ، فلم تلمه قط على الطريقة التى فسر بها علاقتهما للملكة، ولم تمسك عن امداده بكل ما كان يطلبه منها من مال ، بل ظلت على تفانيها فى حبه وولائها له ، رغم انكشاف حقيقة مشاعره نحوها !

ولكن لما كانت اثينا بأسرها ـ والملكة على وجه الخصوص ـ تستنكر مسلك جين المشين المتمثل فى علاقتها غير المشروعة بعشيقها الألبانى ، فقد قرر العاشقان أن يكفا عن معاشرة أحدهما للآخر ـ ولو الى حين ـ حتى لا يزيدا من نقمة الرأى العام عليهما . فاستأجرت « جين » مسكنين متجاورين فى أحد أحياء المدينة المنزوية ، وأقامت فى أحدهما مع خدمها ، تاركة المسكن الآخر لبطرس ليشغله مع بعض اتباعه وانصاره !

ومضت حياتهما ـ حقبة من الزمن ـ صافية ناعمة ، لا تعكر سماءها غيوم أو زوابع .. **الى أن اكتشفت « جين » ذات يوم ان بطرس كان على علاقة غرامية بوصيفتها « ايجينى » ، فكان وقوفها على خيانة حبيبها ضربة قاصمة لحبها وكبريائها** ، ليس فقط لأنها كانت مخلصة فى حبها للعشيق الغادر ، وانما أيضا لان وصيفتها كانت منذ سنوات طويلة رفيقتها الوفية الكتومة ، وموضع سرها فى مغامراتها العاطفية المتتابعة التى يحفل بها ماضيها .. وكانت الصدمة هذه المرة أشد من ان تتحملها جين . فلم تلبث أن أصدرت أوامرها لوصيفتها بحزم الامتعة تأهبا للسفر ، دون أن

تكشف عن وجهتها لأحد .. **وحتى اذا انتهت من اعداد كل شىء ، غادرت أثينا ـ تصحبها ايجينى ، (التى كانت سيدتها من النبل بحيث غفرت لها أساءتها) ـ مقلعة الى الشرق .. الى سوريا ،** علها تدفن فى ذلك المحيط الجديد ما يفيض به قلبها من أشجان وأحزان ، فتنسى ذكرى غرامها الفاشل !

العشق يلاحقها أينما حلت !

حين وصلت « جين ديجبى » الى سوريا ، كانت تحسب انها قد صارت امرأة محطمة القلب ، لا تستطيع أن تقع فى الحب مرة أخرى ، وان حياتها كامرأة مغامرة تسعى الى العشاق ـ أو يسعى اليها العشاق ـ قد انتهت أو كادت .. فعولت ، كيما تنسى تجارب ماضيها الأليم ، على أن تنصرف الى دراسة الآثار العربية وزيارة المناطق الأثرية الشهيرة فى الشرق الادنى ، مثل (بعلبك) ، و (بيت المقدس) ، و (تدمر) ، لعلها تشبع بذلك هواية طالما راودتها وقت أن كانت بعيدة عن ذلك الشرق ، بجوه الغامض الأخاذ !

على أن القدر أبى الا ان يدفع فى طريقها بحب جارف جديد ، يختلف عن كل ما صادفته من قبل فى حياتها من مغامرات عاطفية عصفت بكيانها . اذ لم يكد ينقضى شهر واحد على وصولها الى سوريا ، حتى نشأت علاقة غرامية بينها وبين شاب عربى وسيم القسمات ، مشبوب العواطف، يدعى « صالح » .. ولقد بلغت شدة تعلقها به حدا جعلها تفكر فى استئناف اجراءات الطلاق من زوجها « الكونت تيوتوكى » الذى تركته فى اثينا ، كى يتسنى لها الزواج من عشيقها العربى والعيش بين أهله وعشيرته حتى آخر أيامها !

ولكنها قبل أن تقفل عائدة الى اثينا للحصول على حريتها ، لم تستطع أن تدفع عن نفسها الرغبة فى أن تزور مدينة (تدمر)

لتتفقد مواقعها الاثرية ، فقد كان ولعها بالآثار يغلب فى قلبها ـ مع ذلك ـ على حبها لصالح ولهفتها على الزواج منه .. **وأحس العشيق انه قد أهين فى كرامته وجرح فى كبريائه ازاء ايثار « جين » لذلك « المنافس » الذى لم يكن فى الحسبان ،** سيما وانه لم يكن فى مقدوره أن يصحبها فى رحلتها ، لوجود بعض المنازعات بين قبيلته وقبائل (تدمر) . وعبثا حاول أن يثنيها عن عزمها ، فقد أصرت على السفر بمفردها ، وراحت تجرى الاستعدادات اللازمة للرحلة !

نهاية المطاف !

وفيما كانت « جين » تسعى للعثور على قافلة من الابل تصحبها فى رحلتها الطويلة عبر الصحراء ـ اذ كان السفر بين دمشق وتدمر يستغرق تسعة أيام ـ اذا بها تلتقى بالرجل الذى قدر له ان يكون نهاية مطافها .. زوجها الرابع والاخير .. « الشيخ عبد المتعال المزراب » ! .. وكان ينتمى الى قبيلة « عنزة » التى كانت تهيمن على المناطق الصحراوية الواقعة حول (تدمر) . وكان مثقفا ، ويتحدث عدة لغات ، ويلم بتاريخ سوريا القديم ، ويعرف مجاهل الصحراء وخباياها ، مما جعله يقدم خدماته كمرشد لكبار الرحالة الأجانب .

وانطلقت القافلة فى طريقها الى (تدمر) ، يقودها عبد المتعال . وما أن توغلت فى الصحراء ، حتى راحت جين تقوم بجولات مع رفيقها لزيارة الاطلال والمضارب المعزولة ، والواحات التى كانت تصادفهما فى الطريق . **وفى تلك الاثناء ، كان الشيخ العربى ـ الذى كان يصغر جين بسنوات قلائل ـ قد بدأ يهيم حبا واعجابا بصاحبته ،** فاذا به يصبو الى الزواج من تلك الاجنبية الفاتنة والعيش بقربها ، ولكنه آثر

الا يبوح لها بمشاعره ، مؤقتا ، وان يرجىء مكاشفته لها برغبته الى حين عودتهما الى دمشق !

واستطاعت الرحلة الطويلة أن تجعل جين تنسى حبها العابر لصالح . فلما عرض عليها عبد المتعال الزواج بعد ذلك ، قبلت على الفور ، وقررت العودة الى اثينا لاستكمال اجراءات الطلاق من زوجها اليونانى .

ولم تدم اقامتها فى اثينا الا أمدا قصيرا .. اذ ما ان حققت بغيتها هناك ، حتى اسرعت بالعودة الى دمشق حيث كان ينتظرها حبيبها على أحر من الجمر .. وكان لابد لهما ان يحصلا على موافقة القنصل الانجليزى فى دمشق . ولكن لما كان هذا القنصل يستنكر ذلك الزواج المتعجل ، فقد راح يحاول اقناع جين بالعدول عنه أو - فى القليل - ارجائه ريثما يتشاور مع السلطات فى انجلترا .. بيد انها لم تتزحزح عن موقفها ، وسرعان ما ذللت جميع العقبات الادارية ، فعقد القران فى (حمص) حيث كان عبدالمتعال يملك مسكنا صغيرا ، على الرغم من انه كان يؤثر عليه حياة الخلاء والمخيمات !

خمسة وعشرون عاما من السعادة !

وعاشت « جين ديجبى » مع زوجها العربى خمسة وعشرين عاما ، ذاقت خلالها ما لم تذقه من قبل من حب صادق ، وصفاء نفس ، وراحة بال طالما افتقدتها فى حياتها الصاخبة الماضية .. واستطاعت ان تتأقلم بمعيشتها الجديدة فى فترة قصيرة ، فاذا بها تتعلم اللغة العربية ، وتعتنق عادات العرب وتقاليدهم ، فلم تلبث ان حظيت بحب قبيلة زوجها وثقتها ، حتي لقد راح افرادها

يستشيرونها فى كل ما كانوا يصادفونه من مشكلات فى حياتهم اليومية ! .. وهكذا قدر لجين أن تحقق أمنية عمرها .

.. ولكن كان لابد للنهاية من أن تجىء . ففى يوم ١١ من أغسطس عام ١٨٨١ ، دهمتها نوبة (ديسنطاريا) حادة ، لم تمهلها طويلا ، فقضت نحبها بين ذراعى عبد المتعال ، الذى ظل خمسة وعشرين عاما يمثل بالنسبة لها كل ما يزخر به الشرق من مغامرة وسحر .. وحب !



توماس مان

أديب ألمانيا المعاصر الذى جرد من جنسيته فارتفع إلى مكانة عالمية !

قاوم الطغيان فى وطنه .. فأحرقت كتبه التى منحته جائزة نوبل !

تلخيص : محمد بدر الدين خليل

الكاتب الذى عالج فكرة « واحدة » فى رواياته !

• **امتاز** الكاتب القصصى الالمانى « توماس مان » ، بأنه حرص – فى كل رواياته – على معالجة موضوع معين بالذات ، راح يعالجه فى كل رواية من ناحية جديدة ، وعلى ضوء جديد .. ذلك الموضوع هو : حيرة الفنان بين العالم الخيالى السامى الذى يحلق فى أجوائه ؛ وبين العالم الدنيوى الارضى الذى يعيش بين أهله .. ولعل هذا الاصرار من أسباب نجاح « مان » وتفوقه ، حتى أصبح يعتبر من أقطاب الفن الروائى فى القرن الحالى . اذ انه يدل على ان الكاتب لم يكن يكتب لمجرد ارضاء القارىء ، وانما كان يسعى وراء فكرة يعالجها ، ويغوص فى أعماقها ، ويزداد ايغالا فى دراستها ، أملا فى أن يستطيع أن يجلوها !

ولقد قدم لك « كتابى » – فى العدد ٣٥ – ملخص واحدة من أشهر روايات « مان » وهى : « البجعة السوداء » .. وفى الصفحات التالية ، يقدم لك « كتابى » قصة « مان » نفسه !

واحد من عمد النهضة الروائية

• **اكتسبت** القصة التى تروى على لسان بطلها رواجا فى القرن العشرين ، حدا بمعظم الروائيين الى الاقبال عليها ، والابداع فى مضمارها ، حتى انها طفرت فى هذا القرن طفرات لم تظفر بمثلها فى القرون السالفة . وقد أجمع النقاد ومؤرخو الأدب على أن أربعة من الكتاب المتبايني الجنسية ،

هم الذين كانوا عمد هذه النهضة .. أولئك هم : مارسيل بروست الفرنسى ، وجيمس جويس الايرلندى ، وتوماس وولف الامريكى ، وتوماس مان الالمانى .

ولقد ظل **((توماس مان))** روحا معذبة حائرة ، تضطرم فى أعماقه المشاعر وتفور ، دون أن يهتدى الى أفضل سبيل للتفريج عنها ، الى أن قدر له أن يصدر أولى رواياته الطويلة ، التى اشتهرت بالاسراف فى الطول دون املال ولا تهريج .. ولعل أحداث هذه القصة التى اقتبست من صميم حياته هو وحياة أسرته ، هى التى حدت به الى أن يسوقها على لسان البطل ، فيسهم بذلك فى لون من أحب ألوان القصة الى القراء ، اذ يخاطب فيه الكاتب عقل قارئه وقلبه مباشرة !

هذه كانت أسرته ..

• **ولد** ((توماس مان)) فى مدينة (لوبيك) الحرة ، فى ٦ يونيو سنة ١٨٧٥ لأسرة كان ابناؤها — لعدة أجيال متعاقبة — من المبرزين ، ذوى المكانة والسمعة الطيبة . فكان جده لأبيه من زعماء حركة التحرر الفكرى ، وكان قنصلا لهولندا فى موطنه . كما كان أبوه من ثراة تجار الغلال ، وقد تبوأ منصب عمدة (لوبيك) مرتين ، فضلا عن أنه كان عضوا فى مجلس الشيوخ .. **ومع أن الجد كان من دعاة التحرر ، فان الأب كان محافظا .. فى غير ما رجعية ولا تزمت !**

أما أم ((توماس)) ، فكانت ابنة أحد أصحاب المزارع الكبرى فى أمريكا الجنوبية ، وكانت تجرى فى عروقها الدماء

البرتغالية والالمانية ممتزجة . ولعل الأصل البرتغالى هو الذى بث فى أبنائها روحا شاعرية وفنية، فقدر لابنيها الكبيرين « هينريخ » و « توماس » أن يكونا أديبين وروائيين !

ولقد كان « توماس » ثانى أبناء خمسة لهذين الزوجين السعيدين . وكان يتطلع الى أبيه كمثل يحتذى فى الاناقة ، والاعتزاز بالنفس ، والكرامة .. بينما كان يحب فى أمه شعرها الاسود الفاحم الجميل ، وبراعتها فى العزف على « البيانو » و « المندولين » ، و .. « اختلافها اختلافا مطلقا عن كل نساء المدينة »، كما سجل على لسان « تونيو كروجر »، وهو الاسم الذى توارى خلفه فى روايته : « آل بدنبروك » !

غيوم فى حياة الأديب الصغير !

• **وكانت** مرحلة الدراسة بالنسبة لتوماس الصغير ، مرحلة نظام قاس وقيود تتعارض مع روحه المشغوفة بالأدب . على أنه كان يستمد مسرة ومتعة من المسرح الصغير الذى أقامه أخوه فى البيت ، ومن الاقبال على القراءة .. وكانت حكايات « هانز أندرسن » ، وأساطير « هوميروس » من أحب مواد القراءة اليه .

وما ان بلغ « توماس » الخامسة عشرة من عمره ، حتى خيمت على حياته بعض الغيوم . اذ توفى أبوه ، واضطرت الاسرة الى التخلى عن المؤسسة التجارية التى تركها ، والى بيع « البيت الكبير » ، بما كان فيه من أثاث أثرى ثمين . ونزحت الأم الارملة بأولادها الصغار الى مدينة (ميونيخ) ،

بينما بقى « توماس » مع أخيه « هينريخ » ليستكمل دراسته فى (لوبيك) .

وفى تلك الفترة من عمره ، بدأ ((توماس)) ينظم الشعر العاطفى ، ويقلد ((جيته)) و ((شيللر)) و ((هاينى)) . وقد قدم بعض أشعاره الى مجلة صغيرة كانت تسمى « عاصفة الربيع » .. وكم رقص قلبه طربا عندما نشرت هذه القصائد ، مذيلة باسمه « بول توماس » .. وهو الاسم الذى عمد به عند مولده !

شعر وقصص .. بين الارقام الحسابية !

• **واذ** بلغ « توماس » التاسعة عشرة من عمره ، نزح هو الآخر الى (ميونيخ) لينضم الى الاسرة . وكان قد أصبح ــ اذ ذاك ــ شابا جادا ، معتدا بنفسه ، ذا عينين ثابتتى النظرات ، كأنهما عالقتان بغاية معينة عقد عزمه عليها .. **وكانت غايته أن يصبح كاتبا ومؤلفا !**

على انه كان بحاجة الى مورد ريثما تتحقق له هذه الغاية ، فلم يلبث أن حصل على عمل فى شركة للتأمين .. وبدلا من أن يبتهج ، شعر بألم يخز فؤاده ، لأن هذا العمل كان « مؤقتا » ! .. ومع ذلك فقد أقبل على العمليات الحسابية التى كان عمله يتطلبها ، دون أن يشغل بهذا عن غايته الأدبية .. **بل انه كان يختلس من أوقاته سويعات يرضى فيها نزعته الأدبية ، ويكتب القصص الخيالية .**

ولم يلبث أن وفق الى نشر أولى قصصه ، فاذا بها تستقبل باطراء ومديح من النقاد الادبيين !

وان هو الا عام ، حتى استطاع « توماس » ان يحرر نفسه من المنصب الكتابى الرتيب المهام ، وأن ينجو بروحه الأدبية من العمل الحسابى ، ومن قيود الوظيفة ، ومن الوسط الذى كان محوطا فيه بـ « كتبة يتعاطون السعوط »، كما قال فى حديثه عن نفسه !

يرفض أن يختصر روايته الاولى

• **وكانت** قد تبقت من تركة أبيه بقية تسمح له بنفقات الدراسة لسنة واحدة ، فأنفق هذه السنة فى دراسة الادب والفلسفة فى الجامعة . حتى اذا فرغ منها ، تكفلت أمه بنفقاته لسنة أخرى ، يقضيها كما يهوى ويرغب . فرحل الى ايطاليا ، حيث كان أخوه « هينريخ » قد سبقه . وهناك ، قضى العام فى كتابة قصص قصيرة ـ جمع بعضها فى كتاب بعنوان « السيد فرايدمان الصغير » ـ وفى تأليف رواية طويلة ، فى قالب السيرة الشخصية ..

وفى ظل تشجيع « هينريخ » وتأييده ، مضى « توماس » يتحدث بلسان بطل هذه الرواية ، مسهبا فى الحديث ، معنيا بسرد أدق التفصيلات .. **حتى اذا قدر له أن يعود الى المانيا ـ فى سنة ١٨٩٨ ـ كان الكتاب قد بلغ حجما ضخما غير مألوف ، الى درجة أن الناشر رجاه أن يختصره الى النصف** . ومع ان « توماس » لم يكن قد تجاوز الثالثة

والعشرين من عمره ، ولم يكن قد اجتاز أعتاب الشهرة الادبية ، فقد رفض أن يحذف صفحة واحدة من الكتاب الذى ضمنه ـ فى الواقع ـ سيرة أسلافه وأسرته والمجتمع الذى عاشوا فيه !

يدين بمجده لروايته الاولى

• **وهكذا** قدر لأولى رواياته الكبيرة أن تنشر مع بداية القرن العشرين ـ فى أواخر سنة ١٩٠٠ بالتحديد ـ تحت عنوان **((آل بدنبروك))** أو ((انهيار أسرة)) .. وظهرت ـ بالرغم من محاولات الناشر ـ فى جزءين ، **فاذا بها تظفر** برواج عجيب ، مذهل ، حمل الناشر على أن يعيد نشرها فى كتاب واحد ضخم الحجم ، قبل أن ينقضى عام على ظهور الطبعة الاولى !

ولم يكن استقبال النقاد للرواية بأقل من استقبال القراء، فاذا بهم يلهجون باطراء الكاتب الشاب .. **وسرعان ماترجمت ((آل بدنبروك)) الى جميع اللغات تقريبا ، واتخذت مكانها بين ((الكلاسيكيات)) المعاصرة ، وأصبحت تزين منضدة قاعة الجلوس ، فى كل بيت ألمانى !**

واذا كان ((توماس مان)) مدينا بشهرته الأدبية الى هذه الرواية ، فانه مدين لها كذلك بالتقدير الدولى الذى ظفر به ، عندما منح جائزة نوبل فى سنة ١٩٢٩ .. فقد قيل فى قرار منحه هذه الجائزة ، انه استحقها عن مؤلفاته .. ((لاسيما روايته العظيمة : آل بدنبروك)) !

فنان حائر بين الواقع والخيال

• **وتتمثل** هذه الرواية حقا فى عنوانها الفرعى : « انهيار اسرة » .. فقد مزج « توماس مان » الحقيقة بالخيال ، فى عرض روائى لثلاثة أجيال من أسرته ، عاشت فى منتصف القرن التاسع عشر ، مبينا كيف أن الاسرة أخذت تفقد ثروتها المادية باطراد ، مستعيضة عنها بثروة ثقافية .. باطراد كذلك !

ولقد كان الاسلوب الذى عالج به « توماس » قصته واقعيا، ولكنه كان يشف ـ خلال عباراته ووراء سطورها ـ عن فلسفة ما وراء الطبيعة . فلقد تغذى الكاتب الشاب على التعاليم الفلسفية لكل من شوبنهاور ونيتشه . ومع انه كان يستهجن فلسفة نيتشه ويعتبرها « بربرية » ، الا انه كان مفتونا بأسلوبه .. **وبتعبير موجز ، يمكن القول بأنه استخدم طريقة واقعية فى علاج مسألة روحية .**

فقد صور بطله « تونيو كروجر » حائرا موزعا بين عالمين : عالم المواطن العادى ، وعالم الفنان الذى لاينسجم مع بيئته ، فهو فى كل من العالمين يشعر بأنه غريب .. « وانى لأتعذب . فلقد كانت لأبى طباع الشمال ـ كما تعرف ـ فهو صلب ، مفكر ، متزمت فى استقامته ، معميل الى الاكتئاب . أما أمى ، فكانت من دم أجنبى غير محدد المعالم . **وكانت جميلة ، شديدة الحساسية ، ساذجة ، مشبوبة العاطفة ، مهملة ، شاذة بفطرتها ، على ما أظن .**

وكان المزيج غير مألوف بلا شك ، وينطوى على أخطار غير عادية . فكان نتاجه : شخص بورجوازى يهيم بالفن .. بوهيمى يشعر بحنين مشبوب الى أن يكون محترما .. فنان ذو وعى متعب . فمن المؤكد أن وعيى البورجوازى هو الذى يجعلنى أرى فى حياة الفنان – وفى كل شذوذ وكل عبقرية – شيئا مريبا فى قرارته ، مشمينا كل الشين ، يفعم نفسى بذلك الضعف المشوب بالحنين المشغوف الى الانسان البسيط الطيب ، العادى المطمئن النفس ، المتوسط ، المحترم فى غير تكلف » !

النعيم يجعله كثير الانتاج

• **وعندما** بلغ « توماس مان » الثلاثين من عمره ، تزوج من « كاتيا برينجشايم » ، وكانت ابنة أستاذ شهير فى العلوم الرياضية ، وهاو من هواة جمع التحف الفنية . **وقدر له أن يعيش فى هناءة ونعيم مكناه من أن يكون منتجا ، مبدعا فى انتاجه ، خلال الثمانى والعشرين سنة التالية** . وأصبح له بيت فخم فى (ميونيخ) ، وكوخا ريفيا ، ومقرا صيفيا ..

ولعله نسى – فى غمرة هذا الترف – شيئا من الحيرة التى كان يعانيها « تونيو كروجر » ، اذ انه لم يلبث – بعد زواجه بقليل – ان كتب رواية أخرى ، هى **« صاحب السمو الملكى »** .. وكان بطلها هى الاخرى فنانا من الطبقة العليا ، حائرا بين العالمين اللذين كانا يتوزعان « تونيو كروجر » . **بيد أن لهجة « مان » – فى هذه المرة – كانت**

أخف من ذى قبل، حتى لقد وصفت الرواية، فى غير مبالغة ، بأنها « رواية هزلية فى ثوب رواية جدية » !

الباحث عن الجمال

• **وما لبثت** نذر الحرب العالمية الاولى أن خيمت على العالم .. وكان من جرائها أن انقضت خمس عشرة سنة قبل أن يشهد الكتاب التالى من كتب « مان » النور .. وقدر لهذا الكتاب ـ وهو « الموت فى البندقية » ـ أن يعتبر أضخم مؤلفاته !

والواقع أن هذا الكتاب كان من نتاج منتصف العقد الرابع من عمر « مان » ، ولكنه لم ينشر الا مؤخرا .. وهو يدور حول سيد ارستقراطى أنهكته السنون، دون أن يكف عن البحث عن الجمال .. وقد تعلق بفتى بولندى بدا له أن كل ما هو جميل ولا سبيل الى بلوغه ، قد تجسد فيه ! .. **ومع ان السيد المستهام « جوستاف فون آشنباخ » لم يتبادل مع هذا الفتى كلمة واحدة ، الا أنه أبى ان يبرح مدينة (البندقية) ـ التى استشرى فيها وباء الطاعون ـ** وآثر أن يبقى ، ولو كان فى بقائه حتفه ، حتى لا يحرم من رؤية الفتى الذى أصبح ، كما كان يقول لنفسه: « روح الجمال ذاته .. انه الكمال الخالص ، الفرد ، الذى يسكن الذهن ، على شكل فكرة علوية قدسية » !

الفنان الحائر .. مرة أخرى !

• **ومع** أن القصة تخلو من العقدة ، ومن الحركة ، الا أنها تعتبر صورة لتمجيد كل ماهو سام : علوى ، نادر . وقد وفق « مان » الى أن يخلق فيها جوا من التوتر الذى اقترب من الذعر المفجع ، والى أن يجعل منها تصويرا لصرخة الجمال الذى يتسم بأنه ملهم وشرير فى آن واحد !

ليس هذا فحسب ، بل انها انطوت ــ كذلك ــ على ألوان من التباين فى معالجة « مان » للموضوعات الحبيبة الى نفسه : **المخاطر التى تكتنف الفن ، والانحرافات التى تبعد بالفنان عن الاستقامة ، وخطر الاشتغال بغير المألوف، ووحدة النفس وعزلة الروح ..** فنحن نرى « اشنباخ » يكاد يكون وحيدا كل الوحدة ، من بداية الرواية حتى ختامها .. ونرى أن ضعفه ازاء جمال الفتى ، وانصرافه الى « الفكرة العلوية القدسية » التى كان يراها متمثلة فيه ، قد استغرقه الى درجة بعدت به عن فنه ــ وهو وسيلته للتعبير عن نفسه ــ ونأت به عن مبدأه الخلقى ، ودفعت به الى هوة العزلة التامة !

يفحص ضميره على ضوء الاحداث

• **ولم** ينتج قلم « مان » شيئا من الأدب القصصى ، خلال الحرب العالمية الاولى .. ولكن « جهاده بسلاح الفكر » تمثل فى « تأملات انسان غير سياسى » . فقد تجلي في هذا الكتاب أنه وان قصر عقائده علي المبادىء

الخلقية والفلسفية دون السياسية والاجتماعية ، الا أن ميوله وأذواقه ومعتقداته التى ورثها بالفطرة ، كانت تتمثل فى التعصب ـ الى درجة العدوان ـ للعنصر الجرمانى !

وان هى الا سنوات قلائل ، حتى تبين « مان » انه لم يعد ذا ايمان ايجابى بمبادىء المحافظين وقيمهم الخلقية ، بل ان دواعى العصر ـ الذى كان يعيش فيه ـ قد تكالبت عليه . فأقبل يفحص ضميره ووعيه ، ويدرس الموقف الذى وضع نفسه فيه .

ولم يلبث أن تأكد من أنه كان على خطأ ، وأنه لم يعد يستطيع أن يكون وفيا لثقافة لم تكن مجافية للسياسة فحسب ، بل انها كانت غير تقدمية !

مدنية معتلة بين المجازفة والواجب

• وبهذه العقلية التى فحص بها نفسه ، كتب : **« الجبل السحرى »** . واذا كان النقاد قد وصفوا : « آل بدنبروك » بأنها أول رواية ألمانية خالصة ، فانهم وصفوا « الجبل السحرى » بأنها أول رواية أوربية خالصة ، واعتبروها الثانية بين شوامخ « توماس مان » .

ولقد راودته فكرة هذه القصة ـ أول ما راودته ـ فى سنة ١٩١٢ ، أثناء زيارة قام بها الى مصح كانت زوجته تعالج فيه من علة رئوية .. وفى خلال الاسابيع الثلاثة ـ التى استغرقتها هذه الزيارة ـ أخذ يقلب الفكرة فى ذهنه . ففكر ـ فى بادىء الامر ـ فى أن يعالجها كقصة فكهة يتناول

فيها الصراع بين المجازفة ـ التى تؤدى الى الموت ـ وبين الشعور « البورجوازى » بالواجب . ولكن سحر الموت ، وانتصار الفوضى المتطرفة على الحياة التى قامت على النظام ـ وكرست من أجل النظام ـ تحولا الى رمز هائل ، يشير الى مدنية معتلة ، وحضارة سقيمة .

العالم فى مصح صغير !

• **وعالج** « مان » هذه الرواية بأسلوبين .. على الاقل : الاسـلوب الواقعى ، والاسلوب الرمزى . ففى النـاحية الواقعية ، تدور القصة حول شاب برىء النفس ، متفتح الذهن ، يغادر المانيا الى سويسرا ليزور ابن عم له فى مصح للسل فى سويسرا . فاذا الزيارة التى كان قد قدر لها ثلاثة أسابيع ، تمتد سبع سنوات ، **يتعرض خلالها الشاب لكثير من المغامرات والتجـارب البدنيـة والروحية ، ويكتشف الدنيا فى صورتها المصغرة داخل نطاق المصح .**

ذلك لان المصح يضم عددا من الافراد الذين يمثلون كثيرا من الجنسيات والقوميات، والذين يتأثر بهم الشاب الالمانى ، ومنهم طبيب المانى ، وامرأة روسية ـ يقع البطل فى هواها ـ وهولندى من أصحاب المزارع ، وعالم نفسى سلافى .. ويظل الشاب يستمع الى مجادلات ، ويشترك فى مناقشات ، حتى ينتهى ـ آخر الامر ـ الى جمود وتبلد أشبه بالموت .. ثم لا يلبث أن يجد نفسه وقد نفض عنه هذا الخمول فجأة ،

وخرج عن عزلته التى كانت تقصيه عن الحياة .. وما أروع وصف « مان » لسحر العزلة ولعنتها !

دنيا القرن العشرين

• **أما** الناحية الرمزية فتتمثل فى أن القصة استعراض وفحص للمذاهب القومية والتحررية ، تنتهى الى أن : « الانسان لا يعيش حياته الخاصة ـ كفرد ـ فحسب ، وأنما هو يعيش ـ سواء عن ادراك أو دون أن يفطن ـ حياة عصره وحياة معاصريه كذلك » !

ومع أن الرواية تبدو خرافية ، أو غير واقعية ، يعيبها طول الاحاديث ـ التى كثيرا ما تبدو أشبه بخطب جامدة ، مرصوصة ـ الا أن قوة « مان » الفكرية ، وبراعته فى خلق الشخصيات وتصويرها ، وسعة مجال تفكيره وتشعب الموضوعات التى يهتم بها .. **كل هذه جعلت من « الجبل السحرى » تحفة فذة من ابداع الخيال ، واستعراض ـ فى قالب روائى ـ لدنيا القرن العشرين ، وللفساد الذى يدب فيها** .. الفساد الذى لم يتبين «مان» مداه ، فى بادىء الامر ، حتى عندما قام «هتلر» بحملاته الشعواء على الديموقراطية !

الروائى الفيلسوف فى ميدان السياسة

• **ولعل** هذا يفسر لنا سر سكوت « مان » على بوادر الاستبداد التى تجلت فى تصرفات « هتلر » .. ولقد راح أولاده وأخوه « هينريخ » ـ وكان توماس مان قد رزق

بثلاثة أولاد ، صار أحدهم كاتبا ، وثلاث بنات قدر لاحداهن أن تصبح ممثلة — راح هؤلاء يستحثون « توماس مان » على أن يعلن احتجاجه على الجموح الذى كان ينذر باستبداد هتلر ، ولكن الرجل « غير السياسى » لم ينسق لهم ، **اذ وجد من الشاق على نفسه أن يعرض بألمانيا — ممثلة فى شخص حاكمها! — متأثرا فى ذلك بتعلقه بالنزعة المحافظة ..**

بيد أن حريق « الرايخستاج » — البرلمان الالمانى — الذى دبره النازيون، لم يلبث أن كشف له عن الاستهتار الاجرامى الذى انتهجه هتلر فى سبيل بلوغ غاياته . فجزع الروائى الفيلسوف أيما جزع ، وانطلق — وقد فطن الى حقيقة الاحداث المحيطة به — يحذر مواطنيه من « البربرية » المنبعثة من خيال مجنون .

« هتلر » يحرق كتب « مان »

• **وكان** « توماس مان » — حينذاك — فى سويسرا ، فلم يقدر له أن يعود الى وطنه بعد ذلك . واستقر به المقام فى (زيورخ) فى سنة ١٩٣٣ ، بينما صودرت ثروته فى المانيا ، وأحرقت كتبه فى ميادينها ، ثم حرم — فى سنة ١٩٣٤ — من الجنسية الالمانية ..

وبعد أربع سنوات ، رحل « مان » الى الولايات المتحدة ، حيث عين أستاذا فى جامعة (برينستون) ، وأخذ يساهم فى الجهود الموجهة ضد الفاشية ، **متخليا بذلك عن مسلكه القديم الذى كان يعتبر الفكر والفن والسياسة عوالم مستقلة ، كل منها منفصل عن الآخر ..**

ولم يلبث « مان » أن توطن فى أمريكا نهائيا ، واكتسب الجنسية الامريكية فى سنة ١٩٤٤ . وكان منذ أواخر العقد الثالث من القرن العشرين ـ أى منذ حوالى سنة ١٩٢٨ ـ قد عكف على تأليف كتاب عن يوسف الصديق.. وقد بدأه فى المانيا ، وكتب شطرا منه فى فلسطين ـ أثناء زيارة قام بها قبيل سنة ١٩٣٣ ـ واستأنفه فى سويسرا ، ثم أتمه فى أمريكا .

١٦ عاما فى كتاب !

• **ومن** الطريف حقا ، أن « توماس مان » أستلهم فكرة كتاب «يوسف» ـ الذى ملأ أربعة مجلدات ضخمة ، والذى ظل يعمل فيه ستة عشر عاما ـ من حادث عارض بسيط .. فقد حدث حين كان فى الخمسين من عمره ـ وكان فى (ميونيخ) ـ أن أراه أحد الفنانين ملفا ضمنه لوحات أراد بها أن يصور قصة «يوسف» كما وردت فى التوراة ، وسأله أن يكتب لها مقدمة تحليلية وافية .

وعكف « مان » على قراءة القصة فى التوراة مرارا ، وهو يتذكر ما قاله « جيته » بصددها يوما : **((ان هذه القصة البسيطة فاتنة حقا ، ولكنها جد قصيرة.، حتى ليشعر المرء باغراء يوحى اليه بأن يكمل ما اسقط منها من التفصيلات))** .

فاذا هذا الرأى يحفز « مان » على المغامرة ومحاولة تحقيق ما كان يتوق اليه « جيته » فعلا .. واستهواه أن ينتزع نفسه من جو الحاضر، ليغوص فى أجواء روحية ، تحمله الى أعمق اغوار النفس البشرية وغاياتها .

الانسان والبيئة .. دائما !

• **وهكذا** عكف « مان » ست عشرة سنة على سيرة يوسف الصديق ، فملأ أربعة مجلدات ، تناول فى أولها : **((يوسف وأخوته))** ، وقد نشر تحت عنوان « قصص آل يعقوب » ، فى سنة ١٩٣٤ .. وكان « مان » قد قضى ست سنوات فى تأليفه . ثم نشر الجزء الثانى بعد ذلك بعام ، تحت عنوان : « يوسف الشاب » .. وفى سنة ١٩٣٨ ، ظهر الجزء الثالث بعنوان : **((يوسف فى مصر))** .. أما الجزء الرابع ، فقد أصدره فى أمريكا - سنة ١٩٤٤ - بعنوان : **((يوسف الموكل بالمؤن))** .

ومع أن « مان » حرص على أن يتبع الخطوط التى رسمتها التوراة للقصة ، الا أنه حشاها بفيض من البيانات التاريخية ، والتحقيقات الاثرية الطريفة . ثم نظر الى موضوعها من زاوية الكاتب المحلل ذى العقلية الحديثة ، **فاذا به يرى ((يوسف)) شبيها ببطل روايته السابقة ((الجبل السحرى)) : شابا برىء النفس ، طاهر القلب ، يجد نفسه فى بيئة غريبة ، يشوبها الفساد والنفاق** . وكان هذا المزج بين الواقعية والرمزية - وهو الطابع الذى لازم « مان » فى كل رواياته - هو المصدر الذى بعث فى القصة قوة وحيوية !

فنان يكرس نفسه لسواه !

• **وعلى** هذا الضوء تمثل « مان » فى « يوسف » عين الشخصية التى اعتاد أن يبنى حولها رواياته : شخصية

الفنان الذى يناضل المجتمع المحيط به . فرسم «يوسف» الحالم - ومفسر الاحلام - الذى غدر به أخوته ، اذ بعث جماله الغيرة فى قلوبهم . . والذى ظلم ، وأسىء اليه ، وسجن بسبب فضيلته وعفته . . **والذى حرر من سجنه أخيرا ، ورفع الى أسمى المراكز ، بفضل ايمانه وثباته على هذا الايمان !**

ومع أن « مان » لم يجعل الموت المشوب بمأساة محزنة ختاما لقصته - كما هو شأن معظم الابطال - بل ختم القصة بانتصار بطله ، الا أنه حرص على أن يصور هذا البطل فى صورة الفنان الذى يكرس نفسه من أجل الغير . . فهو يحمل عبء توفير الاقوات للقوم ، ويعمل - فى الوقت ذاته ، وخلال آلامه - على انقاذهم وتخليص نفوسهم !

انتاج أدبى متواصل

• **على** أن انصراف « مان » الى قصة « يوسف » لم يحرمه من فترات مارس فيها كتابة القصص الخيالية ، فأصدر حوالى سنة ١٩٤٠ : **« أقاصيص ثلاثة عقود من الزمن »** ، كما اصدر كتابا ضم مجموعة رائعة من المقالات ، تناول فيها « جيته » و « فرويد » و « فاجنر » . . ومجموعة أخرى بعنوان **« مقالات ثلاثة عقود من القرن »** .

كذلك أصدر رواية طويلة عن « جيته » فى كهولته ، اسماها : **« لوط فى امارة فايمار »** ، صور فيها « جيته » فى صورة النبى الذى يعانى الامرين فى سبيل هداية قومه ، كما فعل « لوط » من قبل . وقد أبدى « مان » براعة وعمق

نظر فى تفسير تأملات « جيته » وخواطره . كما أصدر رواية قصيرة تعتبر تعقيبا على قصة «يوسف» ، تناول فيها النبى موسى والوصايا العشر ، بعنوان : **« ألواح الناموس »** .

رواية فى سن الثمانين !

• **ومرة** أخرى ، عاد « توماس مان » الى ابداء تقديره واحترامه لشاعر المانيا وفيلسوفها « جيته » ، فأصدر **« الدكتور فاوستس »** ، التى عالج فيها أسطورة «فاوست» من ناحية جديدة غير التى عالجها منها « جيته » .. من ناحية تتمشى مع الموضوع الذى ظل يتناولهفى كل قصصه.. **موضوع الفنان الحائر فى مجتمع لا يستطيع أن يتكيف وفقا له ، فهو دائما فى صراع مع بيئته !** .. واذا كان«جيته» قد جعل « فاوست » يبيع نفسه للشيطان من أجل المال والنفوذ ، فان « مان » جعل الشهرة هى الغاية من الصفقة !

واذ بلغ « مان » الثمانين من عمره ، خال أصدقاؤه والمعجبون به أنه قد آن له أن يستريح ، وأن قريحته ولابد قد نضبت . ولكنه فاجأهم برواية جديدة بهرتهم وملكت عليهم مشاعرهم .. تلك هى : **« البجعة السوداء »** ، التى سبق أن قدمها لك « كتابى » ، والتى عالج فيها مسألة نفسية جنسية . اذ تدور القصة حول المرأة فى فترة التحول الى سن اليأس ، حين ينقطع منها الحيض الشهرى ، **فتتوهم أنها قد فقدت الوظيفة الانثوية التى أعدتها لها الطبيعة ، وأنها ـ لذلك ـ لن تلبث أن تفقد اعجاب الرجال، وان تعيش حياة مجدبة من العاطفة .**

وعلى ضوء هذه الظاهرة ، تخيل « مان » بطلة قصته امرأة فى وسط العمر ، تنتقل الى سن اليأس .. وفى تلك الاثناء تقع فى هوى شاب لا يكبر ابنها بأكثر من سنوات قلائل .. وفيما هى تحلم بارضاء شهواتها ، اذا بها تكتشف انها مصابة بالسرطان ، فتنهار آمالها !

مولع بالاسهاب فى اسلوبه

• **ولقد** بلغ « مان » حد الابداع فى تحليل نفسية بطلة « البجعة السوداء » وعواطفها .. ولم ينتقص من شأن ابداعه سوى اسرافه فى استخدام الكلمات الطنانة ، والعبارة المبالغ فى تنميقها .. وبوجه عام ، يلاحظ على أعمال «مان» مغالاته فى الاسهاب والاطالة ، بالرغم من أن كثيراً من أفكاره كان يسهل التعبير عنها فى إيجاز واقتضاب . وعذره فى ذلك انه كان يغلو فى التفصيلات ليزيد أفكاره وضوحا ، وكان يرى ان الأدب القصصى يعتمد ـ الى جانب الفكرة ـ على الابداع الانشائى ، والبلاغة ..

ومهما يكن الرأى فى هذا الصدد ، فليس من شك فى أن « مان » قد جعل لنفسه مكانة لا نزاع فيها ، فى عالم الأدب الروائى المعاصر .

كتب جديدة

من الغرب والشرق

[عرض لأحدث الكتب
أخبار الحركة الأدبية فى العالم]



رسالة باريس

يقدمها : الدكتور أنور لوقا

الرحلة

مسرحية للأديب اللبنانى جورج شحادة

Le Voyage
Par Georges Schehadé



المؤلف : جورج شحادة

على مسرح عـريق من مسـارح باريس ، يطل على حديقة «اللوكسمبور» فى الحى اللاتينى — وقد آل أخيرا الى فرقة الفنان القدير « جان لوى بارو » ، تحت رعاية الدولة التى أطلقت عليه اسمها « تياتر دى فرانس» — ظهرت مسرحية جديدة سرعان ما

اجتذبت الجمهور بموضوعها الانسانى ، وجوها الساحر ، وجمال اخراجها وتمثيلها : عنوانها « الرحلة » ، ومؤلفها الأديب اللبنانى « جورج شحادة » .

ولا عجب اذا كانت شهرة « جورج شحادة » أوسع فى باريس منها فى لبنان وفى العالم العربى عامة ! .. فقد كتب بالفرنسية وبرع فى التعبير بها عن أرق المعانى . انه قبل كل شىء شاعر مرهف . وما زال شاعرا فى تأليفه للمسرح ، كما تشهد بذلك روايته الجديدة . وجدير بالملاحظة أن أكثر أدباء الطليعة المجددين فى المسرح الفرنسى اليوم قد أقبلوا من بلاد غير فرنسا ، مثل «أوجين يونسكو» الرومانى ، و «صمويل بيكيت» الأيرلندى ، و «أرتور أداموف» الروسى ، و« جورج شحادة » اللبنانى .. **والأدب الذى يريد أن يحيا ويتطور هو الذى يعرف كيف يفسح الطريق للمواهب المتفتحة ، على اختلاف عناصرها ومواردها وتجاربها .**

ولقد سبق لـ « بارو » أن قدم مسرحيتين من تأليف « شحادة » ، قبل أن تتحول فرقته الى فرقة قومية . ولكن «الرحلة» انضج وأقوى بلا شك من «سهرة الامثال» (١٩٥٤) و « قصة فاسكو » (١٩٥٦) .

.. وهى رحلة من نوع غريب ، لا ينتقل خلالها البطل « كريستوفر » من مكان الى مكان ، وانما يتخذ رحيله نحوا آخر وأبعادا أخرى . ولا ينبغى أن نبحث فى هذه الرواية الشعرية عن الحياة الواقعية بحدودها المألوفة ، ومنطقها المحكم فى تسلسل الاحداث . فالواقع هنا يجرى فى عالم الاحلام بقدر ما يجرى فى دنيا الناس . على أن النظارة لا يصطدمون بما قد يخشاه النقاد فى مثل هذه الاعمال الفنية من تناقض بين المعقول وغير المعقول ، ومن مفاجآت وفجوات ، لأن المؤلف والمخرج قد عنيا بالتمهيد للمواقف المتباينة ، وخلق الأجواء المواتية للمعانى دائما .



« ستراوبرى » تاجر الازرار

نحن فى مدينة (بريستول) بانجلترا ، حوالى سنة ١٨٥٠ . والمعروف أن هذه المدينة ميناء نشيط الحركة . وترتفع الستارة عن متجر متخصص فى بيع الأزرار ، صاحبه ـ « مستر ستراوبرى » ـ شخصية فكاهية تشبه شخصيات الروائى الشهير « تشارلس ديكنز » . انه رجل مادى ، ضيق الأفق ، لا يعنيه سوى كسبه ورواج تجارته . والأزرار ـ سلعته الوحيدة ـ رمز لكل ما هو مغلق ، وثيق العرى ، مشدود محدود . وهو لا ينى عن لوم « كريستوفر » ، الموظف عنده ، على تطلعه المتصل من النافذة الى حركات السفن الرائحة الغادية ، **وما جدوى النظر الى البحر ما دام البحر ثابتا فى مكانه ؟**

على أننا نفطن الى أن الفتى مفتون بالبحر ، تواق الى الانطلاق من قيود حياته الصغيرة ، على ظهر احدى السفن . ولا يشغل نفسه الا التفكير فى الرحيل الى جزيرة نائية ، غريبة المناظر والعادات ، كاستراليا . **ويلهيه شغفه هذا عن زميلته فى المتجر ، الآنسة « جورجيا » الوديعة ، التى تحبه فى حياء ، وقد تخرج للنزهة معه أحيانا فيتجه بها الى أرصفة الميناء ، ولا يحدثها بغير عزمه على السفر ، مما تشقى**



« كريستوفر » لاه عن « جورجيا »



الكاهن اللبق والتاجر الغافل

به الفتاة المتيمة . انها عاجزة عن استبقائه فى بريستول ، الى جانبها !

ويتأثر لحزن الفتاة الكاهن الطيب القلب «الأب لامب» . وهو يعطف على « كريستوفر » كما يعطف على «جورجيا» ، ويود أن يزيل ما بينهما من سوء التفاهم ، دون أن يتدخل بصورة مباشرة قد تثير عناد الفتى وتفسد الامور . لذلك يلفت نظر « ستراوبرى » الى الموضوع بلباقة ، لكى يتولى علاجه . ولكن التاجر لا يبالى بتنبيه الكاهن ، ولا يهتم الا بكمية الأزرار الضخمة التى أتى «الأب لامب» يطلب توريدها لبعض هيئات رجال الدين .

ويخالط « كريستوفر » الملاحين ، ويستمع الى حكاياتهم العجيبة التي تفتح لاحلامه آفاقا جذابة . ولا يلبث حتى



« كريستوفر » لاه عن « جيم »

يغلبه الاغراء ، فيفضى الى الملاح « جيم » برغبته فى الالتحاق باحدى البواخر ، ويعده « جيم » بأن يمهد له السبيل .

وها نحن الآن فى مقهى يكثر « كريستوفر » من التردد عليه للالتقاء برجال البحر . وأمامنا شخص يحوطه شيء من الغموض ، يزعم أن اسمه « دييجو » – واسمه الحقيقى « ديك » – وهو عائد من ميناء (سانتوس) بالبرازيل ، حيث تعلم اللغة البرتغالية ، بطريقة طريفة ، هى دروس يلقيها عليه ويرددها ببغاء متخصص ، يحفظ عددا من مفردات اللغة البرتغالية وعباراتها ، وما يقابل ذلك بالانجليزية ! .. ويكاد يتعرف على شخصيته ملاحان غشيا المقهى ،

فيستجوبانه عن مصرع رجل عزيز عليهما هو الضابط البحرى «هوجان» ، الذى قتله فى حانة بمدينة (سانتوس)

غريمه « اسكندر ويتيكير » فى ظروف لم تتضح لأحد. ولقد أطلق القضاة سراح الجانى لعدم وجود شهود ، اللهم سوى ذلك الببغاء الناطق باللفتين . ونفهم من سياق الحوار أن الملاحين حريصان على استقصاء ما حدث ، وجمع القرائن والأدلة ، **لأنهما قد بيتا النية على الاقتصاص من القاتل ، والثأر للقتيل ، وتنفيذ الحكم العادل الذى لم يستطع اصداره قضاء قاصر ، مقيد بمظاهر النفى والاثبات .**

ولا تكاد تنقضى لحظات وجيزة ، حتى يدخل الجانى نفسه — وهو الضابط البحرى « اسكندر ويتيكير » — نهبا للخوف مما طرق سمعه من وعيد الملاحين اللذين انصرفا وكأنهما شبحان يتعقبانه . ولكى يستعيد اطمئنانه ، يلوذ بالحديث الى هذا الفتى الوحيد ، فعلى وجهه سمات الثقة والأمل ، وفى عينيه تجول أحلام كريمة . ويأنس اليه «كريستوفر» ، ولا يكتمه أمنيته التى تلح عليه . ويستغل الضابط البحرى سذاجة الفتى واعجابه برتبته الراقية وزيه الجميل ، فيعرض عليه أن يتنازل له مدة ليلة عن زيه هذا ، ليحقق بارتدائه بعض ما يصبو اليه من طموح ، وبعض ما يفتقد من متعة . . وعبثا تحاول صاحبة المقهى أن تحذر الفتى الغرير مما يتورط فيه ، فانه لا يلقى اليها بالا ، ويخرج منتشيا وقد لبس بزة « اسكندر » الخلابة . ثم تظهر على أحد الجدران ظلال شخصين !

***

وفى اللوحة التالية ، ننتقل الى دار « الأميرال بونت » ، وهو شيخ غزير الشعر ، نبيل الوجه ، صارم الارادة ، يعيش فى جو عجيب من وشى خياله . لقد هجر البحر ساخطا عيوفا ، بعد أن جرده من رتبته مرؤوسوه — وهو فى عرض البحر يقود سفينته — على اثر هفوة لا ندرى ما هى .


الاميرال العادل

وشاطره نفس المصير الجائر اثنان من كبار ضباطه ، هما « الكومندان جرينش » و « الكابتن ويسبر » . وألف بين الثلاثة حنقهم على الاوضاع الرسمية ، واستنكارهم عدالة البشر الزائفة ، فقرروا تشكيل هيئة عليا منهم ، ديدنها الشرف ، للفصل فى القضايا التى يخسرها أصحاب الحقوق أمام المحاكم القانونية .

وعلى « كريستوفر » الآن أن يمثل بين أيديهم . وهو يتقدم شهما ، غير هياب ، يحمل مسئولية زيه ورتبته ، ويريد أن يدافع عمن تقمص شخصيته ، فهو الآن « اسكندر ويتيكير » !

وهنا تعود بنا القصة الى حقبة ماضية ، فاذا نحن فى حانة (سانتوس) نشهد وقوع الجريمة ، ونتتبع تفاصيل مقتل الضابط البحرى « هوجان » . ولعلنا نشهد هذه الحقبة كما تدور فى خلد أولئك القضاة وقد عقدوا جلستهم الفريدة ، فنحن نرى المواقف التى يتمثلها منطقهم :

فى الحانة يلتقى الضابطان المذكوران ، ويتنازعان على فتاة برازيلية يحبها كل منهما ، اسمها « كوكولينا » ، ويحتدم الشجار حتى يعتدى « اسكندر » على « هوجان » ويرديه صريعا . وهذه رواية تدين « كريستوفر » التعس ، سيما والببغاء اللغوى يندد به قائلا : « أساسينو » أى « قاتل » ! .. انه لن ينجو اذن من الحكم عليه بالاعدام !

ولكن ها هى ذى عودة أخرى الى الوراء ، تمتاز بطابع خيالى لا شك فيه ، فهى تعرض لنا الأحداث ذاتها كما تسرى صورها فى ذهن «كريستوفر» . والدليل على ذلك أن جميع الشخصيات التى تؤدى المشهد فى هذه المرة ، انما هى الشخصيات التى طلعت علينا فى الفصل الأول : فصاحب الحانة هو « ستراوبرى » بعينه ، و « كوكولينا » هى « جورجيا » بعينها . وهذا يعنى أن « كريستوفر » يعيش



النزاع على الحسناء « كوكولينا » فى حانة (سانتوس)

مغامرة « سانتوس » مستعينا بعناصر تجربته العادية فى (بريستول) . وعلى هذا النحو ، يلقى الضابط المقتول حتفه أيضا ، ولكن فى ظروف تخلع على الضربة التى أردته صفة الفعل الطارىء ، غير المتعمد . **وهكذا تحكم محكمة « الأميرال بونت » ببراءة المتهم !**

ولكن « الاميرال » العادل يستدرك ، وينبه الى مسألة ما زالت قائمة بلا حل : كيف يمكن الحصول على النفقات اللازمة لدفن القتيل فى مقبرة تليق بضابط بحرى؟ ومن الذى سيتكفل بأداء هذا الواجب ؟.. وهنا لايتردد «كريستوفر» ، بل يلبى النداء ، وقد غلبه التأثر ، وفاض فى قلبه شعور الكرامة الخليق بأن يصدر عن ضابط بحرى مثله . انه يضع تحت تصرف هيئة المحكمة الجنيهات العشرين التى تجشم صنوفا من الحرمان حتى ادخرها من مرتبه ، لكى يحقق بها رحلته المنشودة . **وبهذا المبلغ يسدد القضاة الثلاثة ثمن ما أمضوا الليل فى احتسائه من كئوس الخمر العاتية ..**

ولعل هذه الخمر قد عبثت أيضا بعقل الفتى فأوهمته بأنه أبحر الى البرازيل ، حيث أحب ، وصارع ، واستبسل ، وانتصر ، وحوكم ، وبرىء ، على حين أنه لم ينتقل من حانة (بريستول) ، حيث بات ينادم الملاحين !

والفصل الأخير عود على بدء ، يردنا الى (بريستول) ، والى متجر الأزرار ، والى «ستراوبرى» الغليظ و«جورجيا» الرقيقة . وها هو ذا « كريستوفر » يقبل متثاقل الخطى ، خائب الآمال ، بعد ليلته تلك الباهرة . وعندما يأتيه الملاح « جيم » ، حاملا اليه بشرى موافقة القبطان على سفره لأستراليا ، يضطر الى الاعتذار ، ويعترف بأنه أصبح صفر اليدين ، لا يملك شيئا من النفقات المطلوبة للرحلة. **ولا يطول أسفه ، وانما يدرك ـ بفضل حكمة «الأب لامب» ـ أنه ضل**



خاتمة المطاف

اذ مضى يبحث عن السعادة بعيدا ، بينما السعادة فى متناول يديه . ويستجيب لحب «جورجيا» ، ويبارك الكاهن الطيب خطبتهما .

لقد أتم بذلك الفتى الحالم رحلته .. حول نفسه !

وفى مسرحيات « جورج شحادة » – الذى تأثر بمنهج الشاعر الفرنسى «سوبرفييل» – نزعة ايجابية طيبة لتجديد المسرح . نزعة تأبى أن تقتصر على تقديم الواقع . فمن الاسراف بتر الحياة ، وتجاهل غير الظاهر من أقسامها ، وحصرها فى نطاق « الواقعية » المباشرة ، لأنها بطبيعة نموها تمتد جذورا وأزهارا فى باطن المرء ومخيلته وأحلامه . وتلك أبعاد أصيلة ، يشقى الانسان اذا تجرد منها ، أو يجف ويتقسى ، وبدونها ننكر انسانيته على كل حال . انما الشعر غذاء ضرورى للنفوس ، و « ليس بالخبز وحده يحيا الانسان » .. !

رسالة لندن

يقدمها : على شلش

« العهد الجديد » .. فى ثوب جديد !

تعرضت العاصمة الانجليزية ، فى الاسبوعين الماضيين ، لتجربة جديدة فى الميدان الثقافى والدينى بصفة خاصة ، اذ فرغت المطابع من اعداد طبعةجديدة من الانجيل ، قدمتها الى السوق تحت عنوان : **« الانجيل الانجليزى الجديد »** .. وقد صدرت هذه الطبعة الجديدة بعد مجهود متواصل دام ثلاثة عشر عاما ، مما يجعل ظهورها حدثا غير قليل الشأن فى المحيط الدينى والثقافى بوجه عام .

هذا ، وقد كانت للانجليز نسخة معتمدة من الانجيل (او العهد الجديد من الكتاب المقدس) طوال القرون الثلاثة



« وليام تنديل » ، ترجم الانجيل الى الانجليزية فى القرن ١٥

والنصف الماضية ، اذ كان ظهورها فى عام ١٦١١ . على أن وجود هذه النسخة المعتمدة لم يحل دون ظهور طبعات أخرى ، اختلفت وتفرقت بعد ذلك ، وتعددت مستوياتها البلاغية :

ففى عام ١٨٨٢ قام أحد رجال الاعمال ، ويدعى « **فيرار فنتون** » ، باصدار طبعة أخرى من الانجيل ، توخى فيها التيسير ، وقد أخرجها فى أجزاء ، تمت عام ١٨٩٥ .

وفيما بين عامى ١٨٩٨ ، ١٩٠١ ظهرت طبعة أخرى فى ثلاثة أجزاء بعنوان : « **العهد الجديد للقرن العشرين** » . كما صدرت فى عام ١٩٠٢ طبعة « **ويماوث** » بعنوان : « **العهد الجديد باللغة العصرية** » . ثم قام « **جيمس موفات** » باصدار طبعة جديدة فى عام ١٩١٣ بعنوان : « **العهد الجديد : ترجمة جديدة** » .

وكذلك كان الحال فى أمريكا ، اذ تعددت طبعات الكتاب المقدس ، واختلفت بين منقحة وميسرة ، الى أن تشكلت لجنة « ستاندارد الامريكية للانجيل » ، التى تولت اعداد النسخة المعتمدة الآن فى أمريكا .

أما هذه النسخة التى ظهرت أخيرا ، وأحدثت ضجة واسعة فى لندن ، فقد تم نقلها عن اليونانية ، وراعى مترجموها قداسة الطبعة القديمة . فلم يكن فى برنامجهم الاعتداء على

الاصل القديم ، بقدر ما كانت تهمهم مقارنة النسـخة اليونانيـة به ، ثم تيسـير لفتها ، مع الاحتفاظ بالروح الأصلية للنص المقدس ، واجراءبعض التغيـيرات الطفيفـة التى لا تخـل بقداسته .



« دكتور دود » ، ترجم الانجيل الى الانجليزية فى القرن ٢٠

وقـد أشـار مترجمو النسـخة الجديدة ، فى مقدمتها ، الى الظروف التى دفعتهم الى القيام بهذا العمل . ومنها أنهم وجدوا فى النسخة القديمة اغرابا فى اللفظ وتعقيدا فى اللغة ، مما يحول دون وصولها الى مدارك الرجل العادى .

كذلك وجدوا أن النسخة القديمة قد أدت دورهابالنسبة للدارسين وطلاب اللاهوت ، الذين يهتمون بجزالة اللفظ وفصاحة العبارة . ومن ثم تقف الطبعة الجـديدة موقفـا وسطا ، بمعنى أنها ترضى الباحث المتخصص والقـارىء العادى على السواء .

وقد تحدث الدكتور « س . ه . دود » مدير المشروع فى التلفزيون الانجليزى فقال : **« ان من أهداف الانجيل الجديد أنه وضع من أجل الذين لا يترددون على الكنيسـة ، ومن أجل الجيل الناشىء الذى لم يتلق دراسة أدبية وكلاسيكية واسعة .. وقد عمل المترجمون على أن يصل الانجيـل الى الجمهور العادى ، بحيث يجده ممتعا ، يسير الفهم والقراءة . »**

على أن هذا كله لم يقنع الكثيرين من المعلقين والمتزمتين. اذ ثارت ضجة هائلة حول هذا الموضوع على صفحات الجرائد الانجليزية . واختلفت الآراء وتشعبت ، حاملة فى ثناياها تيارات من التأييد والمعارضة ، بل ومن الحياد السلبى أيضا !

ومن بين الآراء الجديرة بالتنويه هنا ماطالعتنا به صحيفة ((**التايمز**)) أخيرا فى ملحقها الادبى الاسبوعى ، حيث كتب المحرر الادبى دراسة جادة ، قيمة ، تناول فيها موضوع ترجمة الانجيل الجديدة ، مستندا فى بحثه الى النسختين : القديمة والجديدة معا .

وهو يعترف – بادىء ذى بدء – بمبدأ ترجمة الانجيل من جديد ، لكنه يشترط أن تكون ترجمة بليغة ، بعيدة عن التبسيط والتيسير المبتذل . ثم يسوق عددا من الحجج ، منها :

• **أن** تصريح الدكتور دود السابق ذكره لايجب أن يطبق على كتاب مقدس. ذلك لأن تيسير القراءة ، وتبسيط اللغة ، والرغبة فى الامتاع ، وغير ذلك من مزايا مقترحة ، لاتعد ذات نفع كبير بالنسبة للكتب المقدسة ، التى تطلب لذاتها . أما اذا أردنا ذلك كله ، فيجب أن نقصره على الصحيفة اليومية مثلا ، أو القصة ، بمعنى ضرورة توافر هذه العناصر فى كل منها – سواء على حدة أو مجتمعة – لكى تصل الى بغيتها من الذيوع والانتشار .

• **ليس** ثمة داع لأن يكون للانجليز انجيلان : أحدهما للخاصة وهو القديم المعتمد ، وثانيهما للكافة وهو الجديد المستحدث .

• **من** شروط الاقناع فى الكتاب المقدس أن يكون قمة فى البيان واللغة ، بحيث يطغى على الاصوات البيانية الاخرى .

وهـذا مالم يتوفر فى الطبعـة الجـديدة ، التى تقف ، مع مثيلات لها فى المستوى البيانى ، كرجع الصدى بالنسبة للنسخة الاصلية !

• **ان** الطفل الانجليزى ينشأ ، منذ نعومة أظفاره ، على دراسة الانجيل القديم ، رغم أنه لا يدرك معـانى الكثير من ألفاظه . غير أن هذه طريقة مثلى لتوسيع مدارك الطفل ، اذ ما الفائدة التى تعود عليه اذا كانت الالفاظ مطروحة أمامه منذ البدء ؟ وما جدوى ادراكه لها ، وهى فى مستوى لغـة الكلام العادية ، التى يتخاطب بها مع من حوله ؟

تلك هى أهم القضايا التى أثارها المحرر الادبى لجـريدة التايمز . **وقد خلص فى النهاية الى ضرورة معالجة الترجمة الجديدة مرة أخرى، حتى يرتفع مستواها اللغوى والبيانى.**

والحق أن المحرر المذكور قد أفاض فى بحثه هذا ، واستند الى الترجمتين معا ، وعقد بينهما مقارنة ذكية ، **مرجحـا كفة النسخة المعتمدة القديمة .**

على أن المعركة ما تزال دائرة بين الأنصار والخصـوم . ولئن كانت ترجمة الـكتاب المقدس أمرا معقولا ومحتملا من حيث المبدأ ، فان مشروع الترجمة الانجليزية الجديدة قد نجح ، الى حد كبير ، فى توجيه اهتمام المثقفين الانجليز الى ضرورة مراجعة حصيلتهم من التربية الدينية ، لا بهدمها والاتيان ببديل جديد ، وانما بدراستها ومحاولة الانتفـاع بكل جديد طارىء .

وحبذا لو انتفعت الكنيسة فى بلادنا العربية بما حدث فى انجلترا ، الحريصـة على تقاليدها وشعائرها الدينية الى درجة التزمت، حتى يجد المثقفون منا انجيلامترجما ترجمة حديثة ، ببيان عربى سليم ، يفهمه القارىء غير المتبحر فى الدين .

العبقرية التى أحدثت رعشة فى الأدب المعاصر !

اسمه كاملا : « توماس ستيرنز اليوت » . لكن قراءه يعرفونه باسم : **« ت . س . اليوت »** فقط .



« ت . س . اليوت » كما يبدو فى تمثال له ، للفنان « دونالد هيستنجز »

وقد ولد « اليوت » فى (سانت لويس) بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٨٨ . ثم هاجر الى انجلترا نهائيا فى عام ١٩١٥ . أى أنه **أمريكى المولد والنشأة، بريطانى الجنسية** . ومن الطريف حقا ـ لهذا السبب ـ أن نجد **البريطانيين والأمريكيين فى تنازع مستمر حول « ملكية اليوت »** !.. ذلك لأن نقاد الادب الانجليزى ومؤرخيه يدرجونه ضمن أعمدة النقد والشعر .

الحديث فى بلادهم ، وهذا أمر طبيعى بلا شك . لكن الغريب — فى الوقت ذاته — أن نقاد الادب الامريكى ومؤرخيه يدرجونه ، بدورهم ، ضمن أعمدة النقد والشعر فى بلادهم . أما القارىء — فى بلادنا وبلادهم — فله الله !.. (ولعل اليوت نفسه يجد عزاء فى سلفه العظيم « شكسبير » الذى ادعت ملكيته بلدان كثيرة !)

وقد التحق اليوت ، عقب هجرته الى انجلترا ، بأحد البنوك فى لندن . وظل يعمل موظفا به قرابة ثمانى سنوات . وتمكن فى تلك الفترة من العمل بالصحافة ، حيث شغل منصب نائب لرئيس تحرير مجلة : The Egoist لمدة عامين ، من ١٩١٧ الى ١٩١٩ . ثم أسس مجلة : criterion فى عام ١٩٢٢ ، وقد ظل يواليها بجهده ونشاطه الى أن توقفت عن الصدور فى عام ١٩٣٩ . وكان قد التحق ، فى تلك الأثناء ، بمؤسسة « فابر وفابر » للنشر ، التى قامت بنشر معظم مؤلفاته .

وقد ظهرت باكورة انتاجه الشعرى فى عام١٩١٧ ، وتلاها بقصيدته المعروفة : **« الأرض الخراب »** فى عام ١٩٢٢ . أما فى النقد فقد أصدر أول أعماله النقدية فى عام ١٩٢٠ فى كتاب جعل عنوانه : **« الغابة المقدسة »** .. هذا ، الى جوار مسرحياته الشعرية العديدة ، مثل **« حفلة الكوكتيل »** وغيرها. على أن انتاج اليوت، الشعرى والنقدى والمسرحى ، يتسم بالغزارة والعمق ، وهما صفتان أهلتاه لنيل **جائزة نوبل للأدب فى عام١٩٤٨ .**

ولعل أحدا من كتاب العالم الأحياء أو شعرائه لم يؤثر فى جيله والأجيال التالية له ، مثلما أثر اليوت . بل أن أحدا منهم أيضا لم تمتد رقعة تأثيره ونفوذه ، عابرة المحيطات والصحارى ، مثلما امتدت رقعة نفوذ اليوت ، فى الشعر والنقد خاصة .

يقول « جون هيوارد » فى المقدمة التى كتبها للمختار من مقالات اليوت (طبعة بنجوين) :

« لا أحسب أحدا من النقاد قد انكب عليه العالم المتمدين، قراءة ودراسة ، على نطاق واسع فى حياته ، مثلما هو الحال مع اليوت . وليس ذلك فى اللغة الانجليزية فحسب ، وانما فى كل لغة تقريبا ، ما عدا الروسية . »

والحق أن هيوارد لم يخطىء التقدير . ذلك لأن اليوت يتمتع ، بين مثقفى العالم الغربى على الأقل ، بمكانة وتقدير لا يستهان بهما . وليس هو بغريب على القارىء العربى ، الذى التفت الى انتاجه فى السنوات الأخيرة . ولعل القارىء يذكر تلك المعركة التى دارت بين نقادنا فى الشهرين الأخيرين حول مذهب اليوت فى النقد ومفهومه عن الشعر .

والحق أن المجال ضيق أمامنا لرسم صورة دقيقة لـ اليوت ، الشاعر ، الناقد ، المسرحى . لكننا نرجو أن نتمكن من رسم هذه الصورة تباعا فى رسائلنا القادمة .

ولا بد أن نشير بعد هذه المقدمة الموجزة الى حلقة جديدة من الدراسات التى عقدها الكتاب البريطانيون حول شاعر « الارض الخراب » . وقد تمثلت هذه الحلقة فى ثلاثة مؤلفات صدرت أخيرا ، حاملة العناوين الآتية :

• **« ت.س. اليوت » وفكرة التقاليد** (٢٢٢ صفحة) عن دار كوهن ووست . تأليف : « شين الوسى » .

• **مسرحيات « ت.س. اليوت »** (٢٤٢ صفحة) عن دار روتلدج وكيجان بول . تأليف « دافيد جوتر »

• **الشاعر فى القصيدة** (١٦٧ صفحة) من مطبوعات جامعة كامبردج . تأليف « جورج . ت رايت » .

وهذه المؤلفات الثلاثة تعالج جوانب انتاج اليوت الثلاثة أيضا . ذلك لأن فكرة التقاليد تعد أساسا في النقد لدي اليوت .

وهو قد عالجها بدراسة نشرها عام ١٩١٩ ، بعنوان : « التقاليد والموهبة الفردية » ، لخص فيها تقديره للتراث الأدبى ، وأبان أهميته ، والح فى ضرورة الانتفاع به .

وقد نفى مؤلف الكتاب الأول فكرة الجمود التى اتهم بها اليوت . أما الكتاب الثانى فيعد أول دراسة مطولة كاملة لمسرحيات اليوت فى اللغة الانجليزية . وقد أشار مؤلفه الى أن اليوت لا ينقصه الذكاء ، ودقة الملاحظة والاسلوب ، بالاضافة الى الرنين العاطفى الذى يسرى فى أعماله .

وقد حاول جورج رايت فى كتابه عن شعر اليوت أن يربطه بمنهجه ـ أى اليوت ـ فى التفكير ، وأن يتتبع مراحل نموه فى قصائده ، وأن يستخلص منها أساسا يمكن لدارسى شعره أن يهتدوا به .

حقا ! ان اليوت عبقرية أحدثت فى الأدب المعاصر رعشة لا يستهان بها .

أخبار أدبية

• **ظهرت** فى السوق الانجليزية ترجمة لرواية **الدكتور محمد كامل حسين : « قرية ظالمة »** ، قام بها « كينيث كراج » فى ٢٥٥ صفحة ، وأصدرتها دار « هاراب » . وقد حول المترجم عنوانها الى : city of wrong

وقد علق على الترجمة المحرر الأدبى لجريدة التايمز . وناقش فكرتى المؤلف عن الظلم ، والخير والشر فى المجتمع . كما أشار الى قيمتها الفنية والفكرية ، مقدرا الجهد الذى بذله الدكتور كامل حسين **« كمفكر اسلامى بارز »**

وانتهى المعلق الى أن الرواية **« جديرة بالانتباه** ، فى عالم يقوم الفرد فيه ـ ربما أكثر مما كان عليه من قبل ـ بحماية نفسه خلف اطار الدولة . »

• **القومية العربية والاستعمار البريطانى** .. كتاب جديد لجون مارلو (٢٣٦ صفحة) صدر عن دار (كريسنت) . وقد تتبع مؤلفه السياسة العربية الراهنة ، وظهور الرئيس عبد الناصر ، وانهيار النفوذ البريطانى فى الوطن العربى .

• **صدر** عن دار « آرثر ميشركوت » كتاب جديد لبرنارد شو بعنوان : « **كيف تصبح ناقدا للموسيقى** » . وهو مجموعة من كتابات فى الموسيقى نشرها المسرحى الراحل متفرقة ، وظلت كذلك الى أن جمعها « دان هـ . لورنس » وأعدها أخيرا للطبع .

ومن رأى شو أن ناقد الموسيقى يجب أن يتمتع بثلاثة مؤهلات ـ الى جوار المؤهل العام الذى ينحصر فى الحس الموسيقى الممتاز ومعرفة العالم ـ هى الذوق الموسيقى القائم على الثقافة، وموهبة الكتابة، وممارسة النقد فترة طويلة . كما يجب أن يكون ذا ذاكرة قوية وخبرة طويلة أيضا .

• **ظهر** للشاعر الانجليزى « م . ل روزنتال » كتاب بعنوان « الشعراء المعاصرون » (٢٨٨ صفحة) من مطبوعات أوكسفورد . وقد قصد به ازالة الفواصل بين الشعر والقارىء العادى ، مقدما ـ فى الوقت ذاته ـ للشعر الحديث، الذى يعالج فى رأيه « أعماق النفس المجهولة » .

وبالكتاب مقالات عن الشعراء الانجليز والامريكيين من أمثال : وليم ييتس ، ازرا باوند ، اليوت ، روبرت فروست، ماريان مور . كذلك به فصل عن د . هـ لورنس ، وأودن ، وغيرهما من شعراء الأربعينيات من هذا القرن . **غير أن المؤلف اعتبر لورنس مصلحا اجتماعيا** ، ولم يعترف بشاعريته ، أو موهبته الشعرية !

• **يظهر** قريبا كتاب لأندريه ديتش بعنوان : « **أوراق من يوميات** » ، وهو يتضمن وصفا ـ من واقع يوميات الملكة

فيكتوريا ــ لزيارة نابليون الثالث والامبراطورة أوجينى لانجلترا فى ربيع عام ١٨٥٥ ، كذلك زيارة الملكة فيكتوريا لباريس بعد ذلك بشهور . والكتاب مذيل بالصور والرسوم ، ومنها رسم للامبراطورة الفرنسية بريشة الملكة فيكتوريا .

رسالة نيويورك

يقدمها : على شلش

« برخت » ورسالة المسرح



« برتولت برخت »
(صورة التقطت عام ١٩٤٢)

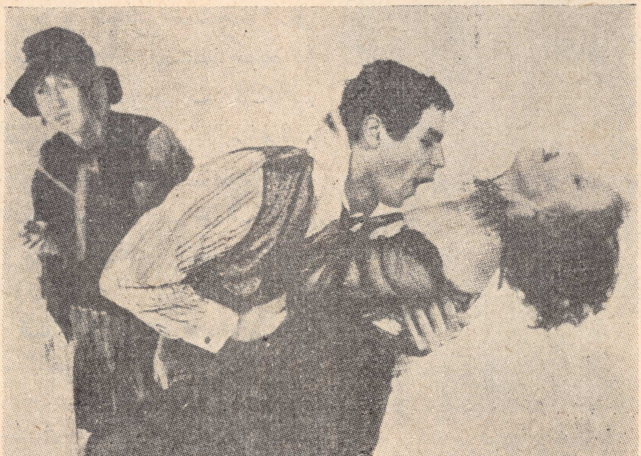
أصدرت دار (جروف) الأمريكية مجلدا ضخما ، فى ٥٨٧ صفحة ، يضم مجموعة قيمة من مسرحيات الكاتب الالمانى المعروف « برتولت برخت » ــ (١٨٩٨ ــ ١٩٥٦) ــ عددها سبع مسرحيات ، من أروع أعماله المسرحية وأبرزها .

لكن ، من هو « برخت » ؟

.. الحق أنه اسم مجهول فى أذهان الكثرة من قرائنا ورواد مسارحنا ، بينما هو ــ فى الخارج ــ علم من أعلام المسرح المعاصر . **فقد اهتم به النقاد والدارسون ، وقارنوه بشكسبير وجوته وشيلر** ، وقدرته باريس (راجع ما كتبه الدكتور أنور لوقا فى العدد الماضى) ولندن وموسكو

ونيويورك ، وترجمت أعماله الى مختلف اللغات ، كما مثلت مسرحيته « أوبرا البنسات الثلاثة » فى نيويورك زهاء خمس سنوات ، وبلغ عدد مرات تمثيلها نحو ٢٢٤٨ مرة !

وقد ولد « برخت » فى عام ١٨٩٨ بمدينة (أوزبورج) البافارية ، من أب ثرى كان يمتلك مصنعا للورق . وحين شب ، خدم فى الحرب العالمية الاولى — حيث التحق بقسم الخدمات الطبية — **فلما انتهت الحرب، تعرض برخت لفترة قلقة من حياته ، جعلته يدور فى حلقة واحدة قوامها الصعلكة والتشرد ، اذ حمل « جيتارا » وراح يعزف عليه مقطوعات من شعره فى الطرقات !**



مشهد من مسرحية « برخت » المشهورة « اوبرا البنسات الثلاثة » عند تمثيلها على مسارح نيويورك

وما أن تولى هتلر الحكم – وكان برخت فى الخامسة والثلاثين – حتى بدأت فترة جديدة من حياته ، أدت به الى صعلكة من نوع آخر : اذ اضطهده هتلر ، وحاربته السلطات النازية ، فلم يجد مفرا من الهرب الى الخارج ، وهو أشد ما يكون حقدا على النازية وأساليبها .

وتنقل بين بلدان أوربا ، كالدنمارك والسويد وفنلندا ، ثم شد رحاله الى الولايات المتحدة ، حيث قضى هناك سبعة أعوام . لكنه لم يسلم خلالها أيضا من الاضطهاد ، اذ طاردته لجنة النشاط المعادى لأمريكا . **فاضطر الى التسلل خلسة ، ميمما وجهه شطر ألمانيا الشرقية ، حيث قضى البقية الباقية من عمره ، الى أن توفى فى عام ١٩٥٦** . وكان قد كون فرقة مسرحية أطلق عليها اسم « الفرقة البرلينية » ، شاركته فيها زوجته الممثلة القديرة « هيلين فيجيل » . (وما تزال هذه الفرقة موجودة الى اليوم ، تعرض روائع « برخت » على مسارح باريس وأوربا عامة .)

ولبرخت فى الشعر قدم راسخة أصيلة . ذلك لأنه اهتم بالشعر قبل أن يهتم بالمسرح والدراما ، وطاوعته موهبته المتدفقة ، فسجل فى الشعر مكانة ممتازة . واليك سطورا من قصيدة صور فيها عذابه وقلقه :

أنا ، برتولت برخت ، من الغابات السود
حملتنى أمى ،
وها أنذا أرقد داخل المدن ،
كما رقدت فى رحمها .
أن برودة الغابات ،
ستظل بداخلى ، الى يوم مماتى .

ومرة ثانية نتساءل : **لماذا يهتم النقاد والنظارة ببرخت ؟** .. ألأنه ناصر الضعفاء والمغبونين فى المجتمع ؟ أم لأنه جذب

الانظار اليه بقوة بيانه وذكاء أسلوبه ولمساته ؟ .. يخيل لى أن لا هذا ولا ذاك فقط. ذلك لأن برخت لم يكن كاتبا عاديا ، يجلس الى الورق والقلم ، وفى رأسه موضوع جاهز معد ، فيخرج فى النهاية بمسرحية أو قصيدة . وانما كان برخت انسانا يعيش فى عالمه بكل ذرة فى كيانه وعقله . ومن ثم شكل عالمه المسرحى وفق تفكيره هو ونظرته للأمور ، ولم يكن هذا التشكيل رياضيا ، بمعنى جمع الآحاد الى الآحاد مثلا ، وانما قام تشكيله على الموازنة بين النسب ، حتى يخرج الشكل فى النهاية متفاعلا ، ذا دلالة واضحة هادفة .

فمن رأى برخت أن الناس خيرون بفطرتهم ، وأن الانسانية رائدتهم ، وأن الطبيعة لا تشكلهم بقدر ما تشكلهم العلاقات الاجتماعية. وهم أنفسهم ضحايا للبيئة ، وليس من الضرورى أن يظل الشرير شريرا أسود القلب ، فالانسانية لها الغلبة على الافكار والمعتقدات فى النهاية .

تلك هى الخطوط الاساسية للفلسفة التى قام عليها مسرح برخت. ومنها نرى **أن المسرح لديه ليس أداة للمتعة ، وانما هو رسالة ضخمة ، يؤديها الكاتب من أجل خير البشر.** وعليه بالتالى أن يوجه ، أن ينفع ، أن يرشد الناس الى ما فيه خيرهم فى النهاية ، وأن يثيرهم ضد الشرور والمساوىء التى تفرضها عليهم طبيعة العلاقات الاجتماعية .

ففى أول مسرحية بالمجموعة التى صدرت حديثا فى نيويورك ، وعنوانها : **المستنقع** (١٩٢٣) ، نجده ينتهى بالقاء اللوم على البيئة ، التى يعتبرها مستنقع المدنية الحديثة .

وفى مسرحية ((**جان دارك فى الاسطبل**)) (١٩٢٩) يعرفنا برخت بتاجر لحوم من شيكاغو يدعى ((بيير بونت مولر)) ، وهو رجل فظ ، ميت القلب ، يعامل عماله بخشونة وقسوة لا مزيد عليهما . ويحدث أن يخطىء أحد عماله فى تشغيل

ماكينة « فرم » اللحوم ، فيأمر الرجل الفظ بالقائه فيها ، كى تفرمه ضمن ما تفرم من لحوم ! .. وتظهر جان دارك ، فتحاول أن تستعطف مولر لينقذ العامل المسكين ، لكنه لا يأبه بها ، بل يحاول أن يثير فيها الحقد على العمال وحماقاتهم .

وعبثا تحاول جان دارك تهدئته . وفى النهاية تضرب عن الطعام ، وتضعف قواها ، حتى توشك على الموت . لكنها تعلن، قبل أن تلفظ آخر أنفاسها ، أن العنف ـ فحسب ـ هو الذى سوف يصلح حال العالم ! .. ثم يظهر « كورس » من لابسى القبعات القش السوداء ومعبئى اللحم ، ويرددون كلماتها الاخيرة ، الى أن تستشهد !

وفى **« الأم شجاعة »** (١٩٣٩) ـ وهى من أحسن أعماله ، ان لم تكن أروعها قاطبة ـ يعرض برخت صورة للجهاد الانسانى ، المتمثل فى الصراع بين انحطاط النفوس وشجاعتها . لكنه يجعل الانحطاط ينتصر فى النهاية ، ثم تظهر بطلة المسرحية على المسرح ، داعية الناس الى الجهاد وعدم اليأس !

واذا انتقلنا الى مسرحية **« جاليليو »** (١٩٣٨) فاننا نجد نموذجا غريبا للفلكى الايطالى ، **اذ صوره برخت انتهازيا ، حسيا ، شرها . ومن ثم فهو قد دفع ثمنا غاليا من أجل البقاء .**

ومن الطريف أن برخت اختار الممثل المعروف « تشارلز لوتون » ، ليقوم بدور جاليليو فى نيويورك عام ١٩٤٧ . وكان برخت قد شاهده فى مسرحية هنرى الرابع لشكسبير ، فأعجب بطريقته فى التهام الدجاج !

وقد صدرت هذه المجموعة الامريكية لمسرحيات برخت بمقدمة للناقد المسرحى المعروف « اريك بنتلى » ـ الذى



الممثل العالمى «تشارلس لوتون» فى دور « جاليليو » كما مثله على مسارح نيويورك عام ١٩٤٧

ترجم لبرخت مسرحياته الى الانجليزية ، وكان على رأس النقاد المتحمسين له – وقد كتب بنتلى مقدمته باسهاب، شارحا ومحللا طريقة برخت فى معالجة الدراما .

والواقع، أخيرا ، أن برخت جدير باهتمامنا ، خاصة فى هذه الفترة التى نبحث فيها عن أشكال جديدة لمعالجة المسرحية . ويكفى انه نسيج وحده بين كتاب المسرح فى العالم .

عندما يؤلف الممثل !

الذين يعرفون الممثل الكبير **«سير سيدريك هاردويك»** ، قد يجهلون عنه موهبة التأليف – أو بالاحرى الاملاء – التى ظهرت عنده أخيرا ، واثمرت كتابا بعنوان : « فيكتورى فى الميزان » .. وهو عبارة عن ذكريات أملاها الممثل القدير على جيمس برو ، الذى أعدها فى النهاية للنشر فى ٣١١ صفحة ، وأصدرتها دار « دبلداى » .

وقد ولد سير سيدريك فى عام ١٨٩٣ ، وكان أبوه طبيبا ، لكنه هوى التمثيل فى صباه ، ودرسه بلندن قبل الحرب الاولى ، ثم احترفه فى المسرح والسينما والتلفزيون . ومن

رأيه أن الممثل يجب أن يكون أنانيا ، على أن ينأى بنفسه عن الغرور !

ومن بين ذكرياته الطريفة ذلك اليوم الذى فاجأه فيه **الملك جورج الخامس** فى عام ١٩٣٤ ، بسيف ذهبى وضعه على كتف الممثل، ثم صاح فيه قائلا : «سير صامويل بكويك!» (اشارة الى شخصية بكويك المعروفة التى صورها شارلز ديكنز)

كما يحكى أيضا قصة صداقته **لبرنارد شو** ، وكيف أن الأخير قال له ذات يوم : « انك خامس ممثل من المفضلين لدى ، أما الأربعة الاولون فهم اخوان ماركس ! »

أخبـــار أدبية

• **صدرت** عن دار (نوف) رواية جديدة بعنوان «الكوخ» ، (٤٠٢ صفحة) للكاتب الصحفى « ويليام ماكسويل » الذى رأس تحرير صحيفة « النيويوركر » فى الخمسة والعشرين عاما الماضية . وهو يتابع فى روايته هذه الرسالة التى بدأها الروائى المعروف « جيمس جويس » ، أى دراسة الشعب الأمريكى ، وعلاقته بحضارة العالم القديم .

• **صدر** عن دار دبلداى ترجمة لحياة الرسام الايطالى **«مايكل انجلو»** فى٦٤٤صفحة ، بعنوان : «الألم والذهول » . ومؤلفها الروائى المؤرخ « ارفنج ستون » ، الذى لخص « كتابى » له فى العدد الماضى ترجمته لحياة « لنكولن » .

وقد قضى المؤلف أربع سنوات فى اعداد هذه الترجمة ، وجعلها مسحا تاريخيا لعصر النهضة : وقد أصدر من قبل ترجمة لحياة الفنان « فان جوخ » ، بالاضافة الى مؤلفاته الأخرى التى تبلغ ١٣ كتابا .

• **منحت** دور النشر الأمريكية جوائز قيمتها ألف دولار لثلاثة من الكتاب والشعراء تشجيعا لهم . وقد فاز بها :

١ ـ الروائى **« كونراد ريختر »** (٧٠ سنة) على روايته العاشرة : « مياه كرونوس » .

٢ ـ الصحفى **« وليام شيرر »** (٥٧ سنة) على كتابه : « نشأة الرايخ الثالث وسقوطه »

٣ ـ الشاعر **« راندال جاريل »** (٤٦ سنة) على ديوانه الثامن : « المرأة التى بجوار حديقة واشنطن للحيوانات »

وقد أطلق على الجائزة اسم : جائزة الكتاب القومى .

• **لقيت** رواية « السماء لا أحباء لها » (٣٠٢ صفحة) ، التى صدرت عن دار (هاركوت) ، نجاحا كبيرا فى الاوساط الأدبية الأمريكية . ومؤلفها هو الكاتب الالمانى الاصل **« اريك ماريا ريمارك »** (٦٢ سنة) ، الذى يعيش فى سويسرا مع زوجته الممثلة « بوليت جودار » .

وهذه هى الرواية التاسعة له بعد روايته الاولى المشهورة :

« كل شىء هادىء فى الميدان الغربى »

من الكتب العربية

نشوء الفكرة القومية

تلخيص : زكى شنودة المحامى

فى العدد الماضى ، لخصنا لك الجزء الاول من هذا الكتاب الممتع ، الذى يضم مجموعة محاضرات الفيلسوف العربى المعاصر « ساطع الحصرى » عن الفكرة القومية ، وقد تحدث فيه عن نشوئها وتطورها فى ألمانيا . وفى هذا الجزء الثانى والأخير من الكتاب ، يتحدث الباحث الكبير عن نشوء الفكرة القومية فى بلاد البلقان ، وتركيا ، والبلاد العربية :

نشوء الفكرة القومية فى البلقان

كانت البلاد البلقانية ، فى أوائل القرن التاسع عشر ، تابعة برمتها الى السلطنة العثمانية ، مع أنها كانت موطنا لشعوب وقوميات عديدة ، يختلف بعضها عن بعض اختلافا كبيرا . فقد كان هناك اليونان ، والبلغار ، والصرب ، والألبان ، والبوشناق ، والبوماق ، والافلاق ، والأتراك . **وكان لكل واحد من هذه الشعوب البلقانية لغة خاصة به وتاريخ مستقل عن تاريخ غيره .**

ولكن منذ أوائل القرن التاسع عشر أخذت قوة الدولة العثمانية تضعف وتنحط بسرعة كبيرة ، كما أخذ الوعى القومى يسرى فى نفوس الشعوب البلقانية شيئا فشيئا ، فكان من الطبيعى أن تبدأ بعض الحركات الاستقلالية فى مختلف أقسام البلقان ، **وقد أدت الحركات والثورات القومية آخر الأمر الى تكوين خمس دول قومية ، هى : اليونان ، ورومانيا ، ويوغوسلافيا ، وبلغاريا ، وألبانيا .**

وقد نشأت الفكرة القومية عند كل واحد من هذه الشعوب وسارت بطرق خاصة بها تختلف عن التى نشأت وسارت عليها عند سواها .

قصة استقلال اليونان

١ ـ **وقد** كانت الأمة اليونانية اولى الأمم البلقانية التى استفاقت من سباتها ، وشعرت بقوميتها ، وثارت على السلطنة ، ونالت استقلالها . وذلك لأنها حافظت على لغتها وتقاليدها الأصلية ، كما أنها ظلت تتمتع بنوع من الكيان القومى بفضل تشكيلات الكنيسة الأرثوذكسية ، التى كان لها السلطان الدينى على كل بلاد البلقان . وقد ظلت الأمة اليونانية ، بفضل سلطة هذه الكنيسة وجهودها ، محافظة

على تماسكها وتساندها ، ومتمسكة بلغتها وتقاليدها ، ومدركة لقوميتها ، وبتعبير آخر ، مستجمعة لجميع « مقومات أمة ذات كيان متميز خاص » . كما أن جميع المتنورين فى مختلف أنحاء أوروبا كانوا ينشأون على حب الأدب اليونانى القديم وتمجيد تاريخ اليونان ، **فكان من الطبيعى أن يعطف هؤلاء المتنورون على أحفاد اليونانيين القدماء ، وأن يقولوا بوجوب مساعدتهم على نيل الاستقلال**. فلما قامت الثورة فى اليونان خلال العقد الثانى من القرن التاسع عشر ، تضافرت كل هذه العوامل على مساندتها . وقد بدأت الثورة فى شبه جزيرة موره . فلما بادرت السلطنة العثمانية الى اخمادها ، اجتمعت أساطيل الدول الأوروبية وهجمت على الأسطول العثمانى الراسى فى خليج **(نافارين)** ، فأبادته تماما . **وقد كانت هذه الواقعة ــ كما يقول بعض المؤرخين ــ نقطة تحول فى السياسة العالمية بوجه عام ، لأنها كانت أول تأييد فعلى اجماعى لمبدأ القوميات** ، وأول عمل ايجابى فى سبيل اعادة النظر فى بناء الدول وفقا لمقتضيات ذلك المبدأ . وقد استمرت حروب الموره ، حتى أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية ، واضطرتها آخر الأمر الى توقيع معاهدة

(ادرنة) سنة ١٨٢٩ ، وقد كان اعتراف السلطنة العثمانية باستقلال الدولة اليونانية من جملة شروط هذه المعاهدة . الا أن حدود الدولة اليونانية طبقا لهذه المعاهدة كانت بعيدة عن الانطباق على حدود القومية اليونانية ، لأنها لم تكن تتجاوز حدود شبه جزيرة موره ، مع مقاطعة أتيكيا ، فلم تكن تشمل تساليا ، ولا أبير ، ولا مكدونيا ، ولا شيئا من جزر ايجه . وكذلك فان « فكرة استقلال جميع اليونانيين تحت ظل دولة تشمل جميع البلاد اليونانية » ، أو كما كان اليونانيون يسمونها « الفكرة العظمى » ، ظلت هي حلم

الساسة اليونانيين وهدف جهودهم عشرات متوالية من السنين . وقد دأبوا لتحقيقها على انشاء المدارس ونشر الثقافة اليونانية ، وتأليف الجمعيات التى تؤدى الى تماسك أفراد الطوائف اليونانية ، وتكوين الجمعيات السرية لتهيئة وسائل الاستقلال ، وتأليف العصابات وشن الثورات المسلحة لاجبار الحكومة على تلبية المطالب القومية ، والقيام بدعايات واسعة النطاق فى البلاد الاوروبية لكسب عطف الشعوب والحكومات على القومية اليونانية . **وقد ضمنت هذه الجهود المتنوعة للأمة اليونانية الاستقلال شيئا فشيئا :** فانضمت اليها جزيرة كورفو سنة ١٨٦٣، ثم مقاطعة تساليا سنة ١٨٧٩ ، ثم القسم الاعظم من المقاطعات المعروفة باسم «أبير ومكدونيا وتراكيا» مع جزيرة كريت بعد الحرب البلقانية سنة ١٩١٣ . وأخيرا انضمت الجزر الايجية المعروفة باسم الدوديكانيز الى الدولة اليونانية بقرار من الدول المتحالفة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية . ونلاحظ من كل ذلك أن الفكرة القومية عند اليونان نشأت وترعرعت بسهولة وسرعة ، لتضافر العوامل المساعدة لها . واما المشاكل التى اعترضت سبيل تحقيق هذه الفكرة ، فكانت كلها سياسية وعسكرية .

استقلال بلغاريا

٢ ـ **أما** الأمة البلغارية فكانت تختلف أحوالها عن أحوال الأمة اليونانية اختلافا كليا ، لأن البلغار كانوا قد فقدوا كثيرا من مقومات الأمة ، لانهم كانوا محرومين من تاريخ مشهور ، ومن لغة أدبية راقية ، كما كانوا محرومين من كنيسة قومية تساعد على حفظ كيانهم القومى وتحمى لغتهم الخاصة . بل كانوا على العكس من ذلك خاضعين لكنيسة أجنبية عنهم ـ هى بطريركية الفنار اليونانية ـ التى كانت تهمل لغتهم

اهمالا كليا ، وتعارض قوميتهم معارضة شديدة . فكانت لا تعترف الا باللغة اليونانية ، وتعتبرها لغة الكنيسة ، ولا تقبل فى سلكها من لا يجيد هذه اللغة . ومن ثم كان التعليم فى المدارس كذلك باللغة اليونانية . **ولذلك فقد كان البلغار فى الواقع خاضعين لسلطتين أجنبيتين ، هما الدولة العثمانية ، والكنيسة اليونانية.** فكان على البلغار ان يتحرروا أولا من سيطرة الكنيسة اليونانية ليثبتوا كيانهم القومى ، ثم يتحرروا من سيطرة الدولة العثمانية ، ليكتسبوا كيانا سياسيا أيضا . ومن ثم بدأت الفكرة القومية بين البلغار أول ما بدأت بجهود تحوم حول « اللغة البلغارية » ! اذ قام سنة ١٨٣٥ رجل اسمه «تنوفيت ريلسكى» فأسس مدرسة يعلم فيها باللغة البلغارية ، وألف أول كتاب فى الصرف البلغارى ، كما أنه ترجم الكتاب المقدس الى اللغة البلغارية ، وعكفت جماعة أخرى على البحث فى تاريخ البلغار القديم . ولكن الكنيسة ظلت متمسكة باللغة اليونانية ، ومن ثم بدأ صراع عنيف بين زعماء القومية وبين رؤساء الدين . وقد رأى زعماء الوطنية البلغارية العمل على تكوين كنيسة جديدة مستقلة عن الكنيسة اليونانية ، تقيم طقوسها باللغة البلغارية . وفعلا تم ذلك فى سنة ١٨٧٠ ، **ومنذ ذلك التاريخ انضمت الكنيسة الى العاملين فى سبيل نشر الفكرة القومية بين الشعب . ومن ثم تم للبلغار استقلالهم الثقافى ، وتطلعوا بعد ذلك الى الاستقلال السياسى ، فثاروا على الدولة العثمانية** ؛ واستمرت ثورتهم زمنا طويلا بذلوا فى أثنائه كثيرا من التضحيات . وكانت روسيا تساندهم ، **حتى أعلنت** الحرب أخيرا على السلطنة العثمانية سنة ١٨٧٨، وانتصرت عليها وارغمتها على توقيع معاهدة « آياستفانوس » التى اعترفت فيها باستقلال بلغاريا .

استقلال رومانيا

٣ - **وقد** كانت الاوضاع القومية فى (رومانيا) تشبه الاوضاع القومية فى بلغاريا ، من وجوه عديدة : فان الشعب الرومانى ، مثل الشعب البلغارى ، كان خاضعا لسيطرتين أجنبيتين : سيطرة السلطنة العثمانية من الوجهة السياسية ، وسيطرة بطريركية الفنار اليونانية من الوجهة الدينية والثقافية . ولذلك فعندما بدأت فكرة القومية الرومانية تدب فى نفوس المفكرين ، فى أوائل القرن التاسع عشر ، شعر هؤلاء بضرورة التخلص من السيطرة اليونانية ، **ومن ثم بدأت الحركة القومية فى رومانيا بجهود للنهوض باللغة الرومانية ، ثم بابحاث فى تاريخ الأمة الرومانية.** ولم يستمر النضال بين اليونانية والرومانية مدة طويلة ، لأن رومانيا اكتسبت كيانا سياسيا قبل بلغاريا بمدة طويلة تبلغ نصف القرن ، نظرا لوضعها الجغرافى والتاريخى ، فقد استقلت عقب الحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٨، وان كانت بعض القبائل الرومانية ظلت خارج حدود هذه الدولة ، وقد بذلت الجهود المتواصلة لضمها ، حتى كللت هذه الجهود بالنجاح بعد الحرب العالمية الاولى .

استقلال يوغوسلافيا

٤ - **وقد** كان نشوء الفكرة القومية فى يوغوسلافيا أكثر تعقيدا من كل ما سبق ، لان القومية اليوغوسلافية كانت أشد تركيبا من القوميات اليونانية والبلغارية والرومانية ، اذ أن الدولة اليوغوسلافية الحالية ضمت داخل حدودها عدة شعوب كانت تعرف باسم الصرب والكروات والسلوفن والبوشناق . وكان أهل الصرب ، فى بداية القرن لتاسع عشر ، تابعين للسلطنة العثمانية ، فى حين أن الكروات

والسلوفن كانوا تابعين للامبراطورية النمساوية ، وأما البوشناق ، فكانوا تابعين للسلطنه العثمانية حتى سنة ١٨٧٨ ، ولكنهم انتقلوا الى الدولة النمساويه بعد ذلك بموجب معاهده برلين ، فنشأت هذه الشعوب - لهذه الاسباب - تحت ظروف سياسية وأدارية وحضارية يختلف بعضها عن بعض اختلافا كليا . **وقد بدأت الفكرة القومية تظهر بين الصرب منذ اوائل العقد الثانى من القرن التاسع عشر ، وذلك على شكل جهود تبذل فى سبيل انهاض اللغه القومية من جهه ، واحياء التاريخ القومى من جهه اخرى .**
وقد جمع المفكرون كلمات اللغة الصربية فى قاموس محيط ، وترجموا الكتاب المقدس اليها ، وألفوا بها كتبا أدبية وعلمية، كما عكفوا على نشر أبحاث تاريخية قومية ، تثير فى نفوس الناشئة شعور الاعتزاز بمآثر الاجداد . وقد نشرت هذه الجهود المتنوعة بين الناس فكرة القومية الصربية ، ودفعتهم الى القيام بثورات استقلالية ، مما ساعد على تكوين الدولة الصربية ، فى المقاطعات الشمالية التى تقطنها جماعات كثيفة من الصرب ، وبقيت جماعات كبيرة منهم ، خارج حدود هذه الدولة ، حتى ضم جزء كبير منها الى الدولة الصربية عقب حرب سنة ١٩١٣ ، ثم عمل زعماء القومية الصربية على ضم الكروات والسلوفن والبوشناق التى كانوا يعتبرونها من صميم الشعب الصربى ، حتى تم لهم ذلك بعد الحرب العظمى الاولى ، مع ضم البوسنة والهرسك والجبل الاسود كذلك ، باسم « الدولة الصربية الكرواتية السلوفنية » .. ثم ما لبث أن تحول هذا الاسم الى « يوغوسلافيا » .

استقلال البانيا

٥ - **أما** الألبان فكانوا أصغر شعوب البلقان ، وقد دخلوا تحت حكم السلطنة العثمانية فى أواسط القرن الخامس

عشر ، وبقوا تحت هذا الحكم حتى انتهاء حرب البلقان سنة ١٩١٣ . وكانوا يتكلمون بلغة خاصة بهم ، وقد اعتنق أغلبهم الدين الاسلامى ، وشغلو مناصب فى السلطنة العثمانية ، غير أنه نظرا لبعد ألبانيا عن عاصمة السلطنة ، فانها تأثرت تأثيرا شديدا بالحركات القومية والثورات الانفصالية التى قامت فى البلاد البلقانية ، **وبدأت الفكرة القومية تعمل عملها أولا بتوجيه العناية الى اللغة القومية** ، لان التعليم كان يجرى باللغة التركية واللغات الاوروبية ، ونظرا لان اللغة الالبانية لم تكن لغة مكتوبة – وانما لغة كلام فقط – فقد بدأوا يدونونها ، حتى نشبت الحرب سنة ١٩١٣ بين السلطنة العثمانية وبين الدول البلقانية المتفقة ، وانتهت باندحار الجيوش العثمانية وانسحابها من شبه جزيرة البلقان ، ومن ثم الى خروج تلك البلاد من الحكم العثمانى بصورة نهائية . وهكذا استقلت ألبانيا وأخذت تعزز قوميتها بكل ما لديها من قوة .

وهكذا تكونت فى شبه جزيرة البلقان خمس دول مستقلة ، مؤسسة على أسس قومية . **وقد بدأت الحركات القومية فيها جميعا بالاهتمام باللغة القومية وبالتاريخ القومى .**

نشوء القومية عند الاتراك

والاتراك من الاقوام الكبيرة ، المنتشرة على مساحة واسعة من الارض : فالفرع الغربى منهم يقطن آسيا الصغرى المعروفة باسم (الأناضول) ، فى حين أن الفرع الشرقى منهم يقطن (كاشغر) المعروفة باسم (التركستان الصينية) . وقد أسس الاتراك دولا عديدة فى مختلف أقسام آسيا ، فى مختلف أدوار التاريخ ، وبعض هذه الدول حكم أقساما كبيرة من قارة أوروبا أيضا . غير أن هذه الدول كلها كانت قد انقرضت قبل أواسط القرن التاسع عشر ، باستثناء واحدة

منها ، هى الدولة العثمانية ، التى حافظت على استقلالها ، بالرغم من زوال شوكتها . والعنصر التركى أصبح خلال القرن التاسع عشر من الأمم المحكومة فى كل مكان ، باستثناء أراضى السلطنة العثمانية ، التى لم يكن فيها مستقلا فحسب ، بل كان حاكما أيضا .

ونشوء الفكرة القومية عند الاتراك العثمانيين يعطينا نموذجا خاصا يختلف عن سائر النماذج اختلافا كبيرا ، لأنهم كانوا مستقلين ومتحدين ، قبل أن تدب فى نفوسهم فكرة القومية التركية . وكان الاتراك العثمانيون يدينون بالاسلام ، ويسعون لتوسيع دائرته ، وكانوا يعبرون عن « القومية » بكلمة « الملة » ، ويقولون على الدوام « الدين والملة شىء واحد » . وكان الاتراك العثمانيون — حكومة وشعبا — مرتبطين بفكرة « الوطنية العثمانية الاسلامية » ارتباطا شديدا ، وبعيدين عن الشعور بالقومية التركية بعدا كبيرا . **الا انه منذ أوائل القرن العشرين ، بدأت فكرة « القومية التركية » تعمل عملها فى النفوس ، وقد انتصرت بقيام « الدولة التركية الفتية » ، مقام السلطنة العثمانية المحتضرة .**

وقد بدأت الفكرة القومية عند الاتراك العثمانيين كحركة لغوية أدبية ، ثم صارت تظهر فى الأبحاث التاريخية ، وبعد ذلك انتقلت الى ميادين الحكم والسياسة . وقد أخذت الجمهورية التركية الجديدة على عاتقها اتمام صبغ الشعب والحكومة بالصبغة التركية ، وتحقيق كل ماتقتضيه فكرة القومية التركية . وأزالت بذلك جميع النظم الباقية من عهد « الدولة العثمانية الاسلامية » التى كانت سائدة .

وكان أول أثر للفكرة القومية التركية يتناول اللغة والأدب ، اذ بدأت بالاعتراض على نسبة اللغة والأدب الى العثمانية ،

وبالدعوة الى الكف عن اقتباس الكلمات من المعاجم اللغوية والدواوين الشعرية العربية والفارسية . ويقول فى ذلك الشاعر ضيا باشا « نحن أتراك ، فينبغى أن يكون لنا لغة تركية » . وقد شجع الغازى مصطفى كمال هذا الاتجاه . كما ان التطورات التى حدثت فى اللغه بسبب انتشار فكرة القومية التركية أثرت فى الشعر أيضا ، فتحرر من أوزان العروض المأخوذه عن الشعر العربى . كما ظهرت نفس النزعة فى الأبحاث التاريخية منذ أواخر القرن التاسع عشر ، فراح المؤلفون يكتبون عن تاريخ الاتراك « السابق للاسلام ، والمستقل عن الاسلام » . وقد بدأ تيار قوى يدعو الى اعادة النظر فى التاريخ المدون ، اذ قالوا ان « التاريخ العثمانى كتب بنظرات دينية ، وهذه النظرات الدينيه حالت دون تقدير الوقائع على وجهها الصحيح » . حتى اذا تقرر آخر الأمر الغاء الخلافة الاسلامية ، أصبحت الدولة بذلك تركية بكل معنى الكلمة . وهكذا أتمت الفكرة القومية نشوءها عند الاتراك العثمانيين ، وأوجدت دولة تركية بحتة : تركية فى اسمها ، وفى سياستها ، وفى لغتها ، وفى مختلف فروع نشاطها . وقد وصلت فكرة القومية عند الاتراك العثمانيين الى غاية مبتغاها ، بخلق وتكوين الجمهورية التركية الحديثة، وجعلها متقدمة ، وقوية ، ومرهوبة الجانب .

نشوء القومية فى البلاد العربية

فى أوائل القرن التاسع عشر — عندما بدأت « الفكرة القومية » تلعب دورا هاما فى السياسة الاوروبية — كانت البلاد العربية داخلة فى حوزة السلطنة العثمانية منذ قرون عديدة ، (وذلك باستثناء المغرب الأقصى من جهة، وحضرموت مع قلب الجزيرة العربية من جهة أخرى) . وكانت البلاد العربية بوجه عام خاضعة فى استسلام للسلطنة العثمانية

باعتبارها دولة اسلامية تدافع عن الاسلام . حتى حدث فى النصف الاول من القرن التاسع عشر فى البلاد الاسلامية حادثان خطيران زعزعا الاوضاع القائمة فى السلطنة العثمانية زعزعة شديدة ، وهما ثورة الوهابيين فى نجد ، وثورة محمد على فى مصر . الا ان الثورة الوهابية كانت حركة دينية، فلم تؤثر فى نشوء الفكرة القومية . وكذلك لم تستمد ثوره محمد على قوتها من نزعة قومية . وأما نشوء فكرة القومية العربية بمعناها التام ، فقد بدأ فى البلاد العربية الاخرى التى كانت باقية تحت الحكم العثمانى المباشر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

فقد كان المسلمون التابعون للدولة العثمانية يعتبرون التاريخ العثمانى تتمة للتاريخ الاسلامى العام . ولذلك فلم تكن لديهم فكرة عن « تاريخ الأمة العربية » .. حتى اذا بدأ بعض المفكرين يشك فى صحة اعتبار السلاطين العثمانيين خلفاء للمسلمين ، **ظهرت فكرة ان الخلافة الاسلامية من حق العرب ، فيجب أن تعود الى العرب . ثم أخذ بعض المتنورين كذلك يفكرون فى القومية العربية تفكيرا مستقلا عن الاعتبارات الدينية** ، فقام بعضهم يصفون سوء أحوال البلاد ، من جراء فساد الحكم ، ويقولون بوجوب مطالبة الدولة باصلاحات جدية فى البلاد العربية ، وراح البعض الآخر ينظرون الى الامور بنظرات قومية أكثر وضوحا وأشد صراحة ، فأخذوا يقارنون بين الولايات العربية وبين سائر الولايات العثمانية، ويخرجون من هذه المقارنات بأن حقوق العرب مهضومة فى السلطنة العثمانية ، ووجوب ازالة الغبن اللاحق بالعرب .

القومية العربية دعوة مجردة عن الاعتبارات الدينية

أما العرب المسيحيون فقد توصلوا خلال دراساتهم الى أن « الأمة العربية من أعظم الأمم فى التاريخ . وقد كانت لها

حضارة قبل الاسلام ، وصارت لها حضارة أرقى من ذلك بكثير بعد الاسلام ، **والمسيحيون ساهموا فى بناء الحضارة العربية قبل الاسلام وبعد الاسلام . وهذه الحضارة لم تكن دينية بحتة ، كما يتوهم البعض ، بل أن لها كثيرا من العناصر والمظاهر التى لاتمت الى الدين بأية صلة .** ومما يبرهن على ذلك أن الاوروبيين اقتبسوا منها أشياء كثيرة وكثيرة جدا . ولذلك كله ، يجب على العرب المسيحيين أن يفتخروا بالتاريخ العربى ، وبالحضارة العربية ، شأنهم شأن المسلمين » . وكانت هذه هى البذور الاولى لفكرة « القومية العربية » المتجردة من الاعتبارات الدينية .

ومن هنا ، ظهرت الدعوة الى اقامة خلافة عربية بأجلى مظاهرها فى كتاب « أم القرى » لعبدالرحمن الكواكبى ، وقد صدر باللغة العربية فى مصر سنة ١٣١٦ هجرية . كماظهرت الدعوة الى انشاء دولة عربية مستقلة بوضوح تام فى كتاب « يقظة الأمة العربية » لنجيب عازوزى وقد صدر فى باريس باللغة الفرنسية سنة ١٩٠٥ ميلادية .

.. حتى اذا بدأت « الحياة النيابية الدستورية » فى السلطنة العثمانية سنة ١٩٠٨ ، بدأت القومية العربية تأخذ شكلا واضحا ، سيما وأن الانتخاب والترشيح كانا مباحين للجميع ، ومن ثم أصبح للنواب العرب رأى مسموع . وقد أدى سير الحوادث بمعظم ساسة الأتراك لأن يقولوا بوجوب جعل السلطنة « تركية عربية » . ولكن نظرا لموقف الحكومة العثمانية المجافى لمصالح العرب ، رأت بعض الجماعات أن تلجأ الى التشكيلات السرية ، بينما رأت جماعات أخرى أن تسعى لعقد مؤتمر عربى عام خارج البلاد العثمانية . وهذه الفكرة الاخيرة تولى تحقيقها جماعة من شبان العرب المقيمين فى باريس . وانعقد المؤتمر العربى الاول فى باريس فى ١٧ حزيران

سنة ١٩١٣ . واشترك فى المؤتمر ممثلون لمختلف الجمعيات العربية القائمة فى الآستانة ودمشق وبيروت والقاهرة ، وممثلون لمهاجرى العرب فى المكسيك وفى الولايات المتحدة الامريكية . وتلقى المؤتمر خلال انعقاده عددا كبيرا من برقيات التهنئة والتأييد من مختلف المدن العربية . وكان من أهم ماقرره المؤتمر : المبادرة الى تنفيذ الاصلاحات الحقيقية فى المملكة العثمانية ، وكفالة تمتع العرب بحقوقهم السياسية ، بأن يشتركوا فى الادارة المركزية للمملكة اشتراكا فعليا ، ويجب أن تنشأ فى كل ولاية عربية ادارة لا مركزية تنظر فى حاجاتها وعاداتها ، وأن تكون اللغة العربية معتبرة فى مجلس النواب العثمانى ، ويجب أن يقرر هذا المجلس كون اللغة العربية لغة رسمية فى الولايات العربية .

وقد ألقى « عبدالغنى العريس » خطابا فى المؤتمر جاء فيه : « **ان العرب تجمعهم وحدة لغة ، ووحدة تاريخ ، ووحدة عادات ، ووحدة مطمح سياسى ... فنحن عرب قبل كل صبغة سياسية** . حافظنا على خصائصنا وميزاتنا وذاتنا منذ قرون عديدة ، رغم ما كان ينتابنا من حكومة الآستانة من أنواع الادارات ، كالامتصاص السياسى أو التسخير الاستعمارى ، أو الذوبان العنصرى . فكل ماتذرعت به الآستانة من الوسائل لم يؤد الى غير نتيجة واحدة ، وهى الحرص على مكانة حق الجماعة واحياء هذا الحس الشريف النبيل : حس الجنسية . فاقتفاء للماضى نقرر مناهضة كل ما يؤول الى اضعاف هذه القومية ، والتذرع بكل ما فيه حياة لخصائص العرب وميزات العرب . فنحن كتلة حية ، قائمة بذاتها ، وخاصتها لاتدع أية قوة تمس هذا الركن الركين » .

تراجع .. وانتقام !

وقد أبدت الحكومة العثمانية استعدادا طيبا للاستجابة لمطالب المؤتمر ، وظهر من التصريحات الرسمية للمسئولين فيها انها أصبحت على أبواب حياة جديدة ، تقوم على التفاهم والتعاضد بين العرب والاتراك . الا أن الحوادث التى توالت بعد ذلك ، ولا سيما الحرب العالمية الاولى ، غيرت مجرى الامور تغييرا كليا . فما ان نشبت الحرب حتى توقفت الحكومة العثمانية تماما عن تنفيذ ما كانت قد وعدت به . بل أن تصرفات الحكومة فى الشئون العربية ، لم تتوقف عند حد « تأجيل الاصلاحات التى كان قد تم الاتفاق عليها سابقا » ، بل تعدت ذلك الى « الانتقام من زعماء الحركة التى أدت الى ذلك الاتفاق » . وذلك بغية نسف فكرة الاصلاحات من أساسها . وكان من الطبيعى أن تثير هذه التصرفات الجديدة كوامن النفوس ، وأن تدفع الناس فى آخر الامر الى الثورة دفعا . ونستطيع أن نقول : ان الثورة العربية التى أعلنها الملك حسين ، فى أواخر السنة الثانية من الحرب — فى ١٠ حزيران سنة ١٩١٦ — جاءت موافقة لآراء متنورى العرب ورغباتهم تمام الموافقة . ولذلك انضم الى الثورة عدد كبير من المتنورين ، من ضباط ومدنيين ، من مختلف الاقطار العربية . وهذه الثورة التى بدأت من مكة المكرمة ، تحت زعامة أمير مكة ، لم تكن ثورة حجازية ، بل كانت ثورة عربية بكل معنى الكلمة ، لانها كانت ترمى الى استقلال الولايات العربية بأجمعها ، وكانت تصبو الى تكوين دولة عربية جديدة موحدة ، تنهض بالأمة نهضة حقيقية ، وتعيد اليها مجدها السالف. **ولذلك اشترك فى الثورة ، وقام بأعبائها رجال من مختلف الاقطار العربية ، كما كان بينهم المسلم والمسيحى . وقد تقدمت الثورة من الحجاز الى**

دمشق ، ثم تعدتها لتتعقب الجيوش التركية حتى حلب وما وراءها . وقد قوبلت الثورة فى لبنان وسوريا بحماس عظيم. واستمرت الحماسة واستعرت مدة سنتين ، اختمرت خلالها فكرة القومية العربية ، واكتسبت قوة عظيمة ، وانتشرت انتشارا كبيرا . وتولدت فى النفوس من جراء ذلك كله « وطنية عربية » ، صريحة ، متحررة من قيود نزعة « العثمانية الاسلامية » التى كانت تأخذ بخناق فكرة القومية العربية ، وتمنعها عن الانطلاق والاندفاع .

دول الاحتلال والانتداب تحارب القومية العربية

والواقع ان المقررات التى اتخذها الحلفاء فى مؤتمر (سان ريمو) بشأن الانتدابات والاجراءات العسكرية التى أعقبت تلك المقررات ، أنزلت على فكرة القومية العربية ضربات قاسية ، ولكنها لم تستطع القضاء عليها . بل نستطيع أن نقول انها فتحت فى تاريخها فصلا جديدا .

ذلك أن الثورة العربية كانت قد قامت بغية ضمان استقلال الولايات العربية بأجمعها ، وبأمل تكوين دولة عربية مستقلة تجمع تلك الولايات تحت راية واحدة . ولكن معاهدات الصلح ومقررات الانتداب قضت على هذا الأمل ، وقسمت الولايات العربية المنفصلة عن السلطنة العثمانية الى سبع وحدات سياسية ، احداها تحت حكم أجنبى محض ، واثنتان منها مستقلتان استقلالا تاما ، والاربع الباقية تحت ادارات وطنية مقيدة بقيود الانتداب . وقيام هذه الدول العربية بهذه الصورة صار سببا لتوليد « نزعات اقليمية » مرتبطة بكل دولة من الدول . وهذه النزعات الاقليمية أخذت تعاكس فكرة « القومية العربية » ، وتعرقل سيرها ، بل تحاول فى بعض الاحيان وفى بعض الجهات القضاء عليها . **كما أن الدول المحتلة والمنتدبة لم تكن ترتاح**

بوجه عام الى تكتل الشعوب العربية ، فهى ترى من مصلحتها أن يستمر التباعد بين هذه الشعوب، بل ان يتفاقم ويتأبد . ولذلك تبذل كل ما فى استطاعتها للحيلولة دون انتشار فكرة القومية العربية . وقد اهتمت بذلك فرنسا بوجه خاص اهتماما كبيرا جدا ، وحاربت فكرة القومية العربية بكل وسائل الدعاية الخداعة .

الا أن ثمة عوامل أخرى كان من شأنها توطيد فكرة القومية العربية ؛ ومنها ما استجد من وسائل المواصلات السريعة التى تربط بين الامم العربية ، وكذلك الصحافة والاذاعة ، مما ساعد على تكوين شعور مشترك عام ، يشمل مختلف الاقطار العربية . كما قام جماعة من القوميين يؤلفون الاشعار والاناشيد ، ويلقون الخطب ، والمحاضرات ، وينشرون الكتب والمقالات ، لبث الفكرة القومية ، ومحاربة النزعات الاقليمية . كما أن بعض الحكومات أخذت على عاتقها مهمة نشر فكرة القومية العربية مباشرة ، فأدخلت فى مناهج مدارسها المختلفة الأبحاث التى تخدم الغاية المذكورة فى صراحة . وقد كانت هذه الاعمال والمساعى تنحصر فى بادىء الامر داخل كل دولة على حدة ، الا أنها صارت بعدئذ تجمع رجالا من دول مختلفة يعملون فى جمعيات دائمة أو مؤتمرات موقوتة . وأخيرا صارت الدول العربية نفسها تشترك فى أمثال هذه الاعمال والمساعى .

القلوب والانظار تتجه نحو مصر

وفى هذا الطور من القضية العربية ، أخذت مصر تلعب دورا هاما جدا : فمصر كانت قد انفصلت عن الدولة العثمانية فعليا منذ مدة طويلة ، وابتليت بمشاكل خاصة من جراء الاحتلال البريطانى منذ ١٨٨٢ . وفى حين كانت

مصر مشغولة بمشاكلها تلك ، **كان جماعات من مثقفى العرب تتجه بقلوبها وبأنظارها نحو مصر ، تنتظر منها أن تتزعم الحركة العربية . حتى اذا وقعت معاهدة (لوزان) ، أخذت مصر تهتم بالقضايا العربية ، ففتح ذلك فى « تاريخ نشوء الفكرة القومية عند العرب » فصلا جديدا** . اذ أصبحت الفكرة القومية موضع بحث واهتمام لدى كثير من الهيئات فى جميع الدول العربية ، وفى كثير من المؤتمرات الدورية كالمؤتمرات الطبية العربية ، ومؤتمر المحامين العرب ، ومؤتمر المهندسين العرب ، كما تناولت المؤتمرات الشئون السياسية : كالمؤتمر الفلسطينى العربى العام الذى عقد فى بلودان سنة ١٩٣٧ . وبعد تلك المؤتمرات الشعبية ، صارت الحكومات أيضا تشعر بضرورة التعاون والتعاضد لصيانة المصالح العربية المشتركة ، ومؤتمر المائدة المستديرة الذى انعقد فى لندن سنة ١٩٣٩ لمناقشة قضايا فلسطين كان أول مظهر من مظاهر هذا الشعور .

وهذه الاجتماعات والتشكيلات الشعبية والحكومية المتفرقة والمؤقتة ، مهدت السبيل الى منظمة دائمة تتولى شئون الدول العربية . فتكونت جامعة الدول العربية عام ١٩٤٥

على أن فكرة « القومية العربية » لاتزال فى حالة كفاح مع النزعات الاقليمية . فماذا عساها تكون نتيجة هذا الكفاح ؟ **ان ما لاحظناه من الاتجاه الثابت فى تاريخ نشوء فكرة القوميات عند الامم الغربية والشرقية ، لايترك مجالا للشك فى ان الغلبة ستكون فى آخر الأمر لفكرة القومية العربية العامة .**

(وعند هذا الحد وقف المؤلف فى محاضراته التى ألقاها عام ١٩٤٨ . وقد حققت الاحداث حدسه ، على يد رائد القومية العربية الرئيس جمال عبد الناصر) .



مؤسسة فن الطباعة